دلفين دو فيغان

# الأطفال ملوك

ترجمة: دانيال صالح

مكتبة ١٣٦٢

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة | 1262 الأطفال ملوك

مكتبة
t.me/soramnqraa
16 7 23

الكاتب: دلفين دو فيغان

عنوان الكتاب: الأطفال ملوك

ترجمة: دانيال صالح

العنوان باللغة الأصلية: Les enfants sont rois

الكاتب: Delphine de Vigan

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-15-0

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

©Éditions Gallimard, Paris, 2021

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

دلفين دو فيغان

مكتبة | 1262

# الأطفال ملوك

رواية

ترجمة

دانيال صالح

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

## عالم مغاير

**سـنحت لنـا الفرصة لنغيّـر العالم،**
**لكنّنـا فضّلنـا التسـوّق التلفزيونيّ.**

ستيفن كينغ، «عن الكتابة: مفكّرة الحرفة».

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

مكتبة
t.me/soramnqraa

الموضوع:

تفريغ محتوى واستخدام آخر ستوريز نشرتها ميلاني كلو (زوجة ديور) على إنستغرام.

### الستوري ١

*نُشرت في ١٠ نوفمبر في الساعة ١٦,٥٥ (٣٥)*

*المدّة: ٦٥ ثانية*

صُوّر مقطع الفيديو في متجر أحذية.

صوت ميلاني: «أحبّائي، وصلنا إلى ران-شوب لشراء حذاء رياضي جديد لكيمي. أليس كذلك يا قطّتي الصغيرة؟ أنت بحاجة إلى حذاء رياضي جديد لأن حذاءك الآخر بدأ يضيق قليلاً على قدميك، أليس كذلك؟ (تتّجه كاميرا الهاتف الجوّال صوب الفتاة التي تستغرق ثوانيَ قبل أن تومئ موافقةً، من غير أن يبدو عليها

الكثير من الاقتناع. إذا، هذه هي الأحذية الثلاثة التي اختارتها كيمي بمقاس ٣٢ (تظهر في الصورة الأحذية الثلاثة مصفوفة جنباً إلى جنب). أتشاركها معكم عن كثب: حذاء نايكي إير ذهبيّ من التشكيلة الجديدة، حذاء أديداس بثلاثة أشرطة، وحذاء من غير ماركة له تعزيزات حمراء... لا بدّ لنا من حسم أمرنا، وكما تعرفون، كيمي تكره أن تختار. إذا أحبّائي، كلّ اعتمادنا عليكم!».

يظهر على الشاشة مطبوعاً فوق الصورة استطلاع للرأي مقتضب:

أي حذاء يجدر بكيمي أن تختار؟

أ - نايكي إير

ب - أديداس

ج - الحذاء بأفضل سعر

تدير ميلاني الكاميرا صوبها مجدّدا مختتمة «أحبّائي، لحسن الحظّ أنّكم هنا، وأنتم من يقرّر».

*قبل ثمانية عشر عاما*

في الخامس من يوليو ٢٠٠١، يوم بثّ الحلقة الأخيرة من برنامج «لوفت ستوري»[١]، جلست ميلاني كلو والداها وشقيقتها ساندرا في موضعهم المعتاد أمام التلفاز. منذ ٢٦ أبريل، تاريخ إطلاق اللعبة، لم تفوّت عائلة كلو أيّا من حلقات الخميس التي تسجّل أعلى نسب مشاهدة.

قبل بضع دقائق من إطلاق سراحهم بعد قضائهم سبعين يوما محتجزين في مساحة مسوّرة بالجدران، تتضمّن فيلا مسبقة البناء وحديقة زائفة وخمّ دجاج حقيقيّاً، جمع البرنامج المتبارين الأربعة المتبقّين في الصالون الفسيح، فجلس الفتيان متلاصقَين على الأريكة البيضاء، فيما جلست الفتاتان من الجانبين على المقعدين المتناسقين. ذكّر مقدّم البرنامج الذي اتّخذ مساره المهني للتوّ منعطفا خارقاً بقدر ما هو مفاجئ، بأن اللحظة الحاسمة التي طال انتظارها

(١) Loft Story أول برنامج من تلفزيون الواقع في فرنسا بُثّ الموسم الأول منه في ٢٠٠١ والموسم الثاني في ٢٠٠٢، وكان مقتبساً عن برنامج Big Brother الهولندي.

حانت أخيرا، معلناً بحماسة واندفاع «أبدأ العدّ من عشرة، وعند الصفر تخرجون!» سأل للمرّة الأخيرة إن كان الجمهور جاهزا لمواكبته، ثمّ بدأ العدّ العكسي «عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة، ستة، خمسة»، ترافقه جوقة طيّعةٌ وصاخبة. اندفع المتبارون صوب الباب حاملين حقائبهم، «أربعة ثلاثة، اثنان، واحد، صفر!». فُتح الباب كأنما بعصفة ريح، وعلت هتافات.

راح مقدّم البرنامج يصيح بأعلى صوته ليطغى على ضوضاء الحشد المتجمهر في الخارج وهتاف الجمهور المتلهّف المحتجَز منذ أكثر من ساعة داخل الأستديو. «إنهم في الخارج! إنّهم مقبلون! سبعون يوما، وها هم لور ولوانا وكريستوف وجان إدوار يعودون إلى الأرض!» قُطع المشهد مراراً بلقطات شاملة تُظهر الألعاب الناريّة المنطلقة من سطح المبنى الذي آواهم خلال تلك الأسابيع الطويلة، بينما المتبارون الأربعة المتبقّون يتقدّمون على البساط الأحمر المفروش لهذه المناسبة.

صاروا في الخارج، أجل، إنّما في خارج غريب لا يزال أشبه بداخل. كان جمع غفير يتدافع هائجاً خلف سواتر منصوبة، ومصوّرون يحاولون الاقتراب، وأشخاص لا يعرفونهم يستعطون منهم توقيعا، وصحافيّون يمدّون لهم ميكروفونات. وكان البعض يلوّح بلافتات أو ألواح تحمل أسماءهم، وآخرون يصوّرونهم بواسطة كاميرات صغيرة (كانت الهواتف النقالة لا تزال في ذلك الوقت أجهزة بدائيّة لا تستخدّم إلا للاتّصال).

الوعود التي قُطعت لهم تحقّقت. أحرزوا الشهرة خلال بضعة أسابيع.

تقدّموا بمواكبة حرّاس شخصيّين وسط المعجبين فيما واصل مقدّم البرنامج التعليق على سيرهم، «لم يعودوا سوى على مسافة أمتار من الإستديو، استعِدّوا، إنهم يصعدون الأدراج»، ولم يكن التكرار بين الصورة والتعليق يقلّل إطلاقاً من التشويق الدراميّ، بل على العكس يضفي عليه فجأة بعداً غير مسبوق، بُعداً مذهلاً، وفق أسلوب سوف يُستنفد لاحقاً بشتّى أشكاله طوال بضعة عقود. تضاعفت الصيحات وانفتحت ستارة سوداء مفسحة لعبورهم. ولّما دخلوا الإستديو حيث كانت تنتظرهم عائلاتهم والمتبارون التسعة الآخرون الذين خرجوا سواء بملء إرادتهم أو بالتصفية خلال الأسابيع السابقة، تصاعد الضغط درجة. وسط أجواء بالغة الحماس وبلبلة متزايدة، راح الحشد يهتف اسماً: «لوانا! لوانا!».

وعلى غرار الجمهور، كانت أسرة كلو بأكملها تتمنّى فوز لوانا. ميلاني تراها بكلّ بساطة رائعة، بنهديها اللذين خضعا لعمليّة تجميل وبطنها المسطّح وبشرتها الملوّحة. أمّا ساندرا التي تكبر ميلاني بسنتين، فتجدها مؤّثرة بعزلتها وتعابيرها الحزينة الحالمة، إذ كانت الصبيّة في بادئ الأمر منبوذة من المتبارين الآخرين بسبب ملابسها، ثم بالرغم من اندماجها الظاهري، بقيت المحور الرئيسي للشائعات والنميمة. حتّى السيّدة كلو، وبالرغم من خيبة أملها لإقصاء جولي، المتبارية الشابّة المرحة الودود التي كانت تفضّلها بفارق كبير على

سواها، استسلمت لتعاطفها مع قصّة لوانا التي كشفتها صحافة المشاهير، طفولتها الصعبة وابنتها الصغيرة التي فُصلت عنها وعُهد بها إلى عائلة حاضنة. الوالد ريشار، من جانبه، كان مفتوناً تماماً بالحسناء الشقراء. كانت صور لوانا بالشورت أو التنورة القصيرة والقمصان المكشوفة الظهر أو بثوب السباحة، وابتسامتها الواهنة، تلاحقه طوال الليل وأحياناً حتى خلال اليوم التالي. كان جميع أفراد العائلة متفقين على نبذ لور باعتبارها في غاية البورجوازيّة، وجان إدوار، الطفل المدلّل الطائش والأحمق.

بعد قليل، وبعدما اختار المشاهدون الفائزَين، وبينما كان الجميع يعود إلى الموقع السري حيث كان يفترض أن يكملوا الأمسية، غادر موكبٌ من السيارات السوداء حيّ لا بلين سان دوني، تتبعه درّاجات نارية مجهّزة بكاميرات، وسط تدابير فنيّة تليق بسباق طواف فرنسا للدراجات الهوائيّة. وعند كلّ إشارة مرور حمراء، تمدّ ميكروفونات من النوافذ المفتوحة لتلقّف انطباعات الفائزَين.

قال المقدّم الذي لم يعد المكياج يخفي الإنهاك الظاهر على ملامحه «هذا يذكّرني بانتخاب شيراك!».

عند مشارف ساحة ليتوال، تشكّلت زحمة. في جادة لا غراند أرميه، كانت الحشود تتدفّق من كل الشوارع المتفرّعة، والناس يتركون سيّاراتهم ليتمكّنوا من الاقتراب. عند مدخل الحانة الليليّة، تجمّع مئات الفضوليّين ينتظرون المشاركين في برنامج «لوفت ستوري».

أعلن كريستوف، أحد الفائزَين، للمقدّمة الموفَدة إلى الموقع «الجميع يحبّنا! هذا رائع!».

خرجت لوانا من السيّارة، مرتدية قميصاً ضيّقاً محبوكاً بلون زهريّ شاحب وسروال جينز باهتاً، فانتصبت بقامتها المذهلة ممتشقة كعبيها العاليين وجالت بنظرها من حولها. لمح البعض في عينيها شروداً ربّما، أو حيرة. أو نذير قدرٍ مشؤوم.

كانت ميلاني كلو آنذاك في السابعة عشرة من عمرها، وأنهت للتوّ الصفّ الثاني الثانوي أدبي في ثانويّة سان فرنسوا داسيز في لا روش سور يون. كانت أطباعها تميل إلى الانطوائيّة، فلم يكن لديها سوى قلّة من الأصدقاء. وعلى الرّغم من أنّها لم تضع يوماً بالحسبانِ حقاً أن يكون مستقبلها مرتبطاً، أيّ ارتباطٍ كانَ، بمواصلة دراساتها غير الأكيدة، إلّا أنّها كانت تلميذة مجتهدة تحقق نتائج مرضية. كان أكثر ما تهواه مشاهدة التلفزيون. كان يراودها إحساس بالفراغ تشعر به بدون أن تتمكن من وصفه، إحساس أقرب إلى القلق ربّما أو الخوف من أن تفلت حياتها منها، مخلّفاً أحيانا في أحشائها فراغاً أشبه ببئر ضيّقة بلا قعر، وهذا الشعور لم يكن يستكين إلا عندما تجلس أمام الشاشة الصغيرة.

على مسافة بضع مئات الكيلومترات من هناك، في بانيو بضاحية باريس، كانت كلارا روسّيل تشاهد وحيدة في السرّ الحلقة الأخيرة من «لوفت ستوري». كانت في ذلك الحين في الصف الأول ثانوي، وكانت مقدّراتها المؤكّدة ومستوى التعليم المتوسّط في ثانويّتها

عاملان يسمحان لها بالحصول على علامات مرضية رغم أنها لم تكن تدرس إطلاقاً في المنزل. كان اهتمامها يتركّز بصورة خاصّة على الفتيان، مع أفضليّة للشقر ذوي الشعر القصير، وهي مواصفات يبدو لها أن المنافسة عليها أدنى من غيرها، إذ كانت قلوب الفتيات تميل بالتأكيد في تلك الفترة إلى السمر الغامضين. تبيّن أن أسلوبها في الكلام غير الشّائع بين أقرانها، إذ كان الجميع يمازحها على اختيار مفرداتها وميلها إلى الجمل المعقّدة، هو ميزةٌ في ما يخصّ الإغراء. كان والداها، وهما مدرّسان منخرطان أشدّ الانخراط في القضايا المحليّة والشأن العام، ينتميان إلى جمعيّة «ابتسم، أنت تصوَّر» منذ إنشائها، وهي جمعية تضمّ أشخاصاً لا يودّون الانسياق لمجتمع خاضع لطغيان التكنولوجيا، تنشط كثيراً في مكافحة كلّ أشكال المراقبة عبر الفيديو. ودعت الجمعيّة المشاهدين إلى مقاطعة البرنامج، وطلبت منهم قبل أسابيع أن يفرغوا قمامتهم أمام مقرّ قناة «إم ٦» التلفزيونية. وشهدَ اليوم المذكورُ أحداثَ رشق بالبيض والزبادي والبندورة وإلقاء الكثير من القمامة. بالطبع، شارك والدا كلارا في هذا التحرّك، وانضمّا لاحقا إلى عملية أخرى واسعة النطاق قادتها شبكة «زاليا تي في»، وهي شبكة بديلة قادت في مطلع الألفيّة تجربة رائدة في مجال التلفزيون الحرّ. تمكّن ما لا يقلّ عن مئتي وخمسين ناشطا من الاقتراب من موقع تصوير «لوفت ستوري» بهدف إطلاق سراح المشاركين في البرنامج، لا بل نجحوا في تخطي جدار حماية أوّلي. وظهر فيليب، والد كلارا، في تقرير مقتضب بثّته شبكة «فرانس ٢» في نشرتها الإخباريّة.

وصرّح عبر ميكروفون إحدى الصحافيّات «الصليب الأحمر يدخل إلى مخيّمات السجناء، ونحن نطالب بالحقّ نفسه! إنهم يعانون من سوء التغذية، هم منهكون، معرّضون لأضواء الكشّافات، يبكون طوال الوقت! أطلقوا سراح الرهائن!».

ورد الجميع هاتفين بصوت واحد «أطلقوا سراح الدواجن!»، فيما وقف عناصر الأمن حاجزا لمنعهم من التقدّم أكثر.

غنيّ عن القول إذاً إن والدي كلارا اللذين كانا ليلة الحلقة الأخيرة مشغولين في اجتماع للجمعيّة حول موضوع «في أي مجتمع نودّ العيش؟»، ما كانا ليرضيا أن تغتنم ابنتهما البالغة بالكاد خمسة عشر عاما غيابهما، لتسترخيَ مستمتعةً أمام البرنامج الجهنّمي الذي يمثّل مؤشراً جليّا لمرضِ عالمٍ بات كل ما فيه بضاعة قابلة للتسويق، وتحكمه عبادة الأنا.

كان أحد عشر مليون مشاهد يتابعون في تلك الليلة الحلقة الأخيرة من «لوفت ستوري». لم يسبق أن أثار برنامج تلفزيونيّ هذا القدر من الشغف. في البداية، علّقت الصحافة المكتوبة بإسراف على وصول صيغة البرنامج إلى فرنسا، ثم على مرّ التقلّبات وتوارد المعلومات حلقة بعد حلقة، انغمست في اللعبة، مشرّعة لها صفحاتها الأولى ومقالاتها ومناقشاتها. وعلى مدى أسابيع، انكبّ علماء اجتماع وأنثروبولوجيون وعلماء نفس، ومتخصّصون في الطبّ العقليّ، ومحلّلون نفسيّون، وصحافيّون، ومحرّرو افتتاحيّات، وأدباء وباحثون، على تشريح البرنامج وتحليل أسباب نجاحه.

كتب البعض هنا وهناك: «سيكون هذا البرنامج علامةً فارقةً، لها ما قبلها، وما بعدها».

أرادوا الظهور على التلفزيون لنيل الشهرة، والآن اشتهروا لظهورهم على التلفزيون. سيبقون إلى الأبد الأوائل، الروّاد.

بعد مضي عشرين عاما، باتت أشهر مقاطع الموسم الأول، من ضمنها المشهد الذائع الصيت الذي عُرف بمشهد «حوض السباحة» بين لوانا وجان إدوار ودخول المتبارين إلى الفيلّا، فضلا عن الحلقة الأخيرة بكاملها، متاحة على موقع يوتيوب. وتحت أحد مقاطع الفيديو تلك، كان لأوّل تعليق على الإطلاق كتبه أحد روّاد الإنترنت وقع النبوءة: «الحقبة التي فُتحت فيها أبواب الجحيم».

ربّما بدأ الأمر برمّته فعلاً خلال تلك الأسابيع القليلة. أسابيع اكتسبت فيها الشّاشة تنافذاً. تلك القدرة التي باتت ممكنة على المرور من من موقع المشاهِد الى موقع المشاهَد. ذلك التصميم على أن نكون مرئيّين، معروفين، محطّ إعجاب. تلك الفكرة بأن ذلك في متناول الجميع، في متناول كلّ واحد. لا حاجة للصنع والابتكار والاختراع حتّى ننال «لحظة الشهرة» تلك. يكفي أن نستعرض أنفسنا وأن نبقى داخل الإطار أو أمام العدسة.

ثمّ ما لبث ظهور وسائط جديدة، أن سرّع انتشار الظاهرة. واعتباراً من حينها، سيصبح وجود كلّ شخص رهناً بالتزايد المتنامي لآثاره في شكل صور أو تعليقات، آثار سرعان ما سنكتشف أنّها لا تمّحي. ولأنّ شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي متاحةٌ

للجميع، سرعانَ ما تسلّمت المشعل من التلفزيون، وضاعفت نطاق ما هو ممكن عشرات المرّات. أن تُظهر نفسك. في الخارج، في الداخل، من كلّ الزوايا. أن تعيش ليراك الآخرون، أو أن تعيش بالوكالة. سوف يتوسّع مجال تلفزيون الواقع وما يتشعّب منه من برامج شهادات شيئاً فشيئاً، ليشمل مجالات عديدة، فارضاً، لزمنٍ طويلٍ، رموزَه ومعجمه وطرائقَه السّرديّة.

أجل، تلك كانت بداية كلّ شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين كانت والدة ميلاني تخاطب ابنتها، كانت تبدأ جملها عموماً بكلمة «أنتِ»، متفادية بذلك إبداء مشاعرها بصورة مباشرة، وتُلحقها فوراً بصيغة النفي. «أنت لا تفعلين شيئاً إطلاقاً، أنت لن تتغيّري، أنت لم تُعلِميني، أنت لم تفرغي الجلّاية، لا تقولي إنّك تنوين الخروج بهذا المظهر؟». كانت كلمتا «أنت» و«لا» مترابطتين لا تنفصلان. حين اختارت ميلاني الانتساب إلى كليّة للّغة الإنكليزيّة بعد نجاحها في الباكالوريا من أوّل محاولةٍ، وإن لم تحصل على درجة شرف، قالت لها والدتها «لا تظنّي أننا سندفع تكاليف عشر سنوات من الدراسة!» فالتحصيل الدراسي واحتراف مهنة كانا حكراً على الفتيان، والسيّدة كلو لم ترزق للأسف الشديد بولد، في حين أنّ الفتيات عليهنّ الاهتمام بالمقام الأوّل بالبحث عن عريس مناسب. هي نفسها كرّست حياتها لتربية طفلتيها، ولم تفهم يوماً كيف يمكن لميلاني أن ترغب في مغادرة المنطقة، لامسة خلف هذا الخيار نوعا من العجرفة. أضافت «على قدر لحافك، مدّ رجليك»، كاسرةً بصفةٍ

استثنائيّة قاعدةَ «أنتِ». وبالرغم من ذلك التحذير، وضّبت ميلاني في صيف عامها الثامن عشر حقيبة وانتقلت للإقامة في باريس. سكنت في البداية غرفة ضيّقة تحت السطوح في الدائرة السابعة من باريس، غرفة مع حمّام ومغسلة مشتركين للطابق بكامله، لقاء مجالسة أطفالٍ أربع أمسيات في الأسبوع، ثم استأجرت بعدها استديو ضيّقاً في الدائرة الخامسة عشرة، إذ وجدت عملاً في وكالة سفريّات، وكان والدها يرسل لها مئتي يورو في الشهر.

كيف وصل بها الأمر إلى مغادرة الجامعة للعمل بدوام كامل في الوكالة، كانت عاجزة عن تفسير ذلك، سوى أن كلّ شيء كان يبدو لها أحياناً مكتوباً سلفاً، النجاح كما الفشل، وأنها لم تتلقّ أي إشارة تشجّعها على مواصلة دراستها. صحيح أن نتائجها كانت مُرضية، لكن طلّاباً آخرين باتوا خلال الفترة ذاتها يتكلّمون بدون أي لكنة ويكتبون لغة إنكليزيّة ممتازة. والأهمّ من ذلك أنها حين كانت تحاول انطلاقاً من درس صيغة المضارع أن تستشفّ المستقبل، لم يكن يتراءى لها شيء. لا شيء على الإطلاق. وعند شغور منصب المساعدة الذي يُعنى بمسائل إنسانية وإداريّة في آن، عرضته عليها مديرة الوكالة، فوافقت. كانت الأيام تنقضي بسرعة، وهي تشعر بأنها في المكان المناسب. في المساء، تعود إلى الشقة الصغيرة في شارع فيوليه التي باتت وحدها تدفع تكاليفها، فتعدّ لنفسها عشاء تضعه على صينيّة وتشاهد كل برامج تلفزيون الواقع، لا تفوّت منها برنامجاً. «جزيرة الغواية»، ولو أنه كان يبدو لها منافياً للأخلاق أكثر

ممّا ينبغي، و«شابّ أعزب» الأكثر رومنسيّة، كانا برنامجيها المفضّلين بلا منازع. في عطلة نهاية الأسبوع، كانت تخرج مع صديقتها جيس التي التقتها في المدرسة التكميليّة وانتقلت هي أيضا إلى باريس، لاحتساء البيرة في حانة أو الفودكا مع عصير البرتقال في نادٍ ليليّ.

بعد بضع سنوات، تحت وطأة اشتداد المنافسة من قطاع السياحة الإلكترونية، عرفت وكالة السفريّات التي أتاحت لميلاني دخول حياة العمل مرحلة صعبة أوصلتها إلى شفير إشهار إفلاسها.

ذات مساء، فيما كانت تتصفّح موقعا متخصّصاً في البحث عن مرشّحين لبرامج تلفزيون الواقع، ولا بدّ من القول هنا أنها ردّت على امتداد الأيّام على عدة إعلانات بدون أن يتمّ استدعاؤها مرّة، عثرت على عرض جديد. كان يكفي أن تكون ما بين العشرين والثلاثين من العمر، أن تكون عزباء، وأن ترسل الصورتين المطلوبتين عادة: صورة لوجهها، وأخرى كاملة، والأفضل أن ترتدي فيها إما مايو باليه أو ملابس سباحة. فكّرت أنه مهما كانت النتيجة، سوف تعيش بضعة أيّام من الأمل، بضعة أيّام يراودها فيها حلمها، وهذا بحدّ ذاته مكسب. تلقّت اتّصالا بعد أسبوع. خاطبها صوت شابّ تطلّب منها بضع دقائق لتحدّد إن كان صوت رجل أو امرأة، فطرح عليها حوالي عشرين سؤالاً حول ميولها ومظهرها الجسديّ ودوافعها. كذبت حول تفصيلين أو ثلاثة تفاصيل وتظاهرت بأنها أكثر جسارة وتحرّراً ممّا هي في الحقيقة. لا بدّ من إبداء فرادة إن أرادت أن تحظى بفرصة لقبولها. حُدِّد لها موعد في الأسبوع التالي.

عند حلول اليوم المنتظر، قضت أكثر من ساعة لاختيار ملابسها. كانت مدركة أن عليها إظهار أسلوب مميّز، أسلوب جليّ وملفت في آن، يكشف بشكل آنيّ عن جانب أساسيّ من شخصيتها. الصعوبة في ذلك أنها كانت ترتدي كلّ يوم ملابس متشابهة، سروال جينز وكنزة وقميصاً، وأنها بعد البحث والتدقيق، لم تكن واثقة بأن لديها أيّ شخصية تكشفها.

كانت ميلاني كلو تحلم بأن تكون جامحة ملفتة للأنظار، لكنّها تبقى في الواقع تلك المرأة الشابّة المتحفّظة ذات المظهر الخفر، امرأة تبغضها.

اختارت في نهاية المطاف أضيق سروال لديها، سروال لاصق إلى حدّ تحتّم عليها التمدّد أرضا لتتمكّن من إغلاق السحّاب رغم أن قماشه كان يحتوي على مادة الليكرا، وقميص تي شيرت إعلانيًا من تقديم شركة نستله التي ترقّى فيها والدها للتوّ إلى منصب مسؤول أعلى، قصّته فوق الصدر لإزالة شعار الشركة عنه. انتعلت حذاء رياضياً ثمّ تأمّلت نفسها في المرآة. لا شكّ أنها أسرفت في استخدام المقصّ، فكان بالإمكان رؤية قسم كبير من صدريّتها، لكنّ هذا كان يمنحها بالتأكيد أسلوباً مميّزاً. كان موعدها في الساعة السادسة مساء. وللتثبّت من عدم الوصول متأخّرة، طلبت إجازة نصف يوم.

وصلت إلى مكاتب شركة الإنتاج قبل خمس دقائق من الموعد. كانت أظافرها مكسوة بطلاءورديّ فاتح، ومكياجها يعطيها مظهراً يافعا، إذ وضعت مسحة لون خفيفة على أعلى خدّيها وبعض

الريميل على رموشها. أُدخلت إلى قاعة مربّعة فسيحة في وسطها كاميرا منصوبة على حاملٍ ومقعد خفيض بلا مسند. بعدما قادها الشاب بدون أن يتفوّه بكلمة عبر متاهةٍ من الأروقة، تركها وحيدة. انتظرت ميلاني. انقضت عدّة دقائق، ثمّ ربع ساعة، ثم نصف ساعة. كانت تمتنع عن إبداء أدنى مؤشر عصبيّة أو امتعاض، مقتنعة بأن الكاميرا تصوّرها من دون علمها. لا شكّ أن الصبر من الميزات المطلوبة لتكون مرشّحة جيدة لتلفزيون الواقع، لذا قرّرت التريّث والانتظار بهدوء، واثقة من أنها أمام نوع من الاختبار.

بعد مضيّ ساعة، ظهرت امرأة مغتاظة في القاعة.

«ألم يكن بإمكانك أن تقولي إنك هنا؟ كيف لي أن أحزر إن لم يبلّغني أحد؟».

«إنّني... أنا آسفة. ظننت أنك كنت... على علم...».

كانت ميلاني تفقد أنفاسها ما أن تنفعل، فلا يعود يخرج من بين شفتيها سوى صوت رقيق هزيل.

هدأت المرأة.

«عليك أن ترفعي صوتك إن كنت تريدين أن نسمعك. ما عمرك؟».

«ستّ وعشرون عاما»، أجابت بصوت بالكاد أعلى.

دعتها المرأة إلى الوقوف بمواجهة الكاميرا، ثمّ جانبيّاً، ثمّ من الظهر، ثمّ جانبياً مرّة جديدة. طلبت منها أن تمشي. أن تضحك

وتسرّح شعرها. طرحت عليها سلسلة طويلة من الأسئلة، ما وزنها، وما ميزاتها، ما الذي تفضّله في مظهرها الجسدي، وما الذي تبغضه في المقابل، ما هي المآخذ عليها في غالب الأحيان، هل لديها عقد نفسيّة، ما هي مواصفات الرجل المثالي بنظرها، هل هي مستعدّة لتغيير مظهرها أو سلوكها أو شكلها بدافع الحبّ، أسئلة حاولت ميلاني الإجابة عليها بأفضل ما أمكنها. كانت تجد نفسها مكتنزة بعض الشيء، لكنها ليست قبيحة، هي صريحة ومرحة الأطباع، تحلم بحبّ حياتها مع رجل عاطفيّ ينصت إليها، تريد إنجاب أطفال، طفلين على الأقل، أجل، أن تبذل الكثير في سبيل الحبّ، أن تقوم بأشياء كثيرة، لكن ليس أيّ شيء.

كانت المرأة تبدي انزعاجها من غير أن تضع حدّا للمقابلة. فهي تدرّبت على يد أليكسيا لاروش جوبير، منتجة تُعتبر مرجعاً لبرامج تلفزيون الواقع في فرنسا، شعارها: «المرشّح الجيّد إما أن يسحركِ أو أن يغيظكِ، فإن أضجرك، انسي أمرَه». إلّا أن ميلاني كانت تثير عصبيّتها إلى أقصى حدّ. ربّما بسبب صرير صوتها الذي ينزلق إلى نبرة حادّة تحت وقع الانفعال، أو عينيها الكبيرتين اللتين توحيان ببقرات الرسوم المتحرّكة. لم يعد ما يُعرف بتلفزيون الواقع بين أربعة جدران يكتفي منذ وقت بتصوير حفنة من الشباب يتمرّغون في ضجر سحيق على مدار الساعة مثل فئران مختبر. فإلى المبدأ الأساس القائم على استعراض الذات، تحتّم إضفاء عناصر أخرى، مثل التلفيق والسلوك الجامح والشبق المفرط. تبدّلت الأجساد على وقع تناوب

الأسماء، الحقيقيّة منها والمستعارة. وحلّ ديلان وكارميلو وكيليا وكريس وبيفرلي وشانا محلّ كريستوف وفيليب ولور وجولي.

خطر أكثر من مرّة لمسؤولة اختيار المرشحين أن تقطع المقابلة فجأة. لم تكن تبحث عن فتاة مؤدّبة، بل كانت بحاجة إلى أشخاص سوقيّين هزليّين، إلى نفاق واحتيال. كانت تسعى إلى تناقضات وخصومات، إلى عبارات شديدة الوقع مستقبلاً يمكن استخدامها في مقتطفات الترويج للحلقات. غير أنّها رغم ذلك لم تفعل. خطر لها للحظة أنها أمام مرشّحة أكثر شراسة ممّا يبدو عليها. ماذا لو كانت تلك السخافة الخادعة تحجب طموحاً أعمى، طموحاً أكثر وحشية وضراوة من كلّ ما صادفته حتى ذلك الحين؟ طموح يزيده خطورة كونه مموّهاً تماماً. ثم تلاشت تلك الفكرة، لتجد أمامها ميلاني كلو، امرأة شابّة باهتة بعض الشيء، تتراقص من قدم إلى قدم من غير أن تدري ما تفعل بيديها.

تخضع عملية اختيار موفّقة لمرشحي برامج تلفزيون الواقع على الدوام للمعايير ذاتها، يلخّصها محترفو هذا النوع كما يلي: داهية خبيثة + شابة سطحيّة مثيرة + فتى طريف + شاب وسيم + طاووس أحمق. غير أن التجربة أثبتت رغم كلّ شيء أن شخصيّة أكثر رتابة لا تخلو من الفائدة. فوجود كبش فداء، أو وسيط، أو فتاة غبيّة، أو شخص ساذج يمكن رغم كلّ شيء أن يسدي خدمة. لكن حتّى في هذا الدور، كانت ميلاني تبدو مجرّد خيار ثانوي.

دوّنت بالخطّ الأحمر في دفتر الملاحظات الموضوع أمامها:

«فتاة مضجرة. الجواب: لا، شكراً».

أعلنت لها بنبرة حاسمة وهي متّجهة صوب الباب «سوف نتّصل بك».

التقطت ميلاني حقيبتها عن الكرسي ولحقت بها. حين رفعت ذراعيها لارتداء سترتها، بدا صدرها الذي لاحظت المسؤولة منذ اللحظة الأولى حجمه الضخم، وكأنّه ينبجس من قميصها. كان لميلاني نهدان عارمان، نهدان حقيقيّان، غضّان وليّنان على ما بدا لها، وكأنّ تخريم صدريّتها عاجز عن احتوائهما. راودها شكّ أو ربّما حدس، فقاطعت الفتاة بإشارة فيما كانت تهمّ بالخروج من القاعة مذعنة.

«قولي لي، ميلاني، كم حبيبا كان لك حتّى الآن؟».

«ماذا تعنين بحبيب؟» سألت ميلاني، مدركةً أنّها تلعب ورقتها الأخيرة.

«سأكون أكثر صراحة، كم من الفتيان ضاجعت؟».

خيّم صمت لبضع ثوان، ثم حدّقت ميلاني في عينيها.

«لا أحد».

بعد مغادرتها، كتبت المسؤولة بالأحمر تحت صورتها:

«٢٦ عاما. **عذراء**».

ثمّ خطّت تحت ما كتبته ثلاثة خطوط.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

الموضوع:

تفريغ محتوى واستخدام آخر قصص نشرتها ميلاني كلو (زوجة ديور) على إنستغرام.

### الستوري ٢

*نُشرت في ١٠ نوفمبر في الساعة ١٦,٥٥*

*المدّة: ٣٨ ثانية*

ميلاني كلو جالسة في سيّارتها. تمسك هاتفها الجوّال مادّة ذراعها وتتكلّم أمام الكاميرا. اسم الفيلتر الذي تستخدمه، «عينا ظبية»، مكتوب في أعلى الشاشة إلى اليسار.

ثمّ توجه الجهاز صوب طفليها الجالسين في المقعد الخلفيّ. يبتسم سامي للكاميرا، وكيمي تمصّ إبهامها وتداعب أنفها بدمية قماش على شكل جمل. تتجاهل الفتاة الجوّال الموجّه صوبها ولا تبتسم.

ميلاني: «مرحباً أحبّائي، ألف شكر! صوّت العديد منكم لمساعدتنا، واخترتم لكيمي حذاء نايكي إير الذهبيّ! بالطبع، أخذنا بنصيحتكم كما في كلّ مرّة، واشترينا هذا الحذاء! إنه رائع! شكراً كبيراً لمساعدتكم ومساهمتكم. سوف أتشاركه معكم بعد قليل حتّى تتمكّنوا من رؤيته وهي تنتعله. إنه يناسبها تماماً!

الآن نعود إلى المنزل! لكننا لن نترككم! إلى اللقاء قريبا جدّاً أحبّائي!».

كانت كلارا روسّيل تنهي شهادة ليسانس في الحقوق في جامعة السوربون حين قرّرت أن تسجّل نفسها في المسابقة الوطنية للالتحاق بصفوف الشرطة. كانت في الرابعة والعشرين من العمر. كيف خطرت لها الفكرة، ذات صباح، من دون أن تكون ظهرت في الأيّام السابقة أي مؤشرات تؤذن بمثل هذا المنعطف، هذا ما كانت تعجز عن تفسيره. أقصى ما كان بوسعها ذكره هو الحاجة لإحقاق العدالة، الرغبة في الإحساس بأنها تقوم بعمل مفيد، مثل عليا عن حماية المواطنين والدفاع عنهم، مجرّد حجج مستنفدة لم تكن في الواقع سوى ذرائع. الحقيقة أنه لم يكن بمقدورها أن تقول كما فعلت لاحقا، بدون أي حرج ولا أي تردّد: أريد رؤية الدماء والفظاعة والشرّ عن أقرب ما يمكن. اتخذت هذا الخيار رغم أنها قلّما قرأت روايات بوليسيّة، باستثناء بعض كتب أغاتا كريستي خلال صيف ماطر في منطقة بروتانيه، ولم تكن تشاهد أي مسلسل تلفزيوني. كانت في سنّ المراهقة حين وافق والداها على شراء أول جهاز تلفزيون

يقتنيانه، وقيّدا استخدامه بمشاهدة المناظرات والأفلام الوثائقية. في المقابل، طبع مخيّلَتها فيلمان شاهدتهما في السينما، هما «سيربيكو» لسيدني لوميت، أحد الأفلام المرجعيّة برأي والدها، و«الشرطة» لموريس بيالا، إذ كان صديقها في ذلك الوقت التحق للتوّ بمعهد «فيميس» للسينما وبدأ يعرّفها على السينما الفرنسيّة.

غادرت كلارا المنزل العائليّ بعد سنتها الجامعيّة الثانية، لتتشارك إيجار شقّة في الدائرة الثالثة عشرة، على مقربة من بوّابة جنتيّي. كان الإيجار زهيداً والشقة مفروشة. كانوا ثلاثة. المستأجِران الآخران كانا رسمياً في علاقةٍ، لم تُلفِ هي فيها أيّ مصداقيّة. فلم يكونا على طرفي نقيض في كلّ شيء فحسب، بل لم تكن تظهر بينهما أي شرارة انجذاب جنسيّ. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى نجحت كلارا في «كشف المستور» مثلما كانت عائلتها تقول بميلها المؤكّد إلى الكلام المبطّن، وهو أن كلّاً منهما كان يقيم من جانبه علاقة غراميّة حقيقيّة مع شخص من جنسه، وأن ارتباطهما لم يكن سوى ستار يحجب واقع كلّ منهما عن أهله القليلي الانفتاح. والدا كلير من جهتهما لكانا تقبّلا أن تكون ابنتهما مثليّة الجنس من غير أن يطرح الأمر لهما أي مشكل، وهو ما لم يكن الحال على ما يبدو، لكن حين أعلنت لهما أنّها تسجّلت في المسابقة الوطنية للانتساب إلى الشرطة، ظنّا أنها مزحة سمجة.

وبعدما شرحت لهما أن الانتساب إلى الشرطة برتبة ضابط للقادمين من خارج السلك مخصّصة لحملة شهادة لا تقلّ عن

الليسانس أو ما يوازيها، تابعت كلارا «الامتحان الأول هو تحريرُ موضوعٍ في الثّقافة العامّة». وإذا نجحت، تلتحق بالكليّة بعد وقت قصير من المسابقة.

أمام هذه التفاصيل ونبرة ابنته التي تنفي الفرضيّة الأولى، فرضيّة أنّها نزوة من نزوات ما بعد سنّ المراهقة، اضطرّ الوالد إلى الجلوس. بقي بضع دقائق يلهث بصعوبة، وتبادرت إلى ذهن كلارا عبارة «مقطوع الأنفاس» تلك التي كان يستخدمها أحياناً كثيرة. أمّا والدتها، فكانت يداها ترتجفان وتتفادى النظر في عينيها.

«هل يمكن قول كلّ شيء على الإنترنت؟» ذلك كان موضوع الثقافة العامّة المطروح على المتبارين في تلك السنة. خضعت كلارا بعد ذلك لامتحان يقضي بتسوية مسألة عمليّة انطلاقاً من ملف توثيقيّ ذي طابع إداريّ، تلته مجموعة أسئلة ذات أجوبة قصيرة تتعلّق بالقانون الإداري العامّ والحريات العامة، ثمّ استبيان حول معلومات عامّة، وامتحان قبول أخير حول الإجراءات الجنائيّة. بعد ذلك، تمّ استدعاؤها للاختبارات البدنيّة، فخضعت لاختبار جهد للقلب والجهاز التنفّسي ومسارٍ للمهارات الحركيّة. أنهت الأوّل بنجاح، غير أن الثاني ترك لها انطباعا متبايناً. كانت كلارا قصيرة القامة. «امرأة صغيرة القدّ خارقة»، كما كان يصفها عمّها ديديه، وهو تعبير يغيظها إلى أقصى حدّ. أُجريت لها في طفولتها شتّى أنواع الفحوص الطبيّة لفهم أسباب قامتها القصيرة، وطُرحت حتّى على مدى بضعة أشهر مسألة إخضاعها لعلاج بهرمونات

النموّ، ثمّ قررت ريجان وفيليب، بالاتفاق مع ابنتهما، ترك الطبيعة تأخذ مجراها. عند بلوغها سنّ الرشد، كان طول كلارا مترا وخمسة وأربعين سنتيمترا. كانت قصيرة القامة، إلا أن جسدها متناسق تماماً. كانت رشيقة ورياضيّة، لها قدرة على الصمود ولا تخشى الاختبارات الصعبة. في ذلك اليوم، وبعد بداية واعدة تحت أنظار الكومندان م.، أربعينيّ أشقر لم تغفل عن هيبته وجاذبيّته، فقدت توازنها على العارضة، فسقطت ثمّ نهضت واندفعت بأقصى سرعتها في الاتجاه الخاطئ.

تصاعدت ضحكات في المضمار، ثمّ علا صوت قال بسخرية «الباب من هنا». تسمّرت كلارا وتريّثت بضع لحظات حتى تهدأ أنفاسها. حدّقت مباشرة في عيني الكومندان، مترصّدة على وجهه إذنا لمواصلة الامتحان. لم يكن أي تعبير يرشح من ملامح الرجل. استأنفت مسارها بشموخ من دون أن تتفوّه بكلمة.

عندما عادت إلى المنزل، قالت كلارا لنفسها إنّها أظهرت مهارة حركيّة موضع شكّ بالتأكيد، لكنّها أثبتت قدرة لا يمكن إنكارها على احتمال الاستهزاء، وهو أمر لا بدّ أنّه مفيد في الشرطة.

تلقّت ميلاني الاتّصال ذات صباح في الساعة التاسعة. تمّ قبولها للمشاركة في الموسم الأول من «موعد في العتمة»! اختاروها، انتقوها، فضّلوها. راحت تقفز فرحاً مردّدة «لا أصدّق! لا أصدّق!» ثم تملّكها غثيان شديد إلى حدّ اضطرّت إلى التمدّد على بطنها. بعد ذلك، اتّصلت بوالدتها التي ظنّت في بادئ الأمر أنها تهذي، قبل

أن تختتم «لا تقولي إنّك ستختلقين أوهاماً في رأسك!». بعد ذلك بقليل، اضطرّت ميلاني إلى أن تملأ طلب إجازة بدون راتب، إذ كانت مواعيد التصوير وسط الأسبوع. لم يكن التوقيت مثاليّاً، لكنّ المديرة وافقت.

في اليوم المحدّد، حضر مساعد للمشاركين واقتاد ميلاني في السيارة إلى مدينة شامبورسي حيث يقع البيت الذي استأجره المنتجون.

ما زال يمكن العثور في ويكيبيديا على وصف للبرنامج:

«موعد في العتمة، برنامج فرنسيّ من تلفزيون الواقع بثّته قناة «تي إف ١» بين ١٦ أبريل ٢٠١٠ و١١ أبريل ٢٠١٤ (ثلاثة مواسم)».

ويعرض التعريف مبدأ البرنامج باقتضابٍ:

«هل يعثرون على الحبّ؟ ثلاث نساء وثلاثة رجال عزّاب يجتمعون في فيلا فسيحة، الرجال من جانب، والنساء من جانب آخر. القاعة الوحيدة المشتركة هي غرفة مظلمة مجهّزة بكاميرات تعمل على الأشعّة تحت الحمراء، يتمّ استدعاؤهم إليها ليجدوا سبيلاً للتعارف في العتمة التامة، فيختارون شريكا يلتقونه على انفراد في الغرفة السوداء. وفي نهاية البرنامج، يكتشفون الشريك المختار أو الشريكة المختارة في النور، وعندها يقرّرون ما إذا كانوا يودّون المضيّ قدما.

بعد نسب مشاهدة مخيّبة للأمل، تم تبديله ببرنامج من يريد *الزواج من ابني؟* ».

كانت ميلاني أول من وصل من أصل الفتيات الثلاث. وجدت داخل الخزانة ملصقاً صغيراً يحدّد المساحة المخصّصة لها، فوضّبت أغراضها في القسم المحدّد لها. جلبت معها أكثر ما لديها من ملابس صارخة، ولو أنّها أُبلغت بأنّ الإنتاج يمكن أن يقترح عليهم ملابس تناسب أسلوب كلّ مشارك وشخصيته إذا ما رأى ضرورة لذلك. أطلّ مساعد آخر رأسه من الباب ليرى إن كانت بحاجة إلى أي شيء، فأجابت بالنفي مع أنها كانت تشعر بالجوع والذعر والصقيع إذ نسي المدير التنفيذي للبرنامج أن يشغّل المدفأة الكهربائية في الغرفة. دعاها للتوجّه إلى الصالون إذ كانت المتباريتان الأخريان على وشك الوصول. عليها الآن أن تلتقي منافستيها. بالطبع، سيتم تصوير ردود فعلهنّ بالكامل عندما يتعرّفن على بعضهنّ. جالسة على الأريكة الفسيحة المكسوة بقماش ورديّ، فكّرت ميلاني بلوانا، لكن هذه المرّة، هي، ميلاني كلو، هي التي كانت أمام الكاميرا، في الجانب المناسب من الشاشة. هي التي كانت في وسط الإطار، هي التي سيراها قريباً ملايين المشاهدين، سيتعرّفون عليها في الشارع ويلاحقونها ويعبدونها. غمرتها موجة من التأثر، ورأت نفسها لبضع ثوان تخرج من سيّارة فخمة، محاطة من كلّ صوب بحشود غفيرة من المعجبين يمدّون لها مفكّرات أو صوراً للحصول على توقيعها. كان بمقدورها أن تحسّ جسديّا بهذا المدّ من الحبّ والإعجاب، والفرحة التي يبعثها فيها، فرحة أشبه بحالة من النعيم، بفراغٍ قديمٍ أخيراً امتلأ. لكنّها سرعان ما طردت هذه الرؤية، مدركة أنّها شردت أبعد ممّا ينبغي

في أحلامها وبدأت أفكارها تطلق في دماغها مادّة قويّة تبعث على الإدمان.

لمحت من الواجهة الزجاجيّة شابّة شقراء تتقدّم نحو الباب، جارّة خلفها حقيبة ضخمة. لبضع ثوانٍ، لم يسعها تحويل نظرها عن ساقيها، ساقان ممشوقتان، رقيقتان سمراوان، يزيد من طولهما كعبان عاليان مستدقّان من عشرة سنتيمترات على أقلّ تقدير. أحسّت بالدم ينحسر من وجهها ويهبط إلى قدميها. يبدو أنّ المنافسة ستكون ضارية. دخلت سافانا القاعة وبادرتها بسلام كشفت نبرته عن غرور، وعن وذلك الإدراك بأنّها تجسّد الرغبة الذكوريّة، نبرة تنمّ عن تفوّق شهوانيّ مثير لا تضاهيه سوى قلّة من النساء. كانت ترتدي قميصا ضيّقا مرقّطاً بنقشة جلد النمر وتنّورة قصيرة من الجلد الأسود، «إن لم نقُل حزاما»، كما خطر لميلاني. كانت تجهد لإخفاء قلقها وشدّت قبضتيها. فهي توقفت منذ بضع سنوات عن قضم أظافرها، لكن الرغبة لا تزال تعاودها أحيانا، مثل هوس لا يقاوَم. تبادلتا قبلة وبعض العموميّات تحت عدسات الكاميرات النهمة. تخلّى تلفزيون الواقع منذ زمن عن مبدأ البثّ المباشر الذي يفتقر بشدّة إلى التشويق الدراميّ، غير أنّ كلتيهما على يقين بأن أيا من كلامهما، أيّا من حركاتهما يمكن اختياره في المونتاج. ثمّ وصلت المشاركة الثالثة، فتاة سمراء بقدر ما سافانا شقراء، و«توازيها سوقيّة»، فكّرت ميلاني، ولو أنها ذهلت بتسريحتها، وكان شعرها طويلا أسود اللون حالكا ينسدل لمّاعاً، وبشورتها الجينز المنَسّل

الذي لا يخفي كلّياً أسفل ردفيها. كانت جميلة، ذلك الجمال الفائق الجاذبية والشبق التي لن تبلغه ميلاني يوماً. لكنّ أكثر ما كانت تحسد الفتاتين عليه كان تلك القدرة على أن تكونا محطّ الأنظار.

بعد الانتهاء من التعارف، طُلب منهنّ ارتداء ملابسهنّ الأكثر إثارة والانتقال إلى المكياج، على أن يلتقين في الصالون. وجدت ميلاني على سريرها تنّورة قصيرة وقميصاً عاري الظهر ارتدتهما بدون أن تطرح على نفسها أيّ سؤال. ثمّ تكفّلت اختصاصيّة المكياج بإضفاء نضارة على وجهها. أبدت ميلاني تحفّظا على كميّة كريم الأساس المستخدمة، لكنّ المساعد طمأنها بهدوء إلى أنّهم يتقنون عملهم. قام مصفّف شعر بتمليس شعرها ممتدحاً لونه. فهو نادرا ما رأى لونا كستنائيّا قانياً إلى هذا الحدّ. كان المساء حلّ للتوّ حين نظرت في المرآة. شعرت ميلاني كأنها ترى نسخة أخرى عن نفسها. نسخة أجمل، أسمى، غير أنه لا يمكن أن تدوم طويلا، «لأن عربة الأميرة تتحوّل دائماً في نهاية المطاف إلى يقطينة، وفساتين السهرة تعود خرقاً بالية»، قالت لنفسها.

في الصالون، قدّم لهنّ أوّل كوكتيل. راح المشروب الأزرق التي لم تكن ميلاني تعرفه، الممزوج بالصودا والمزيّن بشريحة ليمون، يخلحل شيئاً فشيئاً أطرافها وعنقها وكتفيها. في الجانب الآخر من الفيلا، في قسم من المبنى لا يمكنهنّ دخوله، كان الشبّان وصلوا. بعد بضعة كؤوس، أخذت الفتيات يضحكن وسرى بينهنّ تواطؤ حميم. كان صوت الإنتاج يوجّه أحاديثهنّ بدرجةٍ أو بأخرى عبر

مكبّر للصوت مثبّت فوق الأريكة. طلب منهنّ أن يصفن نوع الرجال الذي يعجبهنّ، أو أن يشرحن أسباب بقائهنّ عازبات. كانت فانيسا وسافان تحبّان الرجال ذوي البنية الصلبة والعضلات البارزة، فيما ميلاني تميل إلى الرّجل الممتلئ الجسم الميّال إلى الاكتناز، «أشبه بدبدوب إلى حدّ ما» على ما أوضحت، فانهارت الفتيات الثلاث ضحكاً. سافان كانت أمّاً لطفل تربّيه وحدها، فانيسا انفصلت مؤخّرا عن رجل غيور، وهنا ظهر ظلّ ألم عابر على وجهها، وقالت ميلاني إنها رومنطيقيّة وإنها تنتظر حبّ حياتها، الرجل الذي ستؤسّس معه عائلة.

بعد ثلاثة أو أربعة كوكتيلات، بوغتت الفتيات حين قاطعهنّ الصوت من جديد:

«سافان وفانيسا وميلاني، أنتنّ مطلوبات في القاعة المظلمة».

لم تتصوّر ميلاني أن تكون الظلمة بهذه الكثافة. تقدّمت متحسّسة طريقها، مادّة يديها أمامها. اعترضها حاجز أدركت أنه كنبة وجلست. لم يكن من الممكن رؤية شيء سوى المؤشّرات الضوئية لكاميرات التصوير بالأشعّة تحت الحمراء في زوايا القاعة الأربع. دخلت بعدها سافان وفانيسا، فساعدتها على رصد الكنبتين من جانبي مقعدها. عندما جلست الفتيات الثلاث، أُدخل الشباب، فانتشر فوراً في القاعة عطر قوي بالمسك. لم تبدُ لها العتمة يوما حالكة إلى هذا الحدّ. عرّف الكلّ عن اسمه، بدءاً بالفتيات، ثمّ الشباب. وبعد هذه المقدّمة الاعتياديّة، دعاهم الصوت إلى النهوض والتعارف أكثر بالملامسة.

«يمكنكم ملامسة بعضكم، تحسّس بعضكم، اكتشاف بعضكم! أنتم لا ترون بعضكم بعضاً، لكن عليكم استخدام كلّ حواسّكم الأخرى للتعارف».

اقترب أحد الفتيان من ميلاني وعانقها من خصرها. تصلّب جسد الفتاة. لمس يوان رغم كلّ شيء حجم نهديها، فشدّها أكثر إليه للتثبّت من ذلك. حين غلّ أنفه في عنقها ليشتمّ رائحتها، لم تتمالك نفسها عن التراجع.

هتف بصوت أعلى ممّا ينبغي «أووه! الآنسة جفلة!».

تدخّل الصوت: «ميلاني، لا تتردّدي في التعرّف على خاطبي ودّك».

سمعت تنهّدات وقهقهات على مقربة منها. كانت سافان وكارميلو تقاربا إلى حدّ كبير.

التفّ يوان من حولها وقد بردت همّته، ليقترب من فانيسا.

قضت الصبايا والشبّان ما تبقّى من الجلسة يتحسّسون ويشتمّون ويلامسون بعضهم بعضاً. كان الشبّان متجمّعين حول الفتاتين الأخريين، والأيدي تمتدّ بجرأة، متسكّعةً ومداعبةً بشبق. كان الهدف الإغواء والإغراء، لأن مصير كلّ متبارٍ يتوقّف على ذلك. كان بإمكان ميلاني أن تشعر من حولها بعبق العرق يختلط بشتّى العطور، ملأت الغرفة شيئاً فشيئاً رائحة الشهوة الطاغية الحادّة. كانت بضع دقائق كافية لإقصائها من اللعبة. طلب الصوت مراراً

من الشباب الاقتراب منها، فامتثلوا لكن بدون أن يعود أيّ منهم لملامستها.

بعد وقت طويل لم يكن بإمكانها تقدير مدّته، مع أن المشهد بعد المونتاج لن يستغرق أكثر من حوالي عشر دقائق، أمرهم الصوت أن يخرجوا من الغرفة المظلمة وأن يعود كلّ إلى قسمه من الفيلا.

لاحقاً في غرفة الاعتراف حيث كان يتعيّن على كلّ شاب أن يعلن أمام الكاميرا أي فتاة يودّ لقاءها على انفراد، لم يختر أي من الثلاثة ميلاني.

خرجت من اللعبة في اليوم التالي، يرافقها أحد المساعدين. سمح لها الإنتاج بالاحتفاظ بالتنورة والقميص المكشوف الظّهر، وسلّمها بتبجّح لوح ماكياج هديّةً من ماركة مستحضرات التجميل الراعية للبرنامج.

بكت قليلا في السيّارة. رفع المساعد صوت الراديو، معتبراً ذلك الحلّ الأقل حرجاً لكليهما.

كانت ميلاني تتأمّل الأشجار والحقول والقرى تتعاقب خلف الزجاج، ثمّ عند مشارف باريس، ظهرت المستودعات والمجمعات السكنيّة الشعبيّة. حين انسابت السيّارة في حركة السير على الطّريق المداريّ، وقعت عيناها على لافتة إعلانيّة عملاقة لأحمر الشفاه «كولور ريش» من لوريال، معلّقة في أعلى مبنى مشيّد حديثا. حدّقت للحظة في لون المادّة الخابي وكثافتها الظاهرة. بدا الأنبوب منتصباً

مثل صرح أو عضو ذكوريّ أو راية. وخلفه وجه ليتيسيا كاستا يعكس نوراً لا يُعرف من أين ينبعث، وكأنه يشعّ من أجلها وحدها. عندها تجلّى لها كلّ شيء. ستكون واحدةً من هؤلاء النّساء. كانت تريد هذا النور الدافئ، الظلال التي تنحت الوجه، الفم المكتنز. بعد بضعة أشهر، سوف تغلق الوكالة وستجد نفسها عاطلة عن العمل، لكنّها لن تعود إلى لاروش سور يون. كلّا. ستبقى هنا في باريس، لأنّ هنا في باريس يحدث كلّ شيء.

ستبقى هنا، وذات يوم سوف تصبح شهيرة.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

الموضوع:

تفريغ محتوى واستخدام آخر ستوريز نشرتها ميلاني كلو (زوجة ديور) على إنستغرام.

### الستوري ٣

*نُشرت في ١٠ نوفمبر في الساعة ١٨, ١٧*

*المدّة: ٤٢ ثانية*

تظهر ميلاني كلو مقابل الكاميرا. لا نرى سوى وجهها وأعلى جسدها. تظهر فوق الصورة على مدى الفيديو رسوم متحرّكة ورموز تعبيريّة: قلوب بكلّ الألوان، حوريّة البحر الصغيرة، ملكة الثلج وشخصيّة أخرى من شخصيّات ديزني (دبّ؟) تحمل لافتة عليها قلب نابض.

ميلاني: «مرحباً أحبّائي! عدنا للتوّ من المركز التجاري،

وها هما كيم وسام انطلقا من جديد، هل تصدّقون ذلك؟ نوبة التعب في السيّارة لم تدم طويلاً! كان رفاق لهما يلعبون في المجمّع السكنيّ، فنزلا للانضمام إليهم. أعتقد أنهم يلعبون الغمّيضة. أما أنا، فسأغتنم الفرصة لتوضيب مشترياتنا وتحضير عجينة الكريب لهذا المساء. أجل! كما قلت لكم هذا الصباح، الليلة ليلة الأربعاء، وكما تعلمون، مرّة في الشهر، يوم الأربعاء، يكون موعد... حفل الكريب! وبالطبع، سيكون هناك نوتيلّا! (تظهر فوق الصورة جرّة نوتيلّا متحرّكة).

تعرفون سامي جيّداً! لا يأكل الكريب بدون نوتيلّا! سوف أتشارك معكم الوصفة، للذين لم يدوّنوها بعد.

هذا كلّ شيء أحبّائي، أنتم في بالنا! إلى اللقاء بعد قليل!».

تنهمر على الصورة زخّة من القلوب المتعدّدة الألوان.

كلّ عائلة تبني أسطورتها. أو على الأقل رواية ملحميّة لتاريخها، تثريها وتزخرفها على مرّ الزمن، فتضيف إليها شيئاً فشيئاً مآثر ومصادفات وتفاصيل لافتة، بل حتّى مفاخر من نسج الخيال. عائلة كلارا، والداها وأجدادها وعمومها وعمّاتها ولاحقا أولادهم، كانت تحبّ أن تروي قصص الإضرابات والتظاهرات والتجمّعات، باختصار سلسلة المعارك السلميّة إلى حدّ ما، الخاسرة منها والرابحة، التي ترسي تاريخها ضمن تقليد من الكفاح الاجتماعي تعود جذوره بعيدا في الزمن. وفي هذا السياق، كان للتواريخ مغزى. ريجان وفيليب التقيا في يونيو ١٩٨٥ خلال الاحتفال الكبير الذي نظّمته جمعية «إس

أو إس راسيزم»[1] في ساحة الكونكورد. ريجان حملت بكلارا ليلة التظاهرات ضد مشروع دوفاكيه[2] لإصلاح الجامعات، ووالداها تزوّجا فيما كانت في التاسعة من العمر، غداة سحب خطّة جوبيه[3] حول إصلاح تمويل الضمان الاجتماعي وأنظمة التقاعد الخاصة.

ومع الوقت، اكتسبت الروايات المتعاقبة تفاصيل خياليّة، بعضها على حساب تماسك التسلسل الزمني. فعند التدقيق في الأمر، يتبيّن أن التواريخ لا تطابق الأحداث على الدوام. كيف يمكن مثلاً أن تكون والدة كلارا حملت بها في نوفمبر ١٩٨٦ في حين أنها ولدت في العام ذاته؟ مكتبة .. سُر مَن قرأ

غير أن كلارا تحتفظ بذكرى واضحة من حركة الإضرابات والاحتجاجات الشهيرة في ١٩٩٥. فلسوء حظّها في ذلك اليوم، أفلت والدها يدها، منهمكاً في احتواء أي تجاوزات في مؤخّر الموكب. وبدل أن تنجرف مع السيل وتواصل سيرها، دُفعت إلى جانب التظاهرة، أو ربّما انسحبت منها بنفسها؟ ثمّ وقفت تنتظره على الرصيف. استغرق بها الأمر بضع دقائق لتدرك أن والدها غاب عن أنظارها وأنها ضاعت. ومع الهتافات التي كانت تزعق بها مكبّرات

---

(١) SOS Racisme: منظمة غير حكومية مناهضة للعنصرية تأسست عام ١٩٨٤ في فرنسا ولها فروع في عدد من البلدان الأوروبية. نظّمت حفلا موسيقيّاً كبيرا في يونيو ١٩٨٥ في ساحة الكونكورد في باريس، أطلقت خلاله شعارها الرسمي.

(٢) مشروع قانون قدّمه ألان دوفاكيه Alain Devaquet الوزير المنتدب المكلّف التعليم العالي في عهد الرئيس الفرنسي جاك شيراك أواخر العام ١٩٨٦، قبل أن يتم سحبه تحت ضغط حركة احتجاجيّة.

(٣) آلان جوبيه Alain Juppé رئيس وزراء فرنسا بين ١٩٩٥ و١٩٩٧.

الصوت، لم يكن من الوارد إطلاق أي نداء استغاثة. قرّرت الجلوس أرضاً، مردّدة لنفسها شعاراً كان المتظاهرون يهتفون به وأعجبها أكثر من سواه: «من يزرع البؤس يحصد الغضب، من يزرع البؤس يحصد الغضب!» عبرت أمام الفتاة آخر المجموعات الواحدة تلو الأخرى، وهي ترفع لافتات وتقرع على طناجر. لم تشعر بالخوف. توقف شخصان أو ثلاثة برفق للاستعلام عمّا تفعله هناك، فردّت على الأسئلة بالطريقة نفسها الهادئة والمهذّبة: كانت تنتظر والدتها التي ذهبت إلى المراحيض. الواقع أن ريجان أصرّت على التظاهر من جانبها مع زملائها في كليّة رومان رولان في وسط الموكب، تاركة لفيليب مسؤولية الفتاة. كانت كلارا على يقين بأنه لا ينبغي عليها الذهاب مع غرباء في أيّ من الأحوال وبأي ذريعة كانت.

لم تكن تعرف باريس جيّدا، فوقفت بعض الوقت تتأمّل من حولها واجهات المباني ذات الطراز الهوسمانيّ[1]. كانت بدأت تشعر بالبرد حين رأت شرطيّين بالبدلة الرسمية يقتربان منها. لطالما سمعت أن عليها أن تحذر الشرطيين، فوثبت ناهضة وحاولت الفرار، لكن سرعان ما لحق بها أصغرهما سنّاً. لم يسعها أن تحدّد بدقّة كم من الوقت انقضى منذ أن توارى والدها. كانت الروايات الأولى للقصّة تذكر عشرين دقيقة، ثمّ وردت فترة نصف ساعة، قبل أن يعتمد السرد بشكل نهائيّ إلى حدّ ما صيغة ساعتين من الانتظار، وهي فترة أقلّ مصداقيّة، غير أنها أكثر تشويقاً.

---

(١) نسبة إلى البارون جورج أوجين هوسمان الذي قاد ورشة تجديد وجه باريس المعماري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فطبع العاصمة الفرنسية بأسلوبه.

بغضّ النظر عن كلّ ذلك، الأمر المؤكّد أن كلارا وجدت نفسها في مركز شرطة الدائرة الثانية عشرة من باريس، فيما يحاول عدّة شرطيين الاتصال بأحد والديها. لعبت الشطرنج مع متدرّب شاب وقدّم لها سيّد ذو شاربين ضخمين بدا لها أنه القائد هناك، قطعة سكاكر.

تلك هي الصور التي عاودتها في ذلك اليوم من يونيو، حين تحتّم عليها أن تعلن لوالديها أنها نجحت فعلاً في مسابقة الانتساب إلى المعهد الوطني العالي لضبّاط الشرطة. وجد فيليب وريجان نفسيهما يأملان منذ بضعة أسابيع في أن ترسب، فيما كانت كلارا تطلعهم على سير الامتحانات المتعاقبة: فبعد اجتيازها بنجاح مرحلة القبول الأولي، خضعت لاختبارات تقنيّة نفسيّة كتابية، تلاها امتحان فرديّ لمحاكاة وضع واقعيّ، ثمّ مقابلة أمام لجنة تحكيم، وأخيرا اختبار شفهي باللغة الإنكليزيّة. عندما عدّدت لأهلها هذه المراحل، تمالك والدها نفسه عن أن يسألها كيف يمكن للشرطيين أن يكونوا على هذا القدر من الغباء بعد عملية اختيار صارمة كهذه.

حين تلقّت كلارا الرسالة التي تبلّغها بقبولها، قرّرت الذهاب إلى والديها لتعلن لهما الخبر السارّ. كان جزء منها متخوّفا من تلك اللحظة، فيما جزء آخر يدعوها إلى الاطمئنان. لطالما أبدى والداها حرصا على أن تحقّق ذاتها واحتراما لشخصيّتها المستقلّة. ألم يسمحا لها بالسفر إلى لندن بعد حصولها على الباكالوريا بدل أن تباشر دروساً على الفور؟ ألم يبديا حسّ فكاهة وتسامحاً حين علما أنّها لم

تعد تعمل حقّاً جليسة أطفال لدى عائلة في ضاحية لندن السكنية، بل نادلة في حانة ليليّة؟

اجتازت كلارا الرواق المسقوف أمام أول مبنى وعبرت حديقة المجمّع السكنيّ. خطرت لها ألعابها حين كانت طفلة والمفرقعات الكثيرة التي كانت تلهو بتفجيرها بين الأجمات، أو حتّى في براز الكلاب حين تسنح الفرصة. دخلت المبنى الثاني وارتقت درجات السلّم على عجل. شعرت بالقلق يعقد حلقها وينتشر في جسدها بالكامل. حين وصلت إلى الطابق الثاني، سمعت أنغام موسيقى. لم يكن ذلك يتناسب إطلاقاً مع عادات أهلها في تلك الساعة من النهار. رنّت الجرس مرّة أولى، لكن لم يفتح لها أحد. لا بدّ أنّ والدتها في آخر الشقّة. دقّت مرّة ثانية، ثمّ أخرجت مفتاحها. حين دخلت، وجدت والديها وعمّها باسكال مع زوجته باتريسيا متنكّرين بزيّ الشرطة. كان الأربعة مصطفّين على شكل حرس شرف مرح وطائش. أين وجدوا تلك القبّعات وتلك الصفارات التي بدت حقيقيّة؟ سؤال لم تعرف جوابه يوماً.

أعلن لها باسكال «الهويّة من فضلك!».

قهقه الجميع ثمّ تركوها تدخل. كانت شريكتها في الشقّة أفشت بالسرّ وأخطرتهم بوصولها. كانت زجاجات نبيذ وشمبانيا مصفوفة على الطاولة، إلى جانب فطائر وتورتات على أنواعها وشتّى أصناف معجون الدهن على الشطائر التي كان والداها يتقنان إعدادها، وهما معتادان على الاحتفالات والتجمعات وغيرها من المحافل

المحليّة ووجبات الطعام في الهواء الطلق. بذلك كانا يقولان لها على طريقتهما إنهما على استعداد للاحتفال معها بنجاحها، رغم أنهما كانا يخفيان ربّما شعوراً بعدم الفهم إن لم يكن بالخيانة. ارتجل ابن عمّها ماريو وابنة عمّها إلفيرا رقصة مكبّلي الأيدي بالأصفاد.

وفي نهاية السهرة، تناول عمّها ديديه الذي انضمّ إليهم حول طاولة العشاء، غيتار ريجان وأنشد أغنية رونو «البلد السداسيّ الأضلاع»:

فرنسا بلد شرطيّين

عند كلّ زاوية ثمة منهم مئة

لفرض النظام العام

يقتلون بلا عقاب[1].

كانت تستعدّ للردّ حين جرّ فيليب ابنته إلى المطبخ. أجلسها، أخذ بعض الوقت ليفتح النافذة، ثمّ جلس أمامها، قحّ وأشعل سيجارة. فتح فمه ليقول شيئا، شيئا جديّاً لا بدّ أنّه أعدّه مسبقاً، جملة أو نصيحة أو تشجيعاً، شيئا شديد الوقع جازماً. لكن لم تخرج من شفتيه كلمة. ملأت الدموع عينيه. تنهّد واكتفى بابتسامة، باسطاً راحتيه في إشارة استسلام.

---

(١) Renaud مغنّ فرنسّي اشتهر بأغنيات تمزج ما بين الفكاهة والنقد الاجتماعي والاحتجاج، ومنها الأغنية Hexagone، وهو لقب فرنسا نسبة إلى شكلها الجغرافي السداسيّ الأضلاع.

تلك الابتسامة ستبقى لزمن طويل مطبوعة بوضوح وجلاء في ذاكرة كلارا، حاجبة كلّ ما تبقّى. كان والدها ملك الأمثال والحكم، إعلانات المبادئ والنظريات المبهمة التي يصوغها انطلاقا من معادلات رياضيّة يعبث بها ليكيّفها بموجب تقلّبات الحياة اليوميّة. غير أنه في ذلك المساء كان يودّ أن يقول كلاما بسيطاً إلى حدّ أنه تعذّر عليه. كان يريد أن يقول لها: **اعتني بنفسك.**

بعد بضعة أشهر، توفّي.

حين التقتا لأوّل مرّة، كانت عشر سنوات مضت منذ أن استقرّت ميلاني كلو في الضاحية الباريسية وانتسبت كلارا روسّيل إلى المعهد الوطني العالي لضباط الشرطة. عشر سنوات انقضت مثل عصفة ريح أو ضربة هراوة، من تلك التي تجعلك تنتفض مخبولاً ومصعوقاً، بدون أن تفهم ما الذي حصل. سنوات شباب مرّت سريعة حاسمة، كان ليتعذّر على كليهما توصيفها لو طرح عليها السؤال. أو لربّما أجابتا بأنّها كانت سنوات فرحٍ وحزنٍ في آنٍ. سنوات لن تلبث أن تغلّفها ضبابيّة تزداد كثافة، وتبرز منها رغم ذلك بعض التواريخ، سواء إداريّة أو عاطفيّة أو رمزيّة.

في ٢٠١١، تزوّجت ميلاني كلو مع برونو ديور، بعد أشهر من تطابق مواصفاتهما على موقع «أتراكتيف وورلد» للتعارف. فكّرَت لفترة من الزّمن أن تتّخذ كنية زوجها Diore، بل وخطر لها أن تباشر تدابيرَ لتحذف منها الحرف الصّامت الأخير e، إذ بدا لها أنّ كتابته على هذا النّحو Dior ستكون أكثر أناقة وستضعها حتماً في مناط

أعلى. لكن إزاء تعقيدات الإجراءات ووجوب تقديم مبرّر مشروع، تخلّت عن خطّتها. وفي نهاية المطاف، احتفظت باسم عائلتها. في السنة ذاتها، أنجبت طفلا، سامي. كان زوجها الذي يكبرها في السنّ قليلاً، يعمل حينذاك في شركة خدمات في الهندسة المعلوماتيّة وحصل للتوّ على زيادة كبيرة في راتبه. قرّرت عدم العودة للعمل في منصب المساعِدة الإداريّة الذي كانت تشغله منذ بعض الوقت في الشركة ذاتها، لتكرّس نفسها بالكامل لابنها. كانا قد انتقلا بعد زواجهما إلى شاتني مالابري حيث يقيم والدا برونو وحيث قضى هو قسماً من سنوات مراهقته، فسكنا شقّة فسيحة في مجمّع حديث البناء، على مقربة من منتزه سو. بعد سنتين، رزقا بطفلة أطلقا عليها اسم كيمي، بينما يمرّ زواجهما من مرحلةٍ عصيبة. فكانت ميلاني قرّرت أن تبقى ربّة منزل، وهو وضع كان يناسبها تماماً، بانتظار مصير غير مؤكّد.

بعد بضع سنوات قضتها في «خدمة الاستقبال والاستقصاء المحلّي» التابعة للدائرة الرابعة عشرة، لفتت خلالها انتباه مسؤوليها بمهاراتها في استباق الأمور واستخلاص الاستنتاجات وقدراتها التحريريّة النادرة، التحقت كلارا روسّيل بالفرقة الجنائيّة في باريس. كانت فترة التدريب المسبقة التي قضتها في صفوفها عملا بمتطلّبات مراحل التجنيد، أكدت عزمها على العمل في الشرطة القضائية. وإن كان خطر لها في البداية الانتساب إلى فرقة حماية القصّر، فالقليل الذي تسنّى لها معاينته على صعيد الجرائم بحق الأطفال ردعها عن ذلك.

لم تكن تملك المتانة الكافية لهذا العمل. سنحت الفرصة لكلارا خلال سنتيها الأولين في الفرقة الجنائيّة أن تتعرّف إلى المكاتب الشهيرة في الرقم ٣٦ شارع كي دي زورفيفر(١). بعد ذلك، نُقلت المديريّة القطاعيّة إلى شارع باستيون في الدائرة السابعة عشرة. لم يكن لنقل المكاتب وقع إيجابيّ على الجميع، فتسبب بعدّة استقالات وإحالات. اختار بعض من أبرز وجوه الفرقة ذلك التوقيت لمغادرتها. وعلى وقع هذه التعديلات، حصلت كلارا بأسرع ما كانت تتوقّع على منصب مأمورة الضابطة القضائية. وانضمّت بهذه المناسبة إلى مجموعة بيرجيه، إحدى المجموعات الستّ المخصّصة للتّحقيق في قضايا الحقّ العامّ.

الضابطة القضائية. لم يكن ذلك لقباً يداعبُ الأحلام، لكنّه كان حلمها. كان يوحي بعمل في غاية الدقّة والرتابة، بل حتى منفّر. أمّا هي، فكانت تجد في الأمر طرافة. كانت مهامها بعيدة كلّ البعد عن التخييل المستوحى من المسلسلات التلفزيونيّة، لا تمتّ بصلة إلى الملاحقات العالية المخاطر والتوقيفات المدوّية، وشبكات المخبرين وليالي الانغماس في الأوساط المريبة. لكنّ الملاحقات لم تكن تتمّ بدونها. ومنذ اللحظات الأولى من التحقيق وحتى اختتامه، كانت كلارا تدوّن كلاً من مراحله خطيّا وبالصور. كانت تحبّ أن تشرح مهنتها التي لم تكن موجودة بصفتها تلك سوى في الفرقة الجنائية. المفوّض الإجرائي ضامن للملف الذي يصل إلى مكتب القاضي أو

(١) 36 Quai des Orfèvres عنوان مقرّ المديرية القطاعيّة للشرطة القضائية التي تتبع لها الفرقة الجنائية في باريس.

المدّعي العام، ضامن لتماسكه ومتانته وخلوّه من الثغرات. بدايةً، كانت تتولّى مجمل المعاينات في مسرح الجريمة، وتجمع كلّ الآثار والقرائن، وتتكفّل بالأحراز. ثم كان يتحتّم عليها في غالب الأحيان حضور عمليّة التشريح لتمدّ خبير الطبّ الشرعي بكل المعلومات التي يحتاج إليها. كما كانت مسؤولة عن كل الأبحاث الموكلة إلى أطراف ثالثة، وكل العناصر التي تتم إحالتها إلى محكمة الجنايات، فتتثبّت من ملاءمتها للقضيّة واستيفائها الشروط. وإلى محاضرها وتقاريرها الخاصّة، كانت تراجع محاضر زملائها، فتشير إلى نقاط الهشاشة فيها ومكامن الغموض، تطلب توضيحات أو تعيد النظر في الصيغ المستخدمة، وأحياناً تستغرب خيطاً تمّ التخلّي عنه بشكل متسرّع.

أن يكون السرد القضائيّ متماسكاً... وأن يسع في ملفّ واحد إذا أمكن. ذلك كان دورها. أن يكون سهل القراءة والفهم. لا تشوبه شائبة. ومتيناً لا يقبل الجدل. ألّا يتمكّن أي محام من استغلال عيب شكليّ فيه وألّا يُترك أي تفصيل فيه للصدفة، أن يتمّ إغلاق كل الأبواب التي تركت مفتوحة. مهنة مخصّصة لأشخاص يتملّكهم الهوس، شديدي الحرص على أدقّ التفاصيل، منكبّين على الخربشة، كما كانت تضيف أحيانا مبتسمة.

كانت ذائعة الصيت. لم يكن يفوتها شيء سواء في الشكل أو في المضمون. كان بإمكانها أن تعيد محضراً إلى محرّره إن كان بناؤه اللغويّ ركيكاً، وأن ترصد في صيغة نحويّة الخلل في حجّة ما.

على صعيد أكثر حميميّة، وهو موضوع لم تكن تتطرّق إليه إطلاقاً بشكل علنيّ، أغرمت كلارا مرّتين. وفي المرّتين، عدلت عن العلاقة. كان إحساس أو وضع نفسيّ أو ضعف ملازم للحالة الغراميّة، يتغلّب دائما في نهاية المطاف على اندفاعتها. أو ربّما حالة جسديّة أو فيزيولوجيّة نابعة من الترقّب أو التبعيّة، أو بكلّ بساطة من تبدّل في التيّارات، حالة كان يبدو لها أنها تحدّ من قدراتها بدل أن تضاعفها. عندها كان يظهر الخوف، خوف طاغٍ خارج عن أي منطق، يرغمها على الابتعاد. لم يبق لها من قصتها الأخيرة، الأكثر عمقاً واستحواذاً بين الاثنتين، سوى مراسلات عبر البريد الإلكتروني. كانت كلارا تكتب رسائل إلى الرجل الذي أحبّته، وبعد أشهر من الصمت، رضي الآن أن يردّ عليها.

منذ انضمامها إلى الفرقة الجنائية، كانت كلارا تسكن سان مانديه، في مبنى تملكه مديريّة الشرطة، معظم سكّانه شرطيّون. من حولها كانت عائلات تتأسّس، وبطون نساء تتكوّر. لم يكن إنجاب طفل ضمن مشاريعها. فهي من جهة غير واثقة بأنها هي نفسها ناضجة تماماً، ومن جهة أخرى كان العصر يبدو لها غايةً في العدوانية. كان لديها إحساس بأن تحوّلاً صامتاً وعميقاً وماكراً، تحوّلاً مطبوعاً بعنف غير مسبوق، أشبه بمحطّة زائدة عن اللّزوم أو عتبة مشؤومة تمّ اجتيازها في مسيرة الزمن الكبرى، يحصل من دون أن يكون بوسع أحد وقفه. كان يبدو لها ضرباً من الجنون أن تُلقي بطفلٍ في وسط شبكة العنكبوت الهائلة هذه، شبكة فقيرة إلى الأحلام والأوهام.

حين كانت في الثالثة أو الرابعة من العمر، اصطحبها أهلها إلى والدة فيليب، قرب حدود بلجيكا. كانت كلارا تحبّ جدّتها كثيراً، لكنّها كانت تعيش في شقّة معتمة تتكدّس فيها أغراض وتحف صغيرة ولوحات زيتيّة تخيفها. كانت جدّتها أعدّت عصرونيّة لاستقبالهم، وكانت مسرورة باستضافة حفيدتها لبضعة أيام، إذ كان والداها يعتزمان أخذ عطلة معاً. وبالرغم من قلقها لرؤية والديها يغادران بعد قليل، بقيت كلارا جالسة برزانة على مقعد خفيض أمام كوب الشوكولاتة الساخن. ثمّ بعدما انتهت من تناول عصرونيّتها، قالت بكثير من الكياسة «تعلمين جدّتي، بيتك جميل جداً... لكن لن يكون بوسعي البقاء».

في بعض الأمسيات، بعد تناول بضعة كؤوس، كانت كلارا تذكر، إضافة إلى الحجج الاعتياديّة التي تعدّدها غالباً معلّلة بها وحدتها أو عزوبيّتها، الحقبة الزمنيّة ومسيرة العالم. ذلك الإحساس بأنها عكس التيار، وذلك الإدراك العبثيّ والضروريّ في آن، بأنها رغم كلّ شيء في الجانب الصواب. وأحياناً، تختتم الحديث متمتمة وكأنها تردّد لنفسها دعابة لا يفهمها سواها «... ثمّ لست واثقة من أنّ بوسعي البقاء».

في العاشر من نوفمبر ٢٠١٩ حوالي الساعة السادسة مساء، اختفت ابنة ميلاني كلو البالغة حينها ست سنوات، خلال لعبة غمّيضة مع أطفال من مبناها السكنيّ.

حين أخطرها ابنها، بدأت ميلاني بالالتفاف حول الحديقة عدّة مرّات، قبل أن ينضمّ إليها سريعاً بضعة جيران. راحوا ينادون اسم الفتاة في كلّ الأرجاء، ثم دقوا على كل الأبواب بشكل منهجي، متنقلين بين كل المباني الواحد تلو الآخر. جابوا الأقبية والأروقة، انقسموا إلى مجموعتين، طلبوا من الحارس فتح القاعة المشتركة. وبعد أبحاث غير مثمرة استمرّت أكثر من ساعة، اقترح الأخير استدعاء الشرطة. انهارت ميلاني باكية. تكفّل أحد سكّان الطابق الأرضي بالاتّصال بمركز الشرطة وشرح الوضع.

بعد نصف ساعة، انتشر حوالي عشرة شرطيين في الموقع للبحث عن الطفلة. عُثر على دمية كيمي المفضّلة، «دودو وسخة»، جمل صغير من القماش البالي، مرميّة أرضاً قرب حديقة الألعاب.

بعد ساعة من عمليات تفتيش انضمّ إليها المزيد من الجيران، وبعدما تمّ تمشيط كلّ درجٍ، كلّ ممرّ، كلّ زاوية من الحديقة، تحتّم على الجميع الإقرار باختفاء الفتاة.

في حوالي التاسعة مساء، تم اقتياد ميلاني وسامي إلى مركز الشرطة في شاتني مالابري. كان برونو، زوج ميلاني، خارج باريس. فور صدور أوّل إنذار، انطلق مسرعاً في سيّارته، لكنّ نظام جي بي إس كان يشير إلى أنه لن يتمكّن من موافاتهما قبل منتصف الليل.

تكفّلت عريفة في الشرطة بجمع عناصر أكثر دقّة من سامي حول ظروف اختفاء كيمي. بدا الصبيّ البالغ ثماني سنوات تحت وقع صدمة شديدة لا تسمح باستجواب فعليّ. نجحت المرأة الشابّة ولو بمشقّة في حمله على سرد وقائع لعبة الغمّيضة. وبحسب ما تمكنت من استخراجه، كانت كيمي تركض باتّجاه حجرة النفايات حين شاهدها آخر مرّة. كان قلقاً جدّاً على شقيقته وبدا منهكاً. بعد وقت، فرك الصبيّ عينيه، ثمّ غفا فجأة جالساً على الكرسيّ. ذهبت العريفة الشابّة تطلب والدته. قلبته ميلاني كلو برفق على المقعد المجاور، مدّدت ساقيه وغطّته بسترته المبطّنة.

بعد ذلك بقليل، تمّ الاستماع لأوّل مرّة إلى ميلاني كلو في مكتب المفوّض س.، بعدما طلبت كوب مشروب ساخن. كان المفوّض يطبع بسرعة على حاسوبه، فيما هي تستعيد تسلسل الوقائع بالتفصيل: كان الثلاثة عائدين من المركز التجاري «فيليزي ٢» حين رأى سامي وكيمي الأطفال الآخرين وسط لعبة غمّيضة. عرض

عليهما أحدهم، ليو الصغير، على الفور أن ينضمّا إليهم. التفت سامي وكيمي صوب والدتهما، مترقّبين إشارة منها. تردّدت، ثمّ وافقت.

كانت لا تزال تشعر ببرد شديد، فطلب المفوّض س. أن يجلبوا لها غطاء. بعد لحظة، التفّت بشال صوفيّ عريض كان منسيّاً على المشجب، ممسكة الكوب بين يديها الملفوفتين حوله. ترك الصمت يحتلّ الغرفة، لم يكن صمتاً مُثقلاً بالريبة، رغم أنّ الأهل هم دائما أوّل المشتبه بهم في حالات اختفاء أطفال، بل بالأحرى صمت محايد، شاغر، ينتظر أن يتمّ ملؤه. كان الزوج في طريقه، سوف يتولّى بنفسه الاستماع إليه فور وصوله.

بعد وقت، رفعت ميلاني نظرها صوبه.

«أتعلم؟ نحن مشهورون. أنا وولداي. مشهورون جدا... أنا واثقة من أن المسألة على ارتباط بذلك».

رمق مساعده بنظرةٍ خاطفة أكّدت له أن العريف ف. أيضا لم يسمع إطلاقاً بتلك المرأة ولا بطفليها. على صعيد الاضطرابات النفسيّة، مرّت على المفوّض س. حالات كثيرة، أشخاص أكثر هيجاناً يخالون أنفسهم الربّ أو سيلين ديون أو زين الدين زيدان. غير أن التجربة أثبتت له أن أفضل إستراتيجيّة هي أن يدعهم يتكلّمون. بدا له صوت ميلاني الآن أكثر حدّة، غير متناغم، بل لكان وجده مزعجاً في ظروف مغايرة.

«معظم الناس يحبّوننا. يقولون ذلك لنا، يكتبونه لنا، يعبرون

مئات الكيلومترات لرؤيتنا.. غير معقول كلّ هذا الحبّ الذي نتلقّاه، لا يمكنك تصوّر الأمر. لكن مؤخراً، سرت شائعات، افتراءات، والآن بعض الأشخاص يبغضوننا. يضمرون لنا الشرّ. لأنهم يحسدوننا...».

«يحسدونكم على ماذا، سيّدة كلو؟» سألها بأقصى ما أمكنه من مراعاة.

«على سعادتنا».

أخرجت ميلاني هاتفها الجوال لتعرض على المفوّض ومساعده القناة التي تديرها على موقع «يوتيوب» ويتابعها خمسة ملايين مشترك، مدركة أنهما لا يصدّقانها. كان كلّ مقطعٍ من مقاطع الفيديو المنشورة على قناة «الاستراحة السعيدة» تجمع ملايين المشاهدات. ثمّ فتحت حسابها على إنستغرام. شرحت لهما الأرقام: المهم بمعزل عن عدد المشتركين والمشاهدات، هو عدد الـ«لايكات» وعدد التعليقات. شدّدت على أن كلّ هذا يمثّل كمّا كبيرا، كلّ هذا يجعل منهم... تردّدت لحظة في اختيار الكلمة، لكنّها لم تجد غيرها: أجل، كلّ ذلك يجعل منهم نجوماً.

حين سئلت عن العائدات التي يولّدها هذا النشاط، رفضت الإجابة. فهي وقّعت عقداً مع المنصّة، لا يحقّ لها بموجبه كشف هذه المعلومات. ذكّرها المفوّض س. بجفاء أنّ الأمر يتعلّق باختفاء ابنتها. أوضح «قد تكون هذه عمليّة خطف طلب فدية»، وهي فرضيّة تعزّزت في ذهنه حين أقرّت في نهاية المطاف بدخل سنويّ

«يتخطّى» مليون يورو. لم يتمالك المفوّض نفسه عن إطلاق صفير. اتّصل بالقاضي المناوب، عملاً بالإجراءات الواجبة في مثل هذه الحالة.

في الساعة التاسعة والنصف مساءً، تلقت ميلاني كلو رسالة خاصّة مقتضبة عبر حسابها على إنستغرام. لم يكن للمرسِل نفسه أيّ مشترك، ولم تكن تعرف اسمه. كل الدلائل كانت تبعث على الاعتقاد أن الحساب أنشئ بهدف وحيد هو توجيه الرسالة التالية إليها: «الطفلة اختفت... صفقة لاحقاً»، ما أكّد فرضيّة طلب فدية.

في الساعة التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة، وعلى ضوء العناصر الأولى ومع الأخذ بشهرة العائلة (بعد التثبّت من أقوال الوالدة)، قررت النيابة العامة في نانتير إحالة المسألة إلى الفرقة الجنائية.

في الساعة العاشرة إلّا خمس دقائق، دخل عناصر مجموعة بيرجيه المناوبون منذ الصباح مجمّع «السمكة الزرقاء». كانت كلارا روسّيل وقائد مجموعتها من أوائل الوافدين، قبل أن ينضمّ إليهما سريعاً قائد القسم ورئيس الفرقة. القضايا من هذا النوع كانت تستنفرُ القيادات العليا.

بعد نصف ساعة، انتشر حوالي عشرين محقّقاً. وفيها باشروا

التحقيق في الجوار، قامت كلارا روسّيل بترسيم حدود مناطق جمع الأدلّة وأعطت تعليماتها لفنّيي الشرطة الجنائية العلميّة. أقامت دائرة واسعة حول موقع سقوط دمية الطفلة، طوّقتها بشريط بلاستيكيّ. كذلك أُغلقت المداخل إلى المرآب وحجرة النفايات.

حُرزت الدمية وبعض محارم الورق المستعملة، وحوالى عشرين عقب سيجارة، وورق تغليف يحمل اسم مخبز، ورأس لعبة باربي مشعّث الشعر، وبيكار مكسور. كما تمّ تصوير آثار أقدام مطبوعة في المساحات الترابيّة، رغم أنّها كثيرة وقليلة الوضوح.

وبعد الانتهاء من جمع العيّنات والأدلّة، قرّر رئيس القسم استقدام الكلاب البوليسيّة. وبعدما اشتمّ الكلبان اللذان استُحضرا إلى الموقع قطعة ملابس ارتدتها الطفلة، تبعا المسار ذاته تماماً: بعد المرور عبر حجرة النفايات، كانت الآثار تنتهي في المرآب.

وفيما انصرف زملاؤها لمواصلة جولتهم على الجيران بحثا عن شهادة تكون مفتاحاً، بقيت كلارا في المساحات المشتركة من المركز السكنيّ. سيتحتّم عليها في الليل وضع تقرير كامل عن مسرح الجريمة. وصف الأماكن بأكبر دقّة ممكنة. تدوين كلّ شيء، تسجيل كلّ شيء. تعقّب الدم، السائل المنويّ، الوبر، أي أثر متروك هناك. أو استخلاص عدم وجود آثار. وكأنّ الطفلة تبخّرت.

وضعت مخطّط المركز السكنيّ، أشارت إلى المداخل، موقع المباني الثلاثة، مساحة الألعاب، حجرة النفايات والمرآب تحت الأرض. ثمّ

قامت بجردٍ للأحراز التي تمّ جمعها في الخارج والعيّنات التي أُخذت في الشقة بهدف تحديد الحمض النووي لأفراد العائلة الأربعة. فتّش المحقّقون غرفة الطفلين بحثا عن أي دليل محتمل يشير إلى أنّ موعداً ضُربَ للطّفلة، لكنّهم لم يعثروا على أي شيء.

إن كانت فرضيّة الخطف لطلب فدية مرجّحة في تلك المرحلة، إلّا أنه لم يكن من الممكن استبعاد الانتقام أو شبكة تحرّش جنسي بالأطفال أو مجرّد لقاء مشؤوم. أمّا احتمال هروب الطفلة، فلم يكن وارداً نظراً إلى سنّها.

مهما يكن، فإنّ العدّ العكسي بدأ. وكانت الأرقام حاسمة: حين يقترن خطف القاصر بجريمة قتل، تقع الجريمة في تسع حالات من أصل عشر خلال الساعات الأربع والعشرين الأولى.

قبيل الساعة الثانية صباحا، وبينما كانت الشرطة ترافق الوالدين إلى منزلهما بمواكبة مفاوض سيلازمهما تحسّباً لاتّصال الخاطفين بالعائلة، اقتربت كلارا منهما وعرّفت عن نفسها.

في أول مرّة التقت ميلاني كلو وكلارا روسّيل، وبالرغم من التوتر الشديد المسيطر على كليهما، استغربت ميلاني السطوة المنبعثة من امرأة قصيرة القامة إلى هذا الحدّ، فيما لاحظت كلارا أظافر ميلاني، طلاءها الزهريّ المزيّن بالبرَق الذي كان يلتمع في العتمة. فكّرت الأولى «كأنها طفلة»، وخطر للثانية «إنها أشبه بدمية».

حتى في المآسي الأكثر فظاعة، يكون للمظاهر مغزاها.

منذ وفاة والديها، كانت كلارا روسّيل تعي بوضوح تامّ مدى هشاشة البشر. فهي أدركت في الخامسة والعشرين من العمر، ولما تبقى من حياتها، أنه يمكن للمرء أن يخرج ذات صباح بطمأنينة وثقة، من غير عودة. هذا ما حصل لوالدها الذي صدمته شاحنة صغيرة يوم سبت في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وكان خارجاً من المنزل لشراء كرواسان. الواقع أن المركبة لامسته، لكنّ مرآتها ارتطمت برأسه بعنف شديد فاقتلعت قسماً منه. بعد بضعة أشهر، توفّيت والدتها في وسط الشارع جرّاء تمدّد في الأوعية الدمويّة. منذ ذلك اليوم، كلّما كانت تُستدعى إلى مسرح جريمة، أو تعبر بالصدفة قرب أحد الحشود التي تتحلّق خلال ثوان حول شخص أصيب بوعكة أو حول حادث، كلّما كانت تلمح سيّارة إسعاف أو آلية إطفاء متوقّفة في الشارع، يستيقظ في داخلها ذلك اليقين بأن الحياة قد تنقلب رأساً على عقب في أي يوم، أي لحظة، أي ثانية. لم يكن ذلك أمراً واقعاً، حقيقة تكتفي بمعرفتها في ذهنها على غرار معظم الناس،

بل كانت إحساساً جسدّياً، إحساساً بالرعب يطبق عليها لساعاتٍ، وأحياناً يلازمُها مدّةً أطول. لذلك، حين كانت تُستدعى لتولّي قضيّة، كان يشقُّ عليها للغاية التواصل الأوّليّ مع عائلة الضحيّة. لم يكن يسعها سوى أن تحسّ جسديّا بشحنة الأدرينالين التي تسري في عروقهم، وكأن صداها ينعكس في أحشائها هي، فتكون لبضع ثوانٍ تلك المرأة التي تلقّت للتوّ نبأ مقتل طفلها، ذلك الزوج الذي قضت شريكته طعناً، تلك السيّدة المسنّة التي اُعتُقل ابنها.

يبقى شهر نوفمبر بالنسبة لجميع شرطيّي الرقم ٣٦ شارع كي دي زورفيفر، الذين رأوا زملاءهم يعودون من مسرح باتاكلان[1]، شهرا قاتماً دبقاً. في مساء العاشر من نوفمبر ٢٠١٩، كانت كلارا التقت للتوّ صديقتها كلوي في إحدى حانات الدائرة الثالثة عشرة حين وردت رسالة رئيسها سيدريك على مجموعة الفرقة على واتساب. كانت في اليوم ذاته أغلقت ملفّ جريمة قتل ثلاثيّة عن سابق تصميم عملوا عليها على مدى أسابيع. وكان بودّها لو يتسنّى لها الاحتفال بإغلاق هذه القضيّة، إحدى القضايا الأكثر تعقيدا التي تناولتها حتى ذلك الحين، لكنّ مناوبة مجموعتها بدأت للتوّ ونادراً ما تأتي الإحالات في وقت مناسب. فكّرت «ها نحن نبدأ

(١) شهدت باريس وضاحيتها في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٥ سلسلة اعتداءات منسّقة تبنّاها تنظيم الدولة الإسلامية وأسفرت عن ١٣٠ قتيلا. وتضمّنت الهجمات عمليّات إطلاق نار عشوائية وتفجيرات انتحاريّة في عدة مواقع ولا سيّما في مسرح باتاكلان حيث سقط أكبر عدد من القتلى.

من جديد» وهي تطقطق أصابعها، عادة تلازمها منذ شبابها من غير أن تتمكّن يوماً من الإقلاع عنها.

الاتصالات في وسط الليل أو عند الفجر، وجبات الطعام التي تقطعها في وسطها، أيام العطلة التي تقضيها في البرد أو تحت مصابيح النيون في مكتبها، العطل المؤجّلة، كل تلك الميثولوجيا البطولية نوعاً ما المحيطة بمهنتها، هي استعدّت لها وتكيّفت معها. لكن ما لم تتصوّره يوماً هو حال التوتّر الذي سيبقى جسدها خاضعا له على مدى كل تلك السنوات، توتّر يتجلّى كلّ يوم حقيقةً ملموسة. حتى في نومها، تبقى عضلاتها ومفاصلها متأهّبةً. الواقع أنّ بإمكانها في أي ساعة من النهار أو اللّيل أن تثب وتقف على قدميها في ثانية، ترتدي ملابسها وتخرج.

بعد تخطّي الانطباع الأوّل، خلال الدقائق القليلة التي وقفتا فيها وجها لوجه تحت النور الشاحب المنبعث من مصابيح المركز السكنيّ، لمست كلارا يأس ميلاني. يأس كاسح مطلق. وفيما راحت الوالدة الشابّة تتلفّت من حولها للمرّة الأخيرة وكأنّ طفلتها ستظهر فجأة من خلف أجمة حزمة أشجار، وكأن كلّ هذا، الشرطيون المنهمكون في أرجاء الحديقة، الأشرطة البلاستيكيّة الممدودة بين الأشجار، كلّ ذلك لا يمكن أن يكون هو الواقع، أحسّت كلارا بنفسها تمتصّ ألمها. تهيّأ لها خلال اللحظات العابرة التي تبادلتا فيها بضع كلمات، أنّها تبصر بالعين المجرّدة الرعب يغزو كلّ خليّة من جسدها. متشبّثة بذراع زوجها، كانت ميلاني تستعيد للمرّة العاشرة

تلك اللحظات التي أفلتت من قبضتها، لحظات كانت تودّ بكل ما لديها من قوّة لو تمحوها من الواقع، لحظات لا يمكن إلغاؤها، ولا يسع أعظم أسى ولا أشدّ ندم شيئاً حيالها: ذلك الوقت حين عاد ابنها من الحديقة ليخبرها أنه لا يستطيع العثور على شقيقته.

قرابة الثانية والنصف صباحاً، وبعد جمع أولى المحاضر وجميع الأحراز، عادت كلارا أخيراً إلى منزلها. كان لا بدّ لها أن تحاول النوم ولو ساعتين، هي على يقين بذلك، قبل التوجّه مجدّداً إلى مكاتب شارع باستيون.

لكن بدل أن تتمدّد، شغّلت حاسوبها وراحت تتصفّح الإنترنت، فعثَرت على «الاستراحة السعيدة». كانت الصفحة الرئيسية للقناة على يوتيوب تعرض حوالي ثلاثين صورة مصغّرة مستخرجة من آخر مقاطع فيديو نشرتها العائلة. وتحت كلّ منها يظهر عدد المشاهدات، ما بين خمسة ملايين وخمسة وعشرين مليون مشاهدة. مرّرت كلارا الصور المصغّرة، بدت لها القائمة بلا نهاية. وهي منهكة لا قدرة لها على عدّها. لا بد أنّ هناك مئات الفيديوهات لكيمي ديور وشقيقها الأكبر. حدّقت لحظة في وجه الطفلة، خصلات شعرها الأشقر، عينيها السوداوين الكبيرتين، «طفلة صغيرة ظريفة»، قالت لنفسها طاردة كل الصور التي بدأت تغزو ذهنها، ثم شاهدت مقطعي فيديو أو ثلاثة اختارتها عشوائياً.

خلال الليل القصير الذي أعقب اختفاء الطفلة، استيقظت كلارا على وقع جملةٍ عاودتها جليّة بيّنة. كان هذا يحصل لها بين الحين

والآخر، إذ توقظها فجأة كلمات واضحة منتظمة، وكأنها تلفّظت بها هي نفسها. وفي كلّ مرّة، كانت تلك الجمل المنبثقة من الحلم أو من اللاوعي أو من موقع من الليل لا يمكنها بلوغه، تكتسي لاحقاً مغزىً، بل حتّى بعداً تنبّؤيّاً في بعض الأحيان.

في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة، جلست في سريرها وسمعت وسط صمت غرفتها تلك الجملة التي كانت هي نفسها تتلفّظ بها: «إنّه عالمٌ لا نُحيطُ بوجودِه».

طفلة الستّ سنوات تلك اختفت في العالم، العالم الحقيقيّ الذي كانت كلارا تدرك مخاطره بصورة عامة. لكنّ كيمي ديور كبرت في عالم موازٍ، عالم ملفّق بالكامل، افتراضي، لا تعرفه. عالم يتبع قواعد تجهلها تماماً.

اجتاح الهلع جسد ميلاني في أقلّ من ثانية، لاذعاً حارقاً، ثمّ انتشر في سائر أطرافها. كان الرعب يسري في دمها بزخم شديد، أشدّ من كل ما كان يمكن أن تتصوّر، رغم أنها شاهدت من قبل على التلفزيون أو على نتفليكس الكثير من القصص عن أطفال يختفون وأمّهات يكتوين بالقلقِ. كانت تتماهى مع الأبطال، ومحارم الورق في متناول يدها، فتقاسي ما يقاسون، ويخطر لها لوهلةٍ، لوهلةٍ فقط أنّ أمراً مماثلاً يمكن أن يحصل لها. تتصوّر ذلك لثانية، فقط ما يكفي لكي تقول لنفسها «لن أستطيع تحمّل ذلك».

لكنّها هذه المرّة لم تكن أمام إحدى هذه الشخصيّات التي تثير إعجابها ببرودة أعصابها أو شجاعتها. هذا المساء، هي التي تقف هنا، في صالون منزلها، متشنّجة متيبّسة عاجزة عن الجلوس، من دون حتى أن تكون يد زوجها موضوعة على كتفها.

سيبقى مطبوعاً إلى الأبد في ذاكرتها صوت سامي تخنقه غصّة، وجهه الشاحب، أنفاسه المتقطّعة.

عمّت كلّ تلك البلبلة من حولها، أسئلة تكرّرت عشرين مرّة، مشروبات ساخنة في أكواب بلاستيكيّة، يد ابنها الصغيرة في يدها، البرد، وذلك الشال الذي لفّوا به كتفيها وكان يفوح منه عطر نسائي، عطر شبيه بعطر والدتها بعث فيها الغثيان. وصل برونو أخيراً قبيل منتصف الليل، أجاب هو أيضا على أسئلة كثيرة، إلى حدّ يبعث على التساؤل إن لم يكونوا يشتبهون بأنه اقتاد كيمي إلى مكان ما. كان يكفي أن ينظر الواحد إلى برونو ليدرك أنه عاجز عن إلحاق الأذى حتّى بذبابة، هي أدركت ذلك منذ الطرفة الأولى، في اليوم الأوّل، في اللحظة الأولى التي رأته فيها. أجاب زوجها بهدوء وصبر، بدون أن يُظهر أي إشارة استياء. انتظر حتّى يعود إلى المنزل ويحمل سامي إلى سريره، ليبكي. كان جالساً على الأريكة، ولم يستمر الأمر سوى بضع ثوان، شهقةٌ كبَتها، خنقَها، شهقةٌ بعثت فيها قشعريرة.

بعد كلّ تلك الحركة الهائجة في المركز السكني، الكلاب وعمليات التفتيش ورفع العيّنات، غادر الجميع باستثناء ذلك الشّخص الذي سيبقى هنا، في منزلهما، على ما شرحوا لهما، طالما أن كيمي لم تعد بعد. هو عنصر من فرقة تدخّل أو شيء من هذا القبيل، دوره أن يرافقهما ويقدّم لهما النصائح في حال اتّصل الخاطفون بهما. استقرّ الرّجل في الغرفة الواقعةِ أقصى المنزل، الغرفةِ التي كانا يعتزمان تحويلها إلى مكتب وكانا يستخدمانها في الوقت الحاضر غرفة تخزين، وهي تحتوي لحسن الحظّ على كنبة سرير بإمكانه فتحها للنوم عليها. وفي حال وردهما اتصال من رقم مجهول على أي من

هاتفيهما، كان يتحتّم عليهما إخطاره على الفور قبل الإجابة. أعطى العنصر تعليماته ثم انسحب، فتمكّن برونو وميلاني من تقاسم بعض الوقت، وحيدين في المطبخ، عاجزين عن النوم. عاود البرّاد خريره وسط الصمت، وكأن كلّ هذا مجرّد مزحة سمجة، مقلب. ظنّت لثانية أنّه سيغمى عليها. تمسّكت بالطاولة، أغمضت عينيها، وتخيّلت أنّها تتنفّس على طول سكّة، ففارقها الدوار. كان برونو جالساً على كرسيّ، ورأسه بين يديه، كانت تسمع من جديد أنفاسه مضطربة متقطّعة، أنين مكتوم.

في صباح ذلك اليوم، نهضا كما في كلّ صباح، غير مدركين أن ساعات السعادة والهناء باتت معدودة لهما، وأنه حياتهما بحلول المساء ستكون غرقت في كارثة عصيّة على الوصف. من كان ليتصوّر ذلك؟ لكانت أعطت أيّ شيء من أجل أن تعود إلى الوراء. بضع ساعات. بضع ساعات فقط. أن تقول لا. هذا كلّ ما في الأمر. «لا، لن تلعبا في الخارج». لكان ذلك الأمر الزهيد كافياً. أمر زهيد للغاية. لا بدّ أن هناك أحد ما في مكان ما بوسعه أن يسدي إليها هذا المعروف، أن تعود بالزمن إلى الخلف وتتفوّه بكلمات مختلفة. كلمات تردّدت في قولها، كلمات تبادرت إلى شفتيها، لكنها تعذّرت عليها في لحظة ضعف. كانت تريد أن تقول لا. لا، لا وقت لدينا، يجب إتمام الفروض المدرسيّة وتصوير فيديو لإنستغرام. لكن بدا أنّ الانضمام إلى الأطفال الآخرين كان يسعدُ كيمي وسامي غاية السّعادة، ففكّرت «لا بأس لمرّةٍ واحدة»، وقالت نعم.

مرّة، مرّة واحدة، هل يعقل أن تهدم حياتهم؟

كان يترتّب على ميلاني أن تستوعب هولَ الحدث. فهي في الوقت الحاضر أشبه بأولئك الأجانب الذين لا يفهمون سوى نصف الجملة التي يتلفّظ بها محاورهم، ويتحتّم عليهم إعادة تركيب معناها لقاء جهود تكيّف مضنية. كانت تدرك بوضوح تامّ من دون أن يكون بوسعها التعبير عن الأمر، أن جزءاً من المعطيات خارج متناولها. كانت الحقيقة تتخطّى قواها. سمحت لها القدرة على الصمود التي أبدتها خلال الساعات الأخيرة أن تبقى متماسكة وتردّ على الأسئلة، وهذا بحدّ ذاته هائل.

أما الآن، فهي هنا، واقفة في المطبخ، وستستعيد في ذهنها تلك اللحظة مراراً وتكراراً، وتتوسّل بأعلى صوتها إلى كيانٍ أعلى تسألُه ألّا تكون تلك اللحظة حدثت.

لكن لا بدّ لها في نهاية المطاف من الجلوس. وربّما حتّى الاستسلام للنوم. وتقبّل فكرة اختفاء ابنتها.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي

مكتبة
t.me/soramnqraa

الموضوع:

محضر أول جلسة استماع إلى ميلاني كلو (زوجة ديور).

أجراها في ١٠ نوفمبر في الساعة ٣٠, ٢٠ المفوّض س. المناوب في قسم الشرطة المركزي في شاتني مالابري.

**(مقتطفات)**

سؤال: تقولين إنك تركت النافذة مفتوحة لكي تسمعي طفليك، هل كنت قلقة لأنّهما في الخارج؟

جواب: لا، لا، هذا ليس صحيحاً تماما... لم أكن أريد أن يدخلا في شجار. بعض الجيران يرفضون أن يلعب الأطفال في الحديقة لأن ذلك يثير جلبة كبيرة. عند كل اجتماع للملّاكين، تدور خلافات حول هذه المسألة، قصص نفايات مقلوبة وأزهار سُحقت تحت الأقدام. في مطلق الأحوال، أنا شخصيّاً أفضّل أن

يلزما المنزل. هناك عادة ذلك الرجل، السيّد زور، مع كلبه الأصفر، إنّه يخيف الأطفال. لكنه ليس هنا حالياً، يبدو أنّه أُدخل المستشفى، وهذا من الأسباب التي جعلتني أوافق...

سؤال: بمعزل عن جيرانك، هل كان من الممكن لأحد أن يعرف أن الأطفال يلعبون في الخارج؟

جواب: بصراحة، لا... أو بالأحرى بلى. لأنّني نشرت ستوري.

سؤال: ماذا نشرتِ؟

جواب: ستوري. إنه فيديو قصير ننشره على إنستغرام. لا يدوم طويلا. لا يبقى على الإنترنت سوى أربع وعشرين ساعة. في حين أن المنشورات من صور ومقاطع فيديو، تبقى بشكل دائم.

سؤال: ستوري، يعني قصّة؟

جواب: لا، ليس تماماً... إنها بالأحرى لحظات من الحياة اليوميّة نتشاركها مع مجموعة متابعينا، أي مع الناس الذين يتابعوننا، المشتركين. نشرتُ واحدة حين نزل طفليّ، قلت فقط إنهما يلعبان في الخارج وأن هذا يتيح لي قليلاً من الوقت لالتقاط أنفاسي وتحضير العشاء. نشرت واحدة أيضاً في «فيليزي ٢»، حين اشترينا الحذاء الرياضي لكيمي لأن لدينا شراكة مع نايكي، وعليّ بالتالي أن أعرض المنتجات، كما ترى، باختصار، إنها مسألة يصعب شرحها بعض الشيء...

سؤال: هل يمكن مشاهدة مقاطع الفيديو هذه؟

جواب: نعم، لا تزال في حسابي على إنستغرام. بعد ذلك، تبقى محفوظة في ملف «الأرشيف»، وأنا وحدي يمكنني الوصول إليها.

سؤال: في أي ساعة تحديداً نشرتِ هذه الستوري التي تقولين فيها إن ولديك يلعبان في الخارج؟

جواب: لم أعد أذكر... على الأرجح قرابة الساعة ١٥,١٧ أو ١٧,٣٠.

سؤال: هل أن الذين يتابعونك يعرفون عنوانك؟

جواب: لا. قطعاً لا. أو بالأحرى بعضهم ربّما، لأنّ الأخبار تنتشر، في المدرسة، في المركز السكنيّ، الناس يعرفون من نحن. نحن مشهورون، وبالتالي ربّما يتكلّمون من حولهم، يتباهون بأنهم يسكنون المبنى ذاته مثل كيم وسام. في غالب الأحيان لا أدعهما يلعبان في الخارج، لأن بعض الأطفال يسخرون منهما. الأولاد يعاملون بعضهم بشراسة، كما تعلم. أو أن الأهل يقولون أموراً هباء يردّدها الأطفال بدورهم. ذات يوم هاجم أولاد من المبنى سامي، قالوا له أشياء شرّيرة، بل حتى فظيعة. منعته من مخالطتهم، من الحديث معهم. لكن اليوم، لم تكن الزمرة ذاتها تلعب في الخارج، زمرة كيفن ترامبلان، كانوا أولاداً أصغر سنّاً يحبّهم طفلاي: ليو الصغير، الطفلة ماييفا، ابن عائلة فيّو، لم أعد أذكر اسمه، إنه طفل لطيف... لذلك وافقت... (توقف بسبب البكاء/ عدّة دقائق). أتعلم، أنا أذهب كل يوم بالسيارة لجلب ولديّ من المدرسة، أحضنهما مثل دجاجة. لم يخطر لي أنه من الممكن أن يحصل أيّ

مكروه هنا، إنه مركز سكنيّ راقٍ. ربما جُرحت كيمي، أو سقطت في مكان ما، ربّما ينبغي مواصلة البحث.

سؤال: نشرتِ الستوري بين الساعة ١٥ , ١٧ والساعة ٣٠ , ١٧، وفي الساعة ١٥ , ١٨ جاء ابنك يخبرك أنه لم يكن بإمكانه العثور على شقيقته، صحيح؟

جواب: أجل، أعتقد ذلك. حين صعد، كنت نظرت إلى الساعة للتوّ وكنت على وشك أن أناديهما من النافذة. نحن نسكن الطابق الثاني، وسمعت صوتيهما مباشرة تحت النافذة قبل بضع دقائق. كان يترتّب على سامي إتمام فروض مدرسيّة، حتى خلال العطلة، أفضّل ألّا يتخلّف عن البرنامج، والجمعة هو عادة اليوم الذي ننشر فيه الفيديو على يوتيوب، وعلينا بالتالي إعداد ستوري لإنستغرام لنخبر أننا نشرنا الفيديو.

سؤال: ما كان ردّ فعلك حين نبّهك ابنك؟

جواب: نزلت على الفور. ناديت باسم ابنتي بأعلى صوتي في الحديقة، وفي كل مواقع المبنى حيث يمكن أن تختبئ. طرقتُ باب بعض الجيران الذين لديهم أولاد ويُحتمل أن تكون ذهبت عندهم. كنت... كنت مذعورة تماماً.

سؤال: تقولين إن «عليك» إعداد هذه الستوريز، أو هذه الأشياء، هل ثمّة من يطلبها؟

جواب: لا، لا، لا أحد. أنا من تلقاء نفسي، لأنّني أتولّى بنفسي

تنظيم كلّ شيء، ما ينبغي القيام به على يوتيوب، على إنستغرام، المسألة تتطلّب أن أكون حاضرة، هناك الكثير من العمل المترتّب، وأنا من يدير كلّ ذلك.

سؤال: كان عليك إذا تصوير ستوري للإعلان عن فيديو، صح؟

جواب: أجل. عادة، على قناتنا «الاستراحة السعيدة»، ننشر مقطعي فيديو أو ثلاثة في الأسبوع. هذه الفيديوهات متطوّرة جداً، وخصوصا منذ بعض الوقت، نقوم بعمل مونتاج حقيقيّ، زوجي هو الذي يتولّى ذلك. هنا، إنها مقاطع الفيديو العائليّة التي تغذّي قناتنا على يوتيوب، القناة التي عرضتها عليك، التي يتبعها خمسة ملايين مشترك. الستوريز أمر مختلف. إنها على إنستغرام، وأنشرها على مدى النهار لأتشارك ما نعيش. أروي ما نفعل، أين نحن، إلى أين نذهب... المعجبون يعشقون ذلك. وهذا يسمح لنا أيضا بالإعلان عن الفيديوهات الجديدة... لا أدري إن كان هذا واضحاً، آسفة، إنني متعبة... حين يصل زوجي، سيشرح لكم بشكل أفضل منّي.

سؤال: هل تحبّ كيمي تصوير هذه الفيديوهات؟

جواب: آه أجل، هي مولعة بذلك. أحيانا تتذمّر قليلاً، حين تكون متعبة، لكن الواقع أنّها مسرورة للغاية لامتلاكها هذا العدد من المعجبين، تصوّر ذلك، في عمرها...

سؤال: هل ترين أي سبب، سواء خلاف أو شجار، يبرّر أن تكون كيمي فضّلت الاختباء على أن تعود إلى المنزل؟

جواب: لا، لا إطلاقاً. ولا أي سبب. كل شيء كان يسير على ما يرام.

*

وصف الطفلة عند اختفائها:

ستّ سنوات.

شعر أشقر، متوسّط الطول، مجعّد.

الطول: ١,١٨ متر، ٢٠ كلغ (نحيفة البنية).

سترة مبطّنة ورديّة بقبّة من الفرو الصناعيّ.

كنزة ورديّة فاتحة.

جينز بالي اللون بعض الشيء.

جوربان كحليّان.

حذاء رياضيّ أبيض.

غداة اختفاء كيمي ديور، لم تكن الساعة بلغت السادسة حين أعدّت كلارا لإرسال الأحراز التي جُمعت في اليوم السابق إلى مختلف المختبرات، ثمّ انكبّت على أول جلسة استماع إلى ميلاني كلو، حرّر محضرها مركز الشرطة في شاتني مالابري.

عند إعادة قراءة الوثيقة، انتابها شعور غريب. كان هناك أمر ناقص. شيء كان ينبغي أن يُقال لكنّه بقي طيّ الكتمان. فكّرت قليلاً

واسترجعت في ذاكرتها ميلاني كلو. تلك المرأة كانت مذعورة، لا شكّ في ذلك. لكن في وسط ذعرها، كان لديها أمل. أمل ضئيل، عبثيّ، لا يمكن البوح به، لكن أمل رغم كلّ شيء. استرسلت كلارا للحظة في تقصّي هذه الفكرة، ثمّ ما لبثت أن استعادت الرّشد.

أن تصبح ثمّ تبقى شرطية (أن تصبح شرطية -ثمّ تبقى كذلك-) كان مساراً اقترن بتعديل تدريجيّ لطريقة تفكيرها. انسلّ الشكّ والريبة إلى زوايا ذهنها، هيمنا على مشاعرها وانفعالاتها، انتشرا فيها مثل مرض بطيء ومحتوم. أن تشكّك، أن تعيد النظر بلا توقّف، تلك كانت مهنتها. البحث عن الثغرة، التناقض، الكذبة. التفكير عكس المسلّمات والحدس والانطباعات. ترصّد الغموض، الطيّات المكتومة. «هذا يبدّل في العمق طريقتي في النظر إلى الأمور»، كما لاحظت مرّات كثيرة. أحياناً كانت تعلّل نفسها بالقول إن هذا الانحراف المهني حكم على أي شرطي، لا مفرّ منه.

عند اختفاء طفل، تكون الخيوط العائلية دائما أول فرضيّة تُطرح. الخلافات، الحسد، الخيانة، خطط انفصال أو هروب، كلّها دوافع للخطف ينبغي التثبّت منها. حقّقت عائلة ديور في السنوات الأخيرة كسباً مالياً. الكثير من المال. أكثر على الأرجح ممّا رضيت ميلاني وزوجها الإقرار به. وهذا يمكن أن يبعث بعض الأفكار. لم يتمّ تفعيل خطّة الإنذار بعملية خطف، بالاتفاق مع أجهزة التحقيق التابعة للنائب العام. لم يكن السبب مجرّد الخوف من هيجان إعلاميّ، بل إنّ نشر صورة لكيمي على نطاق واسع قد يخيف الخاطفين

ويحضّهم على التخلّص منها. وبالتالي، وبعد طول نقاش، فرض خيار التكتّم نفسه.

أقيمت قاعة الأزمة خلال الليل. قاعة «مسلّحة» كما يقولون، كمن يسلّح كتيبة أو سريّة أو سفينة. تحت أوامر مساعد قائد الفرقة، تمّ تشكيل عدّة خلايا، فكُلّف فريق محقّقين بمعاينة الجوار، وعُهد إلى فريق آخر بتولّي الشهود، وكان فريق ثالث يعمل على الخطوط الهاتفيّة، ورابع يتناول كاميرات المراقبة. كان ينبغي تسيير كلّ محاور العمل هذه بشكل متزامن وبأسرع ما يمكن، ما بين البحث عن شهود، والتدقيق في جدول أعمال كلّ المقرّبين من العائلة وتنقّلاتهم، ورصد كلّ أرقام الهاتف الجوّال المريبة التي اتّصلت بأبراج الإرسال في الجوار، استعراض تسجيلات كاميرات البلديّة والمتاجر في المحيط. على أن يتمّ تقاسم المعلومات على الخادم بشكل آنيّ. كما كان العمل جارٍ على تشكيل فريق أخير مكلّف بتقصّي أيّ تسريب محتمل على شبكات التواصل الاجتماعي، والتدقيق في التعليقات الموجّهة إلى ميلاني كلو خلال الأشهر الأخيرة.

أحيل الملفّ إلى الفرقة الجنائية بسبب قوّتها الضاربة. فإلى قدرتها على تعبئة عشرات المحقّقين في ليلة، هي تجمع خبراء في شتّى المجالات. في الساعة الثامنة صباحاً، استُدعي رؤساء الأقسام وقائد الفرقة ومساعده ومأمورة الضابطة القضائيّة التابعة له إلى قاعة الأزمة الملاصقة لمكتب القائد. جلس الجميع حول الطاولة

الطويلة. في قعر الغرفة كانت تتوزّع حوالى عشر شاشات تنقل مباشرة صوراً من المدينة.

حيّا مدير الفرقة ليونيل تيري المجتمعين بشكل سريع. لم يكن المزاج يسمح بالاستفاضة في الكلام. كانت كلّ المؤشّرات، نبرته الحازمة، حركاته، الطيّة التي انحفرت في منتصف جبهته، كلّها علاماتٌ تشير إلى حالة الإجهاد التي يعاني منها. كل دقيقة ثمينة، ولا حقّ لهم في أدنى خطأ. أدنى سوء تقدير سوف يودي بهم إلى كارثة. فاختفاء طفلة، بمعزل عن شحنته العاطفيّة، تكون له أصداء إعلاميّة هائلة، غالبا ما أظهرت قدرتها على الإضرار بصورة الشرطة القضائية. كانت حياة طفلة في السادسة من العمر على المحكّ. بمشقّةٍ فاوضوا كلّ الصحف إلى أن وافقت على لزوم الصّمت حتّى إشعارٍ آخر. لا يعرفون كم من الوقت ستدوم هذه الهدنة، لكن لديهم في الوقت الحاضر فرصة للعمل بدون أن يكون حشد من الصحافيّين متحلّقاً تحت نوافذهم. قضى زميل من فرقة البحث والتدخّل الليل في منزل الوالدين، وسيبقى معهما للإشراف على أي اتصالات محتملة مع الخاطفين، على أن تنضمّ إليه قبل الظهر اختصاصيّة في علم النفس مكلّفة هيَ أيضاً مرافقة ميلاني كلو وزوجها.

في الختام، ذكّر المدير بمبادئ إدارة الأزمات: جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، وتحليلها وتقاسمها. أصرّ على هذه الكلمة الأخيرة، مشدّدا على كلّ حرف منها. فالصراعات الصغرى بين

المجموعات أو بين الشرطيين تثير جنونه. وستعقد كلّ ساعتين اجتماعات تقييم مرحليّ تسمح بإعادة ترتيب الأولويّات.

هكذا وُضعت محاور التحقيق الكبرى. نظر سيدريك بيرجيه إلى كلارا، فأبدت له موافقتها بإشارة خفيّة، ثمّ تولّى الكلام بدوره ليلخّص الاستنتاجات الأوّلية التي خلصوا إليها بالأمس.

«المبنى السكنيّ له مدخلان: مدخل للمشاة، وآخر للسيّارات. الأول يقع مبدئياً في حقل كاميرا مراقبة تابعة للبلديّة. قُدّم طلب لمعاينة التسجيلات، ويُفترض أن نتمكّن من مشاهدتها في عين المكان أثناء النّهار. في المقابل، مدخل الآليّات الذي لا يطلّ على الشارع نفسه، لا تغطيّه كاميرات المراقبة. أقرب كاميرا تقع على مسافة ثلاثمئة متر ومصوّبة في الاتّجاه الآخر. ينبغي امتلاك جهاز إلكتروني للدخول إلى المرآب الواقع تحت المبنى «أ» والمتّصل بالأقبية وبحجرة النفايات. وهو لا يتّسع سوى لأربعين سيّارة، في حين يضمّ المجمّع السكنيّ خمسة وثمانين مسكناً. للأسف، لا يحفظ النظام السيّارات الدّاخلة ولا الخارجة. سيزوّدنا الحارس خلال النهار بقائمة المقيمين الذين يمتلكون حاليا الجهاز الإلكتروني. أذكّركم بأنّ عدداً من العناصر التي عُثر عليها في الموقع حُرزت مساء أمس، والأهمّ فيها هو دمية الفتاة التي عُثر عليها في الخارج، على مقربة من باحة اللّعب. المخطّطات التي وضعتها كلارا للمركز السكنيّ والحديقة والأقبية والمرآب والشوارع المحيطة متوافرة على الخادم. فيما يتعلّق بأولى الشهادات، قالت جارة إنها سمعت طفلاً ينادي مستنجداً عند

العصر. جمعنا هذه العناصر مساء أمس، وتمّ استدعاؤها إلى جلسة استماع هذا الصباح. ميلاني كلو كانت في منزلها، نافذتها مفتوحة، وتقول إنّها لم تسمع شيئاً. كان الوالد يتلقّى تدريباً في ليون، عاد في الساعة ٥٥ ,٢٣، نعمل على التحقّق من جدول أعماله».

توقّف سدريك برهةً، متثبّتاً من الاهتمام الاستثنائي المخيّم على مستمعيه، ثمّ واصل:

«سيعود فريقٌ هذا الصباح إلى هناك لاستكمال معاينة الجوار. وزّعنا بالأمس عدداً من الاستدعاءات، وسيحضر اليوم إلى هنا عدد من الجيران لنستمع إليهم. نميل حاليا إلى فرضية عملية خطف في سيّارة في المرآب. هناك نفقد أثر الفتاة، بعد تأكّد مرورها من حجرة النفايات. وبما أنّ لا أحد رآها تخرج، ليس من المستبعد أن تكون لا تزال محتجزة داخل المبنى. استدعينا كذلك الحارس وزوجته ليمثلا هنا هذا الصباح. نريد معرفة كلّ شيء. من صديق من، ومن يحقد على من، الخصومات الصغيرة، الصراعات العالقة، الحسد والضغائن. سيتمّ الاستماع كذلك في الطابق الرابع إلى سامي وجميع الأطفال الذين حضروا لعبة الغمّيضة خلال النهار، وسيتولّى ذلك زملاؤنا من فرقة حماية القصّر. على صعيد آخر، لم نجد أي صعوبة في تحديد عنوان بروتوكول الإنترنت لكاتب الرسالة التي تذكر صفقة لاحقاً، والتي وردت بريد ميلاني كلو في الساعة ٣٠ ,٢١ من حساب إنستغرام مزيّف، أُنشئ حديثاً على ما يبدو. يتعلّق الأمر بفتى في الخامسة عشرة من العمر يسكن في

المبنى. وانطلق منذ ربع ساعة فريق لتوقيفه وتفتيش منزله. أُقر بأنّه بالنّظر إلى السياق العام يبدو الأمر أبسط من أن يكون جديّاً».

دخل أحد رؤساء الفرق قائلاً: «قد يكون الشركاء في مكان آخر».

«لا أرى الأمر مقنعاً كثيرا. إذا صحّ ذلك، فنحن لا نتعامل مع محترفين حقيقيين. من جهة أخرى، قدمت كلارا طلباً إلى النيابة العامة للتنصّت على هاتفَي والدي كيمي ديور».

التفت سيدريك إلى كلارا ليرى إن كان لديها عناصر تودّ إضافتها، لكن قبل أن يتسنّى لها الإجابة، عاود ليونيل تيري الكلام مختتماً:

«حسنا، نلتقي هنا بعد ساعتين لإحاطة جديدة».

علت همهمة موافِقة، بدأ الهواء يتسّرب من الممرّ عبر الباب حين تولّت كلارا الكلام.

«من يشاهد مقاطع الفيديو؟».

نظر سيدريك بيرجيه بحيرة إلى مأمورة الضابطة القضائيّة.

«تعنين التعليقات؟ قلنا للتوّ إن لدينا فريقاً...».

قاطعته: «لا. أعني مقاطع الفيديو بحدّ ذاتها. ما يفعلون على يوتيوب ويكسبون منه كل هذا الثراء وهذه الشهرة. والسبب خلف هذا النجاح...».

لم يكن سيدريك بيرجيه من النوع الذي يدع أحداً يباغته.

«أنتِ طبعاً. أرسلي الأحراز وتولّي أمر ذلك. ولا تنسي أن تقولي لنا إن كانوا يتكلّمون الفرنسية بشكل صحيح!».

في ظروف مختلفة، لكان الجميع ضحك، بمن فيهم كلارا.

في تلك الحالة المتأرجحة ما بين النوم واليقظة التي قضت فيها ما تبقّى من الليل، حالة لا يمكن وصفها حتّى بالإغفاءة، بل هي أقرب بالأحرى إلى خدر، تعاقبت في رأسها مشاهد لابنتها. وكلّما شعرت ميلاني بأنها تغرق فيما يشبه السبات، انتفضت مذعورة وكأن شحنة مفاجئة من الأدرينالين تتكرّر عشر مرّات تعيدها إلى الواقع. كيمي اختفت. رغم ذلك، في حوالى الساعة الخامسة أو السادسة، غفت أخيراً ساعة أو ربّما أكثر بقليل، بفضل منوّم منتهي الصلاحيّة عثرت عليه في خزانة الأدوية.

في تلك الحالة المبهمة، من اللحظات التي عاودتها بانقشاع مروّع، وكأنّ الخوف يفتح لها منفذاً غير مسبوق إلى الذاكرة، ذلك اليوم الذي تعلّمت فيه كيمي أن تنظر مباشرة إلى الكاميرا. في تلك الفترة، كانت ميلاني لا تزال تصوّر في صالون منزلها. شرحت لكيمي أن عليها أن تنظر إلى العدسة، مثل السيدات في نشرة الأحوال الجويّة. لم يكن من السهل على فتاة صغيرة بعمر ابنتها أن تفهم أن عليها أن تحدّق في العدسة بدل النظر إلى والدتها، حتّى عندما تجيب على أسئلتها، وأنّها بذلك تعطي المشاهد انطباعاً بأنها تخاطبه هو. فالهدف أن يكون بوسع كل طفل وكلّ فتى منحنٍ فوق

جهازه اللوحي أو حاسوبه، أن يتصوّر أن كيمي وسامي يقيمان معه علاقة فريدة. وحرصاً منها على إنجاز المطلوب على أفضل وجه، عاودت كيمي المحاولة مراراً قبل أن يصبح بإمكانها إبقاء عينيها محدّقتين في الاتّجاه الصحيح. وبعد فترة قصيرة من التردّد، استوعبت كيمي التعليمات. وما هي إلّا بضعة أيام، حتى بات الأمر تلقائيّاً، تقوم به من دون تفكير. كانت تتعلّم بسرعة كبيرة. في البداية، لم تكن ميلاني تظهر في مقاطع الفيديو. كانت توجّه ولديها، تطرح عليهما أسئلة، تتفاعل معهما، لكن من غير أن تُظهر وجهها. كانت كيمي رزينة للغاية، تبدي تركيزاً كبيراً. كانت تجهد لحفظ النصوص، وتكرّر المقطع عدّة مرّات إذا تطلّب الأمر ذلك. كانت تريد أن ترضي أمّها، أن تنال تقديرها.

بعد بضعة أسابيع، سألتها كيمي:

«وأنتِ؟ لم لا تأتين إلى الأمام معنا؟».

ابتسمت ميلاني ثمّ اقتربت منها:

«لأنك أنت الأجمل يا حبيبتي».

أصرّت كيمي بوجوم:

«هل أنت خائفة؟».

«لا، أبداً. ممّ أخاف؟».

«من أن تُحبسي».

«أُحبَس أين؟».

أشارت كيمي بإصبعها إلى الشاشة. ما الذي كانت تعنيه بالضبط؟ لا تعرف ميلاني. لطالما كانت مخيّلة ابنتها واسعة، ولم يكن من النادر أن تراودها كوابيس.

«لا طبعاً حبيبتي، لا أحد محبوس في الداخل».

في يوم آخر، وفيما كانت تستعدّ لتصوير فيديو حيث يفترض أن تكتشف كيمي أمام الكاميرا لعب «دولي كوينز» الجديدة، أخذ سامي يبكي لأنه لم يكن يشارك في التصوير. لم يكن من الممكن مواساته. تأثرت كيمي كثيرا لرؤية شقيقها حزيناً إلى هذا الحدّ، فعرضت عليه أن يفتح العلب محلّها، وحتّى أن يختار أمام الكاميرا أي لعبة هي الأجمل. هدأت أمور سامي، وهو مسرور بالدور الذي سيلعبه، لكنّ ميلاني اضطرّت إلى الرفض. فالعلامة اشترطت بوضوح أن تقوم فتاة باكتشاف اللعب وعرضها. عندها اقتربت كيمي من شقيقها الأكبر وأحاطته بذراعيها كما كانت لتفعل أمّ.

لماذا لم تكن تستحضر سوى تلك اللحظات الحزينة، في حين كان هناك مواقف كثيرة ضحكوا فيها؟ الحقيقة أنّ السنوات الأربع الأخيرة كانت مليئة بالمرح والمتعة. «الاستراحة السعيدة» كانت هديّتها لأسرتها. هديّة أضفت بهجة على حياتهم.

قرابة الساعة السابعة، مع بدء طلوع الضوء، نهضت ميلاني وتوجّهت إلى غرفة ابنها بدون أن تحدث صوتاً. وجدت سامي

ممدّداً على ظهره، مشرّع العينين، وقد سحب الغطاء عليه حتّى ذقنه. اقتربت من السرير، جثت على البساط وأخذت تداعب جبينه. بدا وجهه وكأنّه ينفرج تحت راحة يدها.

لم تجرؤ ميلاني على التفوّه بكلمة، خشية أن يفضح صوتها جزعها.

بعد بضعة ثوانٍ سألها: «هل تعتقدين أن كيمي ستعود؟».

«أجل، بالتأكيد حبيبي».

انتظر دقيقة، ثم أضاف:

«هل تعتقدين أن ما حصل كان بسببي؟».

«لا يا حبيبي، أبداً. لا ذنب لك إطلاقاً. أنت شقيق أكبر طيّب جدّاً».

لم يعد بوسعها قول المزيد. بدأ صوتها يتهدّج. لامست وجنته مرّة أخيرة ثمّ نهضت بصمت.

وجدت في المطبخ برونو والمفاوض من فرقة البحث والتدخّل جالسَين أمام فنجاني قهوة. لم ينم برونو، بل قضى الليل على كنبة في الصالون، لا بدّ أنّه غفا فيها قليلاً. حين دخلت، توقّفا عن الكلام ونهض الرجل الذي نسيَت اسمه، تاركاً لها الكرسي.

«علينا إذا أن نتحمّل هذا الرجل طوال النهار»، قالت لنفسها وهي تنهار جالسةً.

لم تكن واثقة بأنها ستقوى على ذلك.

أن تأكل وتشرب ماء.

أن تجيب على أسئلة مراراً وتكراراً.

أن ترى اختصاصيّة علم النفس.

أن تقود سامي إلى الفرقة الجنائية ليأخذوا إفادته.

أن تتخطّى هذا النهار.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي

الموضوع:

محضر جلسة الاستماع إلى سامي ديور.

أجرتها في ١١ نوفمبر أود ج.، ضابطة الشرطة في فرقة حماية القصّر، بمساعدة نيكول ب.، اختصاصيّة علم النفس.

**(مقتطفات)**

سؤال: هل يمكنك أن تحكي لي لعبة الغمّيضة تلك التي اختفت أثناءها أختك الصّغيرة؟

جواب: حسنا... كانت تلك ثالث جولةٍ، وكان دوري أن أفتّش عنهم. بدأت العدّ، ثم عندما اقتربت من الرقم ثلاثين، استدرت قليلاً. لم يكن بقصدي أن أغشّ، لكنّني رأيت كيمي تركض صوب حجرة النفايات. ظننت أنّها تريد أن تختبئ هناك، بدل أن تبقى في الحديقة مثلما اتّفقنا، لم يعجبني الأمر لأن الرائحة هناك كريهة، وأنا

لا أحب الذهاب إلى هناك. ثمّ أكملت العدّ حتى ثلاثمئة مثلما قرّرنا. من قبل، كنّا نعدّ حتى المئة فقط، لكنّ هذا لم يكن كافياً. بعد ذلك، صحت «ثلاثمئة» وبدأت أبحث. في الحديقة، وجدت على الفور مايفا التي كانت خلف الألعاب الخشبيّة، وبعدها رأيت بِن الذي خرج من مخبئه لأنه كان يخاف أن يبقى وحيداً، ثمّ ليو. بحثنا معاً عن سيمون لأن الوقت كان متأخراً قليلاً، مايفا هي التي وجدته، كان ممدّداً على الأرض خلف الدرّاجات. بعد ذلك، لم يبق سوى كيمي. عندها نزلنا جميعاً إلى حجرة النفايات، لكنّها لم تكن هناك.

سؤال: ماذا خطر لك حينئذ؟

جواب: قلت لنفسي إنها وجدت مخبأً جيّداً.

سؤال: وأين خطر لك أن تكون؟

جواب: تحت سيّارة في المرآب، لأنه يمكن الذهاب إلى هناك مباشرة من الحجرة. قلت لنفسي إن أمّي ستؤنّبها إن كانت تمرّغت أرضاً أو ما يشابه، لأنّها أحياناً توسّخ ثيابها عن قصد، وهذا يُغضب أمّي...

سؤال: وذهبت إلى المرآب؟

جواب: نعم، مع مايفا وسيمون. بقي بِن في الأعلى مع ليو لأنّه كان خائفاً جدّاً. قمنا بجولة، نظرنا تحت السيّارات، لكنّنا لم نجدها. لم أكن أريد البقاء طويلاً لأن أهلنا لا يريدون أن نذهب إلى المرآب، هذا خطير جداً.

سؤال: وبعد ذلك ذهبت تنبّه أمّك؟

جواب: نعم.

سؤال: كنت خائفاً على شقيقتك الصغيرة؟

جواب: نعم. بدأت أشعر بالخوف لأنها بالعادة لا تُحسن الاختباء.

(...)

سؤال: قلتَ لي إن كيمي كانت توسّخ ثيابها عن قصد أحياناً، هل تعرف السبب؟

جواب: حسناً، مثلاً حين نصوّر فيديو، الأربعاء أو الجمعة عند العودة من المدرسة، أو الأحد، تقول لنا أمّي دائماً أي ثياب علينا أن نرتدي للتصوير. تمشّطنا، تحضّرنا، وكلّ شيء. لكنّ كيمي، حسناً، تلطّخ قميصها أو فستانها ببقعة كبيرة قبل أن نبدأ بقليل. تكون ثيابها كلّها مبلولة أو مرشوشة، أو تدلق شيئاً عن قصد، مثل شراب الرمّان. هذا يغضب أمّي كثيراً. الأمر نفسه يحصل حين تتظاهر كيمي بأنها لا تسمع حين تناديها أمّي لتصوير الفيديو.

سؤال: لماذا تفعل كيمي ذلك برأيك؟

جواب: حسناً، لا أعرف... لها أطباعها. مثلاً لم تعد تريد أن تلعب حين لا تعجبها اللعبة، لا تريد معاودة التصوير حين نصوّر ولا تقول الكلمات الصحيحة، لم تعد تريد التنكّر بزيّ أميرة، لا تحبّ ملكة الثلج في حين أن أمّي مولعة بها. أحياناً تقول إنها متعبة،

إنّها لا تريد أن تفعل شيئاً، أو إنها سئمت كلّ ذلك... عندها لا تكون أمّي راضية.

سؤال: وماذا تقول أمّك حين لا تكون راضية؟

جواب: تقول إنه ليس أمراً لطيفاً أبداً أن نفعل هذا. إنّنا محظوظون كثيراً لما يحصل لنا، ملايين المشتركين وكلّ هذا، وكل الأولاد الذين يحبّوننا ويريدون التقاط صور سيلفي معنا ويريدون توقيعنا عندما نقوم بلقاءات «ميت آب»، ينتظرون في الصفّ لوقت طويل جدّاً لرؤيتنا، أحياناً ساعتين حتّى، وهم يحلمون حقّاً أن يكونوا مكاننا، كما أنّنا نحن الأوائل الآن، المفضّلان بين كلّ أطفال فرنسا على يوتيوب، مفضّلان أكثر من ميليس وفنتازيا، أكثر من أطفال «نادي الألعاب»، أكثر من ليام وتياغو من «عصبة الدمى»، نحن تخطّيناهم كلّهم الآن. عندها تقول أمّي لكيمي أن تذهب وتبدّل ملابسها بسرعة، وإلّا لن تظهر أبداً في أيّ فيديو نصوّره، وستكون هي الخاسرة، ولن يحبّها أحد بعد الآن.

كان توم بريندیسي فتى في الخامسة عشرة، وحيد ابويه، وهما بائعا أزهار يملكان محلاً في وسط سو. أوقف عند نهوضه من السرير، فيما كانت والدته غادرت للتوّ إلى محلّ الأزهار، واقتيد برفقة والده إلى مكاتب المديريّة القطاعية للشرطة القضائية، حيث استمع إليه على الفور سيدريك بيرجيه بمساندة محقّقة من فرقة حماية القصّر. كانت صيغة أوليّة للمحضر حرّرتها المحققة متوافرة على الخادم.

علم الفتى باختفاء كيمي ديور في اليوم السابق قرابة الساعة السابعة مساء، بعدما لفتت انتباهه الحركة المحمومة ذهاباً وإياباً في الحديقة. لم يأخذ المسألة بكثير من الجديّة إذ كان على قناعة بأن الفتاة مختبئة، فخطر له أن يخيف والدة كيمي ويجعلها تعتقد أنّها عمليّة خطف. أقام حساباً على إنستغرام بلمحة بصر ووجّه لها الرسالة «الطفلة اختفت... صفقة لاحقاً». لم يقدّر خطورة أفعاله، واعترف على ضوء الأحداث بأنها كانت مزحة سيّئة. حين أدرك أنّ الفتاة اخفت بالفعل ولم يُعثر لها على أثر، لم يغمض له جفن طوال الليل.

إن كان الفتى أبدى ندماً صادقاً، فهو لم يخفِ في المقابل بغضه لميلاني كلو. ففي محضر الاستماع، ترد جمل مثل «تتلاعب بهما منذ البداية» أو كذلك «تستغل ولديها لكسب المال لنفسها، وهذا ليس رأيي وحدي». حتّى إنه سعياً لفضح العار والإذلال اللذين تفرضهما ميلاني كلو على حدّ قوله على ولديها، أطلق توم بريnديسي قبل بضعة أشهر على تويتر وسم «أنقذوا كيمي وسامي» الذي لقي رواجاً واسعاً. لم يكن والداه المنشغلان في المحلّ، على علم إطلاقاً بالجدل الذي أشعله ذلك على شبكات التواصل الاجتماعي، بين من دافع عن كيم وسام ووالدتهما، ومن استنكر وتيرة نشر مقاطع الفيديو ومحتواها الإعلاني الذي يكاد يكون مفضوحاً. أدّى الوسم مفعوله، لكنّ البعض استغلّ الثغرة التي أحدثها ليستهزئ بالولدين، وخصوصاً سامي، وهو ما أسف له توم بريnديسي. لم يكن يحبّ تلك المرأة، وأراد أن يفزعها. قال إن ثمّة محتويات كثيرة على

يوتيوب تندّد بـ«الاستراحة السعيدة» وبـ«فريق الحافلة الصغيرة»، منافستها الرئيسيّة. ذكر مراراً «فارس النت»، وهو شاب ثلاثينيّ تحظى قناته بمتابعة واسعة، يصوّر منذ عدّة سنوات مقاطع فيديو تندّد بمخاطر يوتيوب وانحرافاتها. هاجم فارس النت مراراً قناة «الاستراحة السعيدة» في برنامجه «يوتيوب تخرج عن السكّة». كان توم بريندیسي يعتبر نفسه بمثابة تلميذ له.

بعد بضع ساعات قضاها في الباستيون[1]، وتلقّي عظة شديدة اللهجة، أمره سيدريك بيرجيه بالعودة إلى منزله. نظراً إلى سنّه، وُضع في الإقامة الجبريّة في الوقت الحاضر. إن كانت بعض التفاصيل في جدول أعماله وفي القرص الصلب في حاسوبه تتطلب التثبّت منها، فإن قائد المجموعة كان يستبعد ضلوعه فعليّاً في اختفاء كيمي.

قضت كلارا النهار في إتمام استنتاجاتها وإرسال الأحراز إلى مختلف المختبرات، ولا سيّما دمية كيمي المفضّلة التي كانت الطفلة تناديها «دودو وسخة»، آملة أن يتمّ العثور عليها على آثار حمض نوويّ غريب عن العائلة.

غالباً ما كانت تعمل على جرائم قتل. كانت استنتاجاتها تستغرق أحياناً عدّة أيام. بعد ذلك يتعيّن البحث عن مرتكب الوقائع. وهذا قد يتطلّب وقتاً طويلاً، شهوراً أحياناً، بل ربّما سنوات. كان الموت

(١) الباستيون هي التسمية في فرنسا لمقر المديرية القطاعية للشرطة القضائية، نسبة إلى الشارع الذي تقع فيه مكاتبها.

نقطة الانطلاق في بحثها. الموت هو واقع، معطى، ثمّة مأساة حصلت، مأساة تستوجب العقاب، لكنّ العقاب أبداً لن يجبر الضّرر.

هذه المرّة لديهم القدرة على تغيير مجرى الأمور. هم، وليست هي. أحسّت بنفسها لأوّل مرّة عاجزة. مسمّرة بلا حراك. فبعدما أنهت استنتاجاتها، لم تعد في خطّ الجبهة الأوّل. الآن يتحتّم على كلارا الانتظار. والانتظار بدا لها مستحيلاً. حتّى لو أن كل مرحلة من التحقيق، كلّ مسار يتمّ فتحه أو غلقه، سيصل خطيّاً إلى يديها بعد فارق زمنيّ، وحتّى لو أنّه لا يمكن أن يفوتها أدنى شيء، كانت كلارا تبغض ذلك الشعور بالجمود.

كلّ ساعتين، بات اجتماع الإحاطة يعقد بدونها في قاعة الأزمة في نهاية الرواق.

لحسن حظّها، كانت تشغل المكتب نفسه مع سيدريك، وهو اعتاد أن يتقاسم كلّ شيء معها. كان يحبّ الاطّلاع على آرائها وردود فعلها، وغالباً ما يعوّل على حدسها.

وبالتالي، كان كلّما عاد من قاعة الأزمة، يروي لها ما جرى.

على مرّ الساعات، اتّضحت الأمور.

تبيّن أن المرأة التي قالت إنها سمعت صراخاً، هي صمّاء. ومن الواضح أن مستوى صوت تلفزيونها الاعتيادي لا يسمح لها بسماع أيّ صوت قادم من الخارج. في المقابل، بين الشهادات

التي تم الاحتفاظ بها، ثمّة شخصان قالا إنهما شاهدا حوالى الساعة السادسة مساء سيّارة حمراء تخرج من المرآب. فذكرت امرأة من سكّان المبنى «أ» كانت تترصّد عودة ابنها من النافذة أنها لاحظت السيّارة لأنها ترددت في الوجهة التي ستسلكها. كما أفاد أستاذ من سكان المبنى «سي» كان عائداً من المدرسة التي يعلّم فيها، أنّه تنحّى جانباً ليدع سيّارة حمراء صغيرة تمرّ. بحسب المرأة، كان رجل يقود السيّارة وكان وحيداً فيها. أما وفق الأستاذ، فكان هناك امرأة خلف المقود وولد مثبّت في كرسيّ أطفال على المقعد الخلفيّ. ختم سيدريك «يجب أن يكون المرء شرطيّا ليقف على هشاشة الشهادة»، وهي جملة غالباً ما يردّدها، غير آبه للتكرار. جملة لا تمنح أيّ أفقٍ للنّظر، لكنّه كان يطمئنّ لنبرتها الشموليّة.

أُنجز تحليل تسجيلات كاميرات المراقبة التي تغطّي مدخل المشاة على وجه السرعة. كان ثمّة أمر مؤكّد، وهو أن الطفلة لم تمرّ من هناك. وبالتالي، بقيت فرضيّة عمليّة خطف في سيّارة هي المرجّحة، ما لم تكن الفتاة محتجزة داخل المجمّع السكنيّ، وهو أمر لم يكن من الممكن استبعاده في تلك المرحلة لعدم تفقّد كلّ الشقق.

بعد الظهر، عاد سيدريك إلى المكتب أقلّ إحباطاً بقليل بعد جلسة إحاطة جديدة. فعمليّة معاينة الجوار بدأت تعطي ثمارها. لم تكن عائلة ديور محطّ إجماع وكانت الشائعات منتشرة.

«إنّني واثق من أنّ ذلك سيعجبك»، أعلن لها.

رفعت كلارا حاجبيها متلهّفة.

«يبدو أن عائلة ديور تعيش في عزلة، لنقل إنّهم لا يخالطون كثيراً. في البداية، كانوا يشاركون في حفلات الجيران، في اللقاءات حول كأس، في كل الأمور الجماعيّة، لكن مع النجاح، انغلقوا شيئاً فشيئاً على أنفسهم. اشترى معظم سكان المجمّع شققهم وهي لا تزال تصاميم في التسعينات، كان المشروع العقاري يعتبر على قدر من الفخامة. قبل سنتين أو ثلاث سنوات، اشترت عائلة ديور الشقة الصغيرة الملاصقة لتحويلها إلى إستديو تصوير. يقول البعض إنهم لن يبقوا هناك. ميلاني أصبحت متعجرفة، ولم تعد شاتني مالابري راقية بالمستوى الذي يليق بها. يبدو أنهم اشتروا منزلاً في الجنوب بهدف العيش فيه ذات يوم. وردنا كلام أيضاً عن شقّة في الجبل، أقرّ لك بأن الناس يبدون مطّلعين بشكل جيّد. منذ سنتين، لم يعد سام وكيم يلعبان إطلاقاً مع سائر أطفال المجمّع. والدتهما لا تحبّ أن يختلطا بالآخرين، والأهمّ أنهما يقضيان كلّ وقت فراغهما على ما يُقال في تصوير مقاطع الفيديو تلك الشهيرة. قبل بضعة أشهر، سرت شائعات على الإنترنت وفي الحيّ في آن، بأنّ سامي تعرّض للتنمّر. كان أطفال يسخرون منه ويعنّفونه، يُقال حتّى إنّهم ابتزّوه. يبدو أن ميلاني نفت ذلك في فيديو على قناتها. لكنّ الجيران يروون أنّ هذا كان السبب خلف تغيير مدرسته. مهما يكن، فإن الولدين التحقا منذ العام الماضي بمدرسة خاصة في سو. كلّ يوم، تصطحبهما ميلاني وتعيدهما إلى المنزل في السيّارة. محبوبة القناة على حدّ قول البعض هي الطفلة. كان عمرها عامين ونصف عندما بدأت المسألة، كبرت تحت أنظار المشتركين، إنّهم مولعون بها. يبدو أنها توقّع صوراً أكثر من شقيقها

خلال توزيع الإهداءات، وأن المعجبين يتهافتون بأعداد أكبر عليها لالتقاط صور سيلفي. الاستطراد من هنا والتصوّر أنّه أراد التخلص من شقيقته... حادث... في الثامنة من العمر، تفهمين ما يعني ذلك، إلى أي مدى يمكن أن يصل البعض في تلميحاتهم. الأمر الأكيد، أن لا أحد في المبنى السكنيّ يجهل من هم وما يدرّ ذلك عليهم.

غادرت كلارا الباستيون في حوالي الثامنة مساء. وكما في غالب الأحيان، عادت إلى منزلها مشياً. ساعة من المشي، تفضّلها على زحمة الخطّ ١٣. كانت بحاجة إلى التقاط أنفاسها.

فيما كانت تتقدّم بخطى سريعة، خافضة نظرها، مستعرضة في ذهنها آخر المعلومات الواردة من قاعة الأزمة، توقّف رجل قادم في الاتجاه المعاكس ليدعها تمرّ.

«كم عمرك؟» بادرها وكأنه يخاطب طفلة.

تسمع في الشارع كلاماً غريباً عجيباً، سخيفاً أحياناً، وأحياناً أخرى يحمل دلالة. سبق أن اختبرت ذلك. كلام لا بدّ من تقبّل أبعاده أو أصدائه. ذات مرّة، استوقفها رجل بدت نظرته مشوّشة، تائهة، وكأنّه يعاني اضطرابات نفسيّة، ليسألها «بربّك، أين أهلك؟» ومرّة أخرى، بعدما سمحت لامرأة أن تسبقها في صفّ الانتظار عند صندوق المحاسبة في متجر، بادرتها المرأة بنبرة لا تقبل المزاح: «أنت ترين من خلال النفوس».

كانت تتساءل دائماً في مثل هذه المواقف إن كان ثمة فيها ما

يحث الآخرين على التطفّل أو التعليق، أم أن هذا النوع من المواقف يحصل للجميع، ويتكرّر معها بمجرّد الصدفة.

في العتمة، كان الآخرون يخالونها من بعيد فتاة مراهقة. أو طفلة. وعندما يقتربون، يكتشفون امرأة بالغة مهمومة العينين.

في الثالثة والثلاثين من عمرها، كانت تشعر أنها في منزلة بين منزلتين. لم تكن شابّة، ولا مسنّة. كيمي ديور عمرها ستّ سنوات. في السادسة، هي طفلة صغيرة. صغيرة وهشّة للغاية. في الصور التي وفّرها والداها، يمكن رؤية وجهها النضر، ملامحها المتّسقة، عينيها الواسعتين مثل عيون شخصيّات رسوم المانغا. اختفاؤها يضع الفرقة تحت ضغط خانق. كان الجوّ مشحوناً باضطراب محموم، توتّر شديد. ربّما لأنّ معظم زملائها لديهم أطفال. ولأنه خطر للجميع ولو مرّة على الأقل «ماذا لو حصل ذلك لي؟».

حين كان توما لا يزال يقيم في باريس، سألها مرّة فيما كانا يمشيان جنباً إلى جنب إن كانت تفكّر في أن تكون لها حياة عائليّة يوماً ما. تلك كانت الكلمات التي استخدمها، وابتسمت لذلك التعبير، لا سيّما وأنه صدر عن رجل كان يثير إعجابها بحريّته، أقلّه ما يظهر منها، حريّة الكلام والحركة، حرية مخالفة التيّار. إزاء إصراره، قالت كلارا في نهاية المطاف إنها لا تريد إنجاب طفل، لا. في هذا العالم الذي يتهيّأ لها أنها تكشف فيه كلّ فخّ، كلّ طريق مسدود، كلّ كارثة قادمة، كان ذلك نقطة ضعف، خطوة طائشة عدلت عن الإقدام عليها. ثمّ إن الأطفال على غرار الأهل يموتون، هي تعرف ذلك

حقّ المعرفة، ولا تريد أن يكون لها أي دخل شخصيّاً في قصّة من هذا النوع لما تبقّى من حياتها. كانا قبل ذلك تضاجعا في منزله، في تلك الشقّة تحت السطح حيث كانت تشعر بنفسها قويّة ومتحرّرة للغاية، ومرغوبة، ولمحت للحظة ظلَّ خاطرٍ في عيني توما. لم يكن لوماً، ولا حتّى خيبة، بل ربّما بداية مسافة.

واصلت كلارا طريقها من دون أن تجيب الرجل الذي بادرها.

عندما وصلت إلى حيّها، توقّفت عند متجر صغير لشراء بعض الطعام، «عبوة أو علبة، قالت لنفسها، أيّ شيء يكفي أن أزيل الغطاء عنه»، مدركة أنّها تنساق إلى صورتين نمطيّتين، صورة الشرطيين المنعزلين، ولو أنها ليست مطلّقة، وعزّاب المدن، رغم أنّها تطبخ في الظروف «العاديّة».

فور الوصول إلى شقّتها، استحمّت، بدّلت ملابسها، ثم شغّلت حاسوبها المحمول. كان الليل بكامله أمامها، وكانت تريد أن تفهم.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

الموضوع:

وصف (من حيث النوع) لفيديوهات قناة «الاستراحة السعيدة» المتوافرة على يوتيوب.

### فتح العلب

(ما يصل إلى عشرين مليون مشاهدة)

يقوم الشقيق والشقيقة، جالسين عادة جنباً إلى جنب، بفتح علب «مفاجآت» وكأنّها أتتهما من السماء.

يرشدهما صوت ميلاني اللعوب والمندفع خطوة خطوة في عملية فتح العلب: «هيا، نفتحها تماماً!»، «ماذا هناك في الداخل؟»، «آه، أرى شيئاً آخر أيضاً في الداخل...»، «ما هذه العلبة الصغيرة الخضراء؟»، «الآن سنضع البطّاريّات!»، «آه، بالإمكان اللعب بلوحتي التحكّم، هذا رائع فعلاً!».

يبدي الطفلان إعجابهما وفرحتهما. «آه! كم أن هذه العلبة كبيرة!»، «هذا هائل، لا يُصدّق!»، «واو!».

بعد الانتهاء من فتح العلب، يقوم كيم وسام باختبار الأدوات أو ألعاب الطاولة أو ألعاب الفيديو.

من العبارات التسويقيّة التي يكرّرها سامي «هذا جنون!».

من العبارات التسويقيّة التي تكرّرها كيمي «لا أصدّق!».

كان الملل يتّخذ أشكالاً عجيبة، يتخفّى. الملل يختبئ، رافضاً الظهور بوجهه الحقيقيّ. عند ولادة سامي، وبعد انقضاء الليالي المتقطّعة ما بين إرضاع الطفل وصحواته المتكرّرة، وفي حين بدّلت تسريحة شعرها وخسرت بعض الكيلوغرامات واستعادت لياقتها البدنيّة، باختصار بينما بدا أنّ حياتها عادت إلى ما يشبه وتيرة اعتياديّة، أخذت ميلاني كلو تبكي. كان هذا يحصل لها في غالب الأحيان في الصباح، بعد دقائق على رحيل زوجها. لاحظت أن حياتها تجري وفق تعاقب رتيب يخلو من المفاجآت. كان ذلك يطمئنها بصورة عامّة، لكنه يبعث فيها في بعض الأيّام نوعاً من الدوار، غثياناً. في الساعة الثامنة، كان برونو يلعب مع الطفل قليلاً، وفي الثامنة وخمس أو عشر دقائق، يلقي نظرة إلى ساعته، يقول «يا إلهي، عليّ أن أنطلق»، يقبّلها، يتناول المعطف أو واقيَ المطر ويصفق الباب خلفه. عندها يتملّكها إحساس بأنّ جسدها يهوي في الفراغ، لم يكن الفراغ الكبير، بل ما يشبه ثقباً بائساً مخفيّاً داخل شقّتها. كانت تحاول بدورها أن تلهو مع ابنها الذي كان يبدي ولعاً

بدمى الأصابع المتحرّكة، ثمّ تمدّده في سريره المحاط بقضبان ليأخذ قيلولته الصباحيّة. بعد ذلك، تعود ميلاني إلى المطبخ، تزيل بقايا الفطور عن الطاولة، تمسحها، تشغّل الجلّاية، ثمّ تجلس مستسلمةً على كرسيّ وتبكي حوالى عشرين دقيقة. لاحقاً خلال النهار، يصدف أن تبقى واقفة بلا حراك في الصالون، مدلّية ذراعيها. حين يكون الطفل نائما أو يلعب وحيداً في كرسيه أو روضته المسوّرة، كانت تقف هناك، مسمّرة بلا حراك أمام النافذة، لم تكن تنظر إلى الخارج، لا تنظر إلى أي شيء، أو ربما إلى ذلك الامتداد الكئيب الموحش في داخلها. كان بإمكانها أن تبقى دقائق في هذه الوقفة، متجاهلة الأصوات القادمة من الخارج، رنين الهاتف أو صراخ سامي الذي يحاول لفت انتباهها. كان ثمّة في ذلك الشرود إحساس في غاية العذوبة، وكأنّها عائمة، إحساس أقرب إلى الهناء، تجد صعوبة متزايدة في الخروج منه. أحياناً كانت تحمل سامي إلى الحديقة الصغيرة، لكن حين تصل أمام البوابّة الحديد، تعدل عن الدخول. لم تكن تقوى على التحدّث إلى النساء الأخريات، نساء مثلها لا يعملن، أو مربّيات يلتقين كلّ يوم في الساعة ذاتها قرب حوض الرمل القديم. لم تكن لديها رغبة في التماهي مع ما يحيط بها، كم بالأحرى الانخراط في مجموعة، أيّا كانت. فكانت تواصل السير بخطى متسارعة، دافعة أمامها عربة الأطفال التي كانت تشقّ الهواء مثل سفينة تائهة تتقدّم على غير هدى. في تلك الأيّام، كانت تمضي حتّى منتزه سو، فتجوب ممرّاته حتى هبوط الليل، بحثا عن نشوة تملأ ذلك الفراغ المروّع.

قضت ميلاني كلو قسماً من فترة حملها تشاهد «ملائكة تلفزيون الواقع». حقّق الموسم الأوّل من البرنامج الذي تم بثّه خلال شتاء ٢٠١١ على إحدى شبكات التلفزيون الرقمي الأرضي، نجاحاً كبيراً. اختار الإنتاج لهذا البرنامج الجديد متبارين سابقين في برامج تلفزيون الواقع، تعرّفت على الفور بينهم إلى ستيفي، أحد أبرز وجوه الموسم الأوّل من «لوفت». لم يعد ذلك الفتى العشرينيّ البلاتينيّ الشعر الذي رأته في كلّ حالاته، يضحك ويبكي، بل واصل حياته وتقدّم في السنّ. أمّا الآخرون، فوقع الخيار عليهم بسبب أدائهم الملفت في «لوفت ستوري» أو «ليل دو لا تانتاسيون»، وكلّها برامج طبعت شباب ميلاني ولم تفوّت أيّاً من حلقاتها. مارلين، سيندي، ديانا، جون دافيد، تعرفهم جميعهم. سنحت لهم تلك الفرصة مرّة أولى، فشاهدهم الجمهور وأحبّهم، وها هي فرصة ثانية تُمنح لهم، انطلاقة ثانية، مناسبة لمواصلة مسارهم المهني أو توطيده. أمّا هي، ميلاني من «موعد في العتمة»، التي كان ظهورها أقصر من أن يترك أيّ أثر، فلم يأت أحد بحثاً عنها. لم يعرض أحد عليها أن تذهب إلى تلك الفيلا الرائعة في بيفرلي هيلز «من أجل أن تحقّق حلمها وتصبح شهيرة». فذلك كان وعد «الملائكة». هي لم تخطر في بال أحد، لأن الجميع نسيها.

حصلت على فرصتها، وأهدرتها. حين كانت تستذكر تلك الحلقة، وهو التعبير الذي تستخدمه ويتوافق جيّداً مع تصوّرها لحياتها هي نفسها، حياة تودّ لو تكون مقسومة إلى مواسم بالمعنى

التلفزيوني للكلمة، تتجزأ بدورها إلى حلقات، رغم رتابة لا يمكن إنكارها، حين كانت تستذكر الحلقة إذاً، كانت تعتبر أنها فشلت. لم يخطر لها مرّة أن يكون هناك سبب آخر لفشلها، سبب يرتبط بالدواعي الاقتصاديّة أو متطلّبات النظام الذي كانت تتوق إلى ولوجه. لا. لا يمكن أن تلوم سوى نفسها. تركت القطار يفوتها.

بعد عيد ميلاد سامي الأوّل بمدّةٍ قصيرة، وعملاً بنصائح برونو الذي كان يجدها حزينة بعض الشيء، فتحت ميلاني صفحة على فيسبوك. كان برونو مصرّاً على ذلك. فالموقع يلقى رواجاً هائلاً في فرنسا وكل أنحاء العالم، وحان الوقت لتنضمّ إليه. حتّى لو لم يكن لديها العديد من الأصدقاء، فهذا سيمكّنها من القيام بلقاءات والتواصل مع أشخاص كثيرين فقدت أثرهم. كرّست نفسها كثيراً للمنزل ولابنها، ولا بدّ لها الآن من الانفتاح على الخارج.

بعد وقت قصير، لم تعد ميلاني تبكي في الصباح، أو تبقى في منزلها تتأمّل الفراغ، أو تهيم في ممرّات المنتزه. باتت كلّ قيلولة، كلّ استراحة، مناسبة للدخول إلى صفحتها. أقامت علاقات جديدة، راحت تنشر صوراً، تعليقات، تضع لايكات على صور وتعليقات نشرها آخرون، ترى آخرين يعيشون وتظهر للآخرين بأفضل وجه. على مدى عدّة أشهر، كان ذلك كافيا لسدّ ذلك الإحساس بالفراغ. خاضت مناقشات مع أمّهات أخريات، تبادلت نصائح ووصفات طعام، تقرّبت من رابطة تناضل دفاعاً عن الرّضاعة الطّبيعيّة. بدا لها أنّها وجدت مكاناً لها في العالم، مكانا يكون لها وجود فيه.

في صبيحة أحد الأيّام، «رشّحتها» واحدة من صديقاتها الافتراضيّات للمشاركة في «تحدّي الأمومة»، وهو تحدّ قادم من الولايات المتحدة، موضوعه متعة الأمومة. كان المبدأ بسيطاً: عليها أن تنشر على شبكة التواصل الاجتماعي أربع صور تعبر عمّا «يجعلها تعتزّ بكونها أمّاً»، وأن تضع بعد ذلك إشارة «تاغ» لنساء من محيطها تعتبرهنّ أمّهات صالحات. كان سامي طفلا ظريفاً يقظاً مكتنز الخدّين، فوجدت ميلاني الفكرة رائعة. كما أنّها تستحقّ فعلاً لقب «أمّ خارقة»، بعد كلّ ما تتكبّده من عناء للتقيّد بالتعليمات المتناقضة أحياناً الواردة في المجلّات المخصّصة للطفولة والتي اشتركت فيها فور زواجها. وجدت في حاسوبها أربع صور بدا لها أنّها توحي بسعادة الأمومة: صورة لها على الشاطئ التقطها برونو أثناء حملها وسط نور رائع عند العصر، وصورة لسامي بعد ساعات من ولادته وعلى رأسه قلنسوة قطنيّة صغيرة فاتنة، وصورة لها على صدرها حمّالة الأطفال فيها سامي مستغرقاً في النوم فاغر الفم. وأخيرا، صورة حديثة يبتسمون فيها ثلاثتهم هانئين، جالسين مثل العائلة المالكة على أريكة الصالون. رتّبت الألوان لتكون منسجمة، فكانت الصور تشكّل لوحة متناغمة تحمل تدرّجات اللونين البنيّ والبنفسجيّ. تلقّت الكثير من التهاني.

منذ ذلك الحين، راحت ميلاني تنشر بانتظام صوراً لسامي في صفحتها على فيسبوك، صوراً تحصد عددا متزايداً من اللايكات وتعليقات المديح مع ابتكارها مشاهد وديكورات جديدة لتضع

طفلها في الواجهة. لم يكن غياب أي رغبة جنسيّة لدى ميلاني تجاه زوجها مسألة يتطرّق إليها الزوجان أبداً. كانت تحبّه، لكنّها لم تعد تودّ ممارسة الحبّ معه. وجدت في المنتديات شهادات كثيرة لنساء عرفن فترات مماثلة، يمكن تفسيرها على ما يبدو بانخفاض مستوى الهرمونات، أو استنفاد الحياة الزوجيّة، أو استثمار كل الطاقات في دور الأمومة على حساب دور المرأة، أو رتابة الحياة اليوميّة... وكانت تُعرض حلول مختلفة بحسب اختلاف طبيعة المشكلة، جميعها مدعومة بشهادات: قضاء عطلة نهاية أسبوع معاً، ارتداء ملابس داخليّة مثيرة، زيادة الوقت المخصّص للعلاقة الجنسيّة، استشارة اختصاصيّ في الجنس، اتخاذ عشيق.

وفي جميع الحالات، يرد التذكير بأنّه «مع الأكل تأتي الشهيّة».

حين حملت ميلاني من جديد، اضطرّت إلى البقاء ممدّدة بضعة أسابيع لتفادي ولادة مبكّرة. أصيبت بانقباضات كثيرة، ما أثار مخاوف طبيبها النسائيّ. فضّلت التغاضي عن هذه النكسة في صفحتها على فيسبوك، إذ لم تبدُ لها منسجمة مع تصوّرها لـ«أمّ خارقة». فـ«الأمّ الخارقة» يكون حملها خالياً من أي شائبة على الإطلاق، تعيد بنفسها طلاء غرفة الطفل وتعلّق الستائر فيها، متسلّقة سلّما ورافعة ذراعيها في الهواء، قبل ثلاثة أيّام فقط من الولادة. لكنّها تابعت التواصل على الشبكة الاجتماعيّة، بحثاً عن نصائح حول تقبّل الطفل البكر لشقيق أصغر أو شقيقة صغرى، أفضل أنواع مقاعد السيارة، مشكلات الأسنان الناجمة عن

استخدام المصاصة لفترة طويلة، أو مواضيع أخرى متباينة الأهميّة، هي تقرّ بذلك، وتستجيب خصوصاً لحالات محدّدة. كان الوقت يمضي سريعاً. أحياناً كانت تشارك في مناقشات حول الرضاعة أو سبل حضانة الطفل، لكنّ العدائيّة المتزايدة التي كانت تلاحظها على الشبكة الاجتماعية كانت تثنيها. لم تكن ميلاني تحتمل النزاعات. هي تحلم بعالم من التضامن والتبادل، عالم تكون ملكته.

قبل ذلك بعشرة أشهر، بعيد تقاعد والدها، غادر والدا ميلاني وسط المدينة للإقامة في منزل في الضواحي، على مسافة بضعة كيلومترات من لا روش سور يون. لم يكن البيت فسيحاً، لكنّ حوض السباحة الذي أقامه المُلّاك السابقون في وسط الحديقة كان حافزاً كبيراً خلف صفقة الشراء. كانت ساندرا، شقيقة ميلاني، متزوّجة من رجل شاب من أبناء المنطقة، رجل وسيم، ابن وسيط تأمين وهو نفسه وسيط تأمين. نادراً ما كانت والدة ميلاني تأتي إلى المنطقة الباريسيّة، وباتت زياراتها نادرة أكثر بعدما أنجبت ساندرا ثلاثة أطفال في أقل من سنتين: توأمان أولاً، ثم بعد أربعة عشر شهراً طفلة. كان والدا ميلاني جدّين مغمورَين بالسعادة، ينشران صوراً كثيرة لأحفادهما على فيسبوك. صور حافلة بالألوان والبهجة، التقطت حول حوض السباحة أو في ملعب الغولف المصغّر، أو في حلبة التزلج على الجليد، أو في الغابة. كانت المنشورات تُظهر جدّين مثاليين، مفعمين بالحيويّة، حاضرين في حياة أحفادهما، لديهما متّسع من الوقت لهما. لكنّهما للأسف لم

يعرضا مرّة على ميلاني استضافة سامي، بحجّة أنّه كان يتشاجر مع كيليان، أحد ولدي ساندرا. الحقيقة أن كيليان كان طفلاً ماكراً متسلّطاً. رغم ذلك، كانت ميلاني تمتنع عن التطرق إلى المسائل بهذه الطريقة الفجّة. على مدى ثلاث سنوات، لم يستقبل والداها ابنها سوى مرّة واحدة، أثناء عطلة نهاية أسبوع مطوّلة، تشكّيا بعدها بأن سامي كان يتذمّر من الطعام ولم يكن يبدو فرحاً. لم يعاودا الكرّة بعد ذلك. كان ذلك انتصار جديد لشقيقتها. لطالما حقّقت ساندرا تطلّعات والدتها، في كل المجالات وعلى كلّ الجبهات. فهي كانت ترقص في مقدّم صفّها خلال عروض نهاية السنة، وتراقب الصفّ حين تتغيّب المعلّمة، وتتولّى أحد الأكشاك خلال احتفال المدرسة، وتبتسم بتهذيب أمام الضيوف. حتّى إنّها عثرت على زوج قادر على التفاهم مع والدهما، وهو بحدّ ذاته إنجاز، إن لم يكن معجزة. كانت شقيقتها ماهرة، سواء في الخياطة أو خبز الحلويات، وصولاً إلى الديكور الداخلي. كلّ ما كانت ساندرا تقوم به كان يبدو منجزاً على أفضل وجه. وإضافة إلى كلّ ذلك، بقيت هناك على الدوام، في مكانها، قرب أهلها. «هي لم تمدّ يوما رجليها أبعد من بساطها».
حين كانت العائلة تجتمع في عيد الفصح أو عيد الميلاد، كانت والدة ميلاني تبدي دائماً فرحة أكبر لرؤية شقيقتها. كان مجرّد تباين غير ملحوظ، درجة أعلى في صوتها، حركة أسرع، أكثر عفويّة بجسدها، لكن لم يكن بوسع ميلاني تجاهل هذا الفرق في المعاملة، هذا القدر الإضافي من الاندفاع والحرارة. بات اكتشاف صور أولاد شقيقتها التي تنشرها والدتها بصورة شبه يوميّة على فيسبوك، معاناة حقيقيّة

لها، حتّى إنّها كانت تبكي أحياناً أمام حاسوبها. لكن ألّا تعرف شيئاً أو ترى شيئاً كان أسوأ.

اختارت ميلاني ألّا تخبر والدتها عن صعوبات أواخر حملها. فلو أنّها أخبرتها، لوجدت حجّة حتّى لا تضطرّ إلى القدوم لمساعدتها، ولما كانت فوّتت الفرصة لمقارنتها بساندرا التي تبقى نشطة ومشرقة في حملها.

كانت ميلاني تواصل تصفّح فيسبوك على هاتفها الجوال وهي ممدّدة. ما بدا لها قبل بضع سنوات بمثابة واحة تقاسم ومواساة، بات الآن يبعث فيها كآبة مبهمة.

اكتشفت ميلاني يوتيوب بعد بضعة أسابيع على ولادة كيمي، فيما كانت تقوم بأبحاث حول الصعوبات التي عانت منها بعد عمليتها لبضع الفرج. كانت أمّهات مثلها يتقاسمن تجاربهنّ في مقاطع فيديو. كنّ يصوّرن أنفسهنّ أمام عدسة هاتف جوّال أو كاميرا صغيرة، ويخبرن قصصهنّ كما في غرفة الاعتراف في «لوفت» أو برنامج آخر من تلفزيون الواقع. اشتركت ميلاني في قناتين أو ثلاث. تلك الأمّهات يشبهنها، هنّ في العمر نفسه، ولهنّ المشاغل نفسها. كنّ جميلات يعتنين بمظهرهنّ. رؤية تلك النساء الشابّات بمكياجهنّ الجميل وأظافرهنّ المطليّة وشعرهنّ الأملس اللمّاع، كانت تبعث فيها سروراً بسيطاً آنيّاً، ونوعاً من العزاء. بعضهنّ كُنّ يعطين نصائح مفيدة أو يعرضن وصفاتهنّ. كانت ميلاني تجد متعة في توزيع اللايكات وتهنّئهنّ مستخدمة الرموز التعبيريّة: رمز برافو،

رمز شكرا، زهور، زهور، زهور، قلب، قلب، قلب. كانت تجد في هذه النساء جسارة ومواصفات مؤثرة. تستمدّ منهنّ الشجاعة لخوض نهارها. اكتشفت ميلاني بفضل خوارزمية الشبكة قنوات جديدة ومقاطع فيديو جديدة. كانت تهوى كلّ ما هو «حقيقيّ»، كلّ ما يروي حيوات شبيهة بحياتها، ويمكن أن يجعلها تشعر بأنّها أقلّ عزلة. الخوارزميّة أدركت ذلك جيّداً. شيئاً فشيئاً، أهملت حسابها على فيسبوك لتركّز على يوتيوب الذي بدا لها منفتحاً أكثر وخلّاقاً أكثر.

كان يوتيوب عالماً مغايراً. عالم سخيّ ومتاح للجميع، صدفة سعيدة في حياتها.

كان سامي بدأ للتوّ يذهب إلى الحضانة، وكيمي كانت طفلة هادئة تنام كثيراً. كان الحاسوب يبقى مشغّلا من الصباح إلى المساء، تجلس ميلاني أمام الشاشة عدّة مرّات في اليوم، وفي غالب الأحيان بدون هدف محدّد، فتتصفّح المنصّة، تنتقل من اقتراح إلى آخر، وفي نهاية المطاف، تجد على الدوام معلومة، صورة، قصّة تثير اهتمامها.

عقب عيد ميلاد كيمي الثاني بقليل، اكتشفت ميلاني «فريق الحافلة الصغيرة». كان والد الطفلتين، المنفصل على ما يبدو عن والدتهما، أنشأ قناة مخصّصة لهما، يتابعها عدد من المشتركين يزداد يوماً بعد يوم. المسألة برمّتها بدأت بفيديو للفتاة البكر تزيل الغلاف عن سكاكر من كلّ الألوان وقطع حلوى أخرى من العلامة ذاتها وتتذوّقها، جمع على الفور بضع آلاف المشاهدات. ثمّ انضمت الفتاة

الصغرى إلى شقيقتها، وضاعف الوالد جلسات فتح علب الهدايا، فازداد عدد المشتركين. كانت الفتاتان المدلّلتان بشكل متزايد، تمرحان كثيراً على ما يظهر في المشاهد.

اكتفت ميلاني على مدى أشهر بدرس كيف كان ذلك الوالد يصوّر طفلتيه، بأي وتيرة ووفق أي سيناريوهات. ما ينجح، وما لا ينجح. ما يعجب الأطفال إلى حدّ أنهم يشاهدون الفيديو ذاته عشر مرّات حتماً، وما يعجبهم أقل. استكملت أبحاثها بجولة على ما يمكن العثور عليه في أماكن أخرى، ولا سيّما في الولايات المتحدة والدول الناطقة بالإنكليزيّة، حيث العديد من قنوات الأطفال.

لم تكن كيمي بلغت عامها الثالث حين نشرت ميلاني أول فيديو لها على المنصّة. وكانت أثناء ذلك طوّرت استراتيجيّتها الخاصة. لا بدّ من التقدّم ببطء، إنشاء رابط، علاقة تماثل، قبل التفكير في إدخال العلامات التجاريّة والمنتجات. لذلك بدأت أولاً بتصوير كيمي مرتدية فستانا بنفسجيّا جميلاً، جالسة برزانة على الأريكة، تنشد أغنية للأطفال علّمتها إيّاها ميلاني. كانت الفتاة تؤدّي إيماءات في تناغم تامّ مع الكلمات: الأرنب وأذناه الطويلتان، الصيّاد الشرّير وبندقيّته. كانت فاتنة. بذلك المقطع البالغة مدّته خمسين ثانية، كانت ميلاني تتقاسم لحظة حميمة، لحظة عائلية مؤثرة. نشرت الفيديو مع تعليق قصير: «فتاة تغنّي وتؤدّي *الأرنب والصيّاد*». جمع الفيديو بضعة آلاف المشاهدات. شجّع ذلك ميلاني فواصلت تصوير ابنتها تغني: «طيري طيري يا عصفورة»، «عندي بيسي اسمها سيسي»، «في البحر

سمكة». كانت كيمي تتكلّم وتغنّي ببراعة قياساً إلى عمرها. كانت تلفظ الكلمات بشكل ممتاز وترفق الأغنيات بإيماءات وحركات ظريفة. بعد ذلك، خطرت لميلاني فكرة بارعة، هي أن تعطي كيمي دمىً، دبدوباً أو كلباً أو أرنباً، لتجسيد الأغنيات التي تؤدّيها أمام الكاميرا. كانت كيمي تلعب بالدمى المحشوّة، تمنحها أدواراً، تجعلنا تتكلّم. انتظرت ميلاني حتى تخطّى عدد المشتركين عشرين ألفا لتنشر أولى مقاطع الفيديو لفتح علب تحتوي على شتّى الهدايا من بيض شوكولا فيه مفاجأة، أو سكاكر تشوبا تشوبس، أو معجون بلاي دوه. بعد قليل، بدأ سامي أيضا يظهر في الفيديو، وبعدما كان اسم القناة «كيم المغنّية» أصبحت «كيم وسام في الاستراحة السعيدة».

كان الشقيق والشقيقة يشكّلان فريقاً رائعاً. كان سامي يبدي مراعاة كبيرة لكيمي، فيحميها ويساعدها على فتح العلب وإزالة الأغطية، يشرح لها كيفيّة اللعب، يعلّمها الإشارات والأغنيات. كانت كيمي تتظاهر بأنها مثل الكبار، تقلّد شقيقها وتضحك حين يروي لها طرفة. كانا ثنائيّاً فاتناً، بحسب التعليقات. بعد ذلك، تطوّرت الأمور بسرعة هائلة، فواصل عدد المشتركين والمشاهدات الارتفاع، ووجه يوتيوب رسالة خاصة إلى ميلاني يشرح لها مبادئ جني الأموال من الفيديوهات. واتّصلت بها العلامات التجارية للترويج لمنتجات، فبدأت الرزم تملأ الشقّة، وترك برونو وظيفته. لاحقا، تمكّنا من شراء الشقة الملاصقة لتوسيع أعمالهما وتخصيص غرفة كاملة لتصوير مقاطع الفيديو وتحريرها. أتاح هذا الأستديو

المدمج بالشقّة تحسين نوعية المقاطع. كان لا بدّ من التجدّد بشكل متواصل للبقاء في المرتبة الأولى.

لم يعد الملل سوى ذكرى سيئة من الماضي.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

مكتبة
t.me/soramnqraa

الموضوع:

وصف (من حيث النوع) لفيديوهات قناة «الاستراحة السعيدة» المتوافرة على يوتيوب.

### التحدّي

(ما بين مليونين وستة ملايين مشاهدة)

### علامة أو علامة فرعية

يتذوّق كيم وسام، جالسين جنباً إلى جنب معصوبي العينين أمام الكاميرا، مجموعة من المنتجات (جبن كريميّ، رقائق بطاطا، صودا، شاي مثلّج، معجون للشطائر، بسكويت على أنواعه).

ومن كلّ من هذه المنتجات، يتناولان عيّنتين، واحدة «صحيحة» والثانية «زائفة». وعليهما بعد ذلك أن يحزرا أيّهما من إنتاج العلامة التجارية الأصلية، وأيهما تقليد (علامة فرعية أو علامة موزّع).

هذه المرّة، يتعيّن على الشقيق والشقيقة المعصوبي العينين أن يحزرا مختلف النكهات أو الطعمات للمنتج نفسه. مقاطع الفيديو الأكثر شعبيّة تتناول ماركة أوريو ومختلف نكهات بسكويتها (الأصلي، الفانيلا، الشوكولاتة البيضاء، الذهبيّ، الفول السوداني...).

يتكرّر التحدّي ذاته بمنتجات عديدة (رقائق كراكر، كريمة تحلية، رقائق بطاطس) وعلامات تجاريّة عديدة.

كانت كلارا جالسة مقابل سيدريك، منتصبة الظهر، رزينة. كانت تودّ إطلاعه على كلّ ما جمعته من عناصر. لم تنم سوى ساعتين، لكنّها لم تكن تشعر بعد بمفاعيل التعب. بدأت بمشاهدة مقاطع الفيديو على «الاستراحة السعيدة»، ثم استكملت ذلك بأبحاث من أجل أن تُموضعها في سياق عامّ وتفهم كيف يُنظر إلى هذه الظاهرة. إن كان سيدريك يسخر باستمرار من ميلها إلى تحليل كلّ شيء وتفكيكه، من لغتها المتقنة واستخدامها المسرف لأدوات الوصل، فهو هذه المرّة ينصت إليها باهتمام حقيقيّ.

«في معظم الحالات، الأهل هم الذين يصوّرون أطفالهم وينشرون مقاطع فيديو عدّة مرّات في الأسبوع. انطلقت الظاهرة في الولايات المتّحدة وانتشرت في كل مكان خلال السنوات الثلاث الأخيرة، إذ تبيّن أن الأمر مربح، مربح جدّاً. اليوتوبر الذي حقق أكبر قدر من العائدات هذه السنة هو ولد أميركيّ عمره ثمانُ سنوات. اسمه راين، ويصوّره والداه منذ أن كان في الرابعة. قدّرت

مجلّة فوربز دخله للعام ٢٠١٩ وحده بستّة وعشرين مليون دولار. في فرنسا، تعود المحاولات الأولى إلى ٢٠١٤ و٢٠١٥. هناك اليوم قنوات عديدة. من الناحية المالية، تتقاسم حوالى عشر منها السوق. لم تكن «الاستراحة السعيدة» الأولى، لكنّها أصبحت الأكثر شعبيّة، وبفارق كبير».

«والأطفال، ماذا يفعلون؟».

«بالأساس، يفتحون علباً. يُعرف ذلك بكلمة «أنبوكسينغ»[1] بالإنكليزيّة. يفتحون علباً، رزماً، يكتشفون ألعاباً، سكاكر، أزياء تنكّر، شتّى أنواع المنتجات الموجّهة إليهم، يبدون إعجابهم ويختبرونها أمام الكاميرا وهم يشاطرون فرحتهم».

«تتكلّمين بجدّيّة؟».

«طبعاً. الأهل يصوّرون، إما الأم أو الأب، بحسب الحالات. في عائلة ديور، الأم هي التي تتفاعل مع الولدين. ومع مرور الوقت، تنوّعت المضامين، سعياً للإبقاء على المشتركين. صارت تحدّد لهم تحدّيات، تبتكر سيناريوهات صغيرة. على الولدين مثلاً أن يتذوّقا موادّ غذائيّة باللون البرتقالي أو الأخضر حصراً، أن يحزرا سعر المنتجات في سوبرماركت، أو يقارنا معصوبي العينين بين معاجين لدهن الشطائر من علامات مختلفة. منذ حين، باتوا يصوّرون أيضاً مقالب. إنها مزحة أو حيلة مضحكة، غالباً ما تكون منسوخة عن قنوات أميركيّة».

---

(١) اسم الظاهرة بالانكليزية unboxing.

صمت سيدريك لوقت قصير، ثمّ سأل:

«ما تقولينه هو أنهم يكسبون هذا القدر من الأموال بهذه الطريقة؟ أنت متأكّدة من ذلك؟».

ابتسمت كلارا من غير أن تتمالك نفسها. هي أيضا عرفت هذا الشعور. مثله، لم يكن بوسعها أن تصدّق.

«أجل، إنّني متأكّدة. اعتباراً من عدد محدّد من المشاهدات، يبدأ يوتيوب بإدراج إعلانات في مقاطع الفيديو، وعلى أساسها يدفع مبالغ متناسبة لليوتبرز. كما يأتي المال أيضاً من العلامات التجارية التي تدفع لقاء ظهورها في مقاطع الفيديو. هي لا تكتفي بتقديم المعدات، مثل ألعاب ليغو أو مجسّمات لشخصيّات ديزني أو بيض كيندر، بل يدفع بعضها للعائلة من أجل عرضها في الفيديو أو إظهارها في الصدارة. عندها يكون التعاون بموجب عقد. أنشأت عائلة ديور عدّة شركات. إذا دخلتَ إلى موقع المعهد الوطني للملكيّة الصناعية، سترى أنهم قاموا بتسجيل وحماية كلّ أسماء العلامات التجارية التي يمكن تصوّرها حول اسمي ولديها. الأب الذي كان لديه وظيفة جيّدة في المعلوماتية، ترك عمله. واليوم، هو الذي يصوّر المقاطع ويتولّى المونتاج».

«و... يصورون الكثير منها، من مقاطع الفيديو هذه؟».

«فيما يتعلّق بالاستراحة السعيدة، معدّل اثنين إلى أربعة في الأسبوع. يجب الحفاظ على الحضور».

كان سيدريك بيرجيه يستمع إلى كلارا باهتمام شديد، مكتفياً بين الحين والآخر بهزّ رأسه مؤيّداً. أشار إليها بيده لتشجيعها على مواصلة عرضها.

«لا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. على صعيد الاستغلال التجاري، فإن تنويع الأنشطة في توسّع. أنشأ آل ديور مؤخّراً علامتهم التجاريّة الخاصّة للقرطاسيّة من دفاتر ومدوّنات وأقلام حبر، يتولّون بأنفسهم الترويج لها. «فريق الحافلة الصغيرة»، القناة الرئيسيّة المنافسة لهم، أطلقت مجلّة فصليّة تباع بأعداد هائلة. و«زمرة الدباديب» دشّنت للتوّ علامة ألعاب. تشكّل المنتجات الفرعيّة حصّة كبيرة من الإيرادات، والجميع مصمّم على الاستمرار في تطويرها. فيما يتعلّق بعائلة ديور، فإن عائداتها السنويّة «تتخطّى» بكثير مليون يورو. هذا بدون احتساب المكاسب العينيّة».

كان سيدريك دوّن بعض الملاحظات على مفكّرته السوداء، مفكّرة جلديّة من الطراز التقليديّ لا تفارقه أبداً، يكتب فيها خربشات لا يمكن لأحد سواه فكّ رموزها. خطّ سطراً تحت جملة، ثم رفع عينيه ونظر إلى كلارا.

«لكن أين يذهب المال؟».

«يتقاضاه الوالدان. ولهما الحريّة في أن يفعلا به ما يبغيان».

«ألا يخضع هذا لتشريعات؟».

طرحت كلارا على نفسها السؤال ذاته قبل بضع ساعات.

هكذا يكون الشرطيّ، قالت لنفسها، تلك القدرة على وضع إصبعه على الجرح في الحال.

«ثمّة تشريعات للأطفال عارضي الأزياء والممثلين والمغنين، لأنّ نشاطهم يعتبر بمثابة عمل. تخضع ساعات العمل لضوابط، ويلزم الأهل بإيداع قسم كبير من المبالغ التي يكسبونها في حساب مجمّد لدى صندوق الودائع والأمانات[1] إلى حين بلوغ الأطفال السنّ القانونيّة. أما بالنسبة للأطفال يوتوبرز، ليس هناك أي قيود. إنه ما يعرف بالفراغ القانوني. في الوقت الحاضر، يعتبر هذا النشاط بمثابة هواية خاصة ولا يخضع لأي إطار كان».

«هذا جنون...».

«يبقى أنّهم لم يكسبوا صداقات فقط، كما قال لنا توم بريnديسي. «فارس النت»، اليوتيوبر الشهير الذي كلّمنا عنه، نشر منذ العام ٢٠١٦ عدّة مقاطع فيديو ندّد فيها بالقنوات العائليّة الأكثر نشاطاً. تندّد تلك التقارير بوتيرة التصوير التي يخضع لها الأطفال، وتطرح تساؤلات حول حرية الاختيار بالنسبة لهم. كان من أوائل مطلقي الإنذار. في تلك الفترة، جمعت العريضة التي طرحها على الإنترنت أربعين ألف توقيع، وتناقل يوتيوبرز آخرون انتقاداته. لكن عمليّاً، لم يحصل أي شيء. وحين أقول لك لا شيء، أعني لا شيء إطلاقاً. وهذا لم يمنع عدداً متزايداً من الأهل من استغلال هذه الثغرة، مع

(١) Caisse des dépôts et consignations مؤسّسة ماليّة عامّة فرنسيّة تقوم بنشاطات ذات مصلحة عامة.

أطفال أصغر وأصغر سنّاً. في العام ٢٠١٧، قام مرصد الأبوّة والتربية الرقميّة، وهي جمعيّة سبق أن حذّرت السلطات العامة بشأن المسألة، برفع القضية إلى المجلس الوطني لحماية الطفولة مطالباً بمنح هؤلاء القصّر على الأقلّ الوضع نفسه مثل الأطفال عارضي الأزياء أو الممثلين. وبعد أربع سنوات لم تُشنّ خلالها أي تشريعات من أي نوع، يبدو أن مسودّة قانون قيد الدرس وستُطرح قريباً على الجمعية الوطنية. الهدف هو إيجاد إطار يضبط الاستغلال التجاري للأطفال من قبل أهلهم واعتبار هذا النشاط بمثابة عمل».

صمتت كلارا لحظة، واستغرق سيدريك بعض الوقت لتدوين كلّ هذه المعلومات قبل أن يستأنف الحديث. كان حائراً، بدا ذلك جليّاً.

«وسائل الإعلام لم تتناول القضيّة؟».

«قليلاً، لكن هذا المجال برمّته يبقى ضبابيّاً إلى حدّ ما. إذا أُقرّ هذا القانون، ستكون فرنسا رائدة على المستوى الدولي. القانون قد يسلّط الضوء على بيئة كاملة تبقى في الوقت الحاضر خارج شاشات الرادار. لكنّ المعارضين يقولون إن هذا لن يغيّر شيئاً. بعض الأهل أقاموا منذ الآن قنوات ثانويّة أو حسابات على إنستغرام بأسمائهم الخاصة، وهو ما فعلته ميلاني، بهدف الالتفاف كما يُقال على القانون، في حين أنّه لم يتم التصويت عليه بعد».

قاطع سيدريك كلارا بإشارة من يده.

كان بحاجة إلى بعض الصمت حتى يتمكّن من تصوّر الأمور.

فهي تكلّمه عن عالم مجرّد، لا يمكن لمسه. كانت تحسن قراءة أفكار سيدريك على ملامحه، مزاجه، شكوكه، أدنى ظلّ من الامتعاض. حين جلس، حزرت أن ألم ظهره استيقظ. منذ خضوعه لعمليّة انزلاق غضروفيّ قبل بضعة أشهر، يعاوده الإحساس به حين يتخطّى مستوى معيّناً من الضغط النفسيّ. تمهّل سيدريك ليأخذ نفساً عميقاً، ثمّ بعد ثوانٍ تابع الحديث.

«وهي، ميلاني كلو، ما رأيها في كلّ ذلك؟».

«هي مدركة للانتقادات. صوّرت بعض مقاطع الفيديو حول هذا الموضوع. تردّ على الهجمات أمام الكاميرا. تقول إنها تدّخر مالاً لطفليها، إنّها لم تنتظر هذه السجالات لتفكّر في مستقبلهما. تقول إن كيم وسام كانا يحلمان بأن يكونا على يوتيوب، إنّهما مولعان بذلك، إنّهما سعيدان لأنّهما أصبحا نجمين. برأيها، هذه فرصة هائلة. لا بل أفضل ما يمكن أن يحصل لهما».

كان الألم ينتشر الآن إلى ضلوعه. التقط سيدريك كرسياً ليجلس. عند رؤية تعابير وجه رئيسها، اختتمت كلارا على عجل.

«ثمّة أمر آخر يجب أن أقوله لك. هذا الصباح، دخلت مجدّداً إلى حساب ميلاني على إنستغرام، «ميلاني دريم». إضافة إلى الستوريز الشهيرة، تنشر بانتظام صورا للطفلين أو للعائلة. قبل حوالى شهرين، نشرت صورة رزمة ضخمة تلقتها للتو من علامة مستحضرات تجميل. على العلبة، يمكن قراءة اسم عائلتهم، عنوانهم وحتى رقم المبنى. هذا يعني إذاً أن العالم بأسره يعرف أين يقطنون».

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

الموضوع:

وصف (من حيث النوع) لفيديوهات قناة «الاستراحة السعيدة» المتوافرة على يوتيوب.

### سلسلة «نشتري كلّ شيء»

(ما بين مليونين وعشرين مليون مشاهدة)

### «نشتري كلّ ما يبدأ بحرف الميم»

كيمي وسامي في السوبر ماركت وليدهما مهلة عشر دقائق لشراء كلّ ما يريدان بدون أي قيود، بغضّ النّظر عن سعر الغرض أو فائدته، بشرط أن يبدأ اسمه بحرف يتم سحبه بالقرعة، حرف «الميم» على سبيل المثال.

هدف اللعبة هو شراء أقصى حدّ ممكن من المنتجات خلال المهلة المحدّدة. والفائز هو الذي يكدّس أكبر عدد منها في عربة ميلاني.

بعد ذلك، تُنقل جميع المشتريات إلى المنزل (معكرونة، مكنسة، مايونيز، مقلاة، موز، مزرعة بلايموبيل، ملاعق، مشط)، بغضّ النظر عمّا إذا كانت العائلة تملك منتجات أو أغراضاً مماثلة أم لا، وسواء كانت مفيدة أم لا.

صيغ أخرى للعبة: أشتري كلّ ما هو أصفر، أشتري كلّ ما تكتبه، أشتري كلّ ما ترسمه، تشتري إن تحزر.

حين تشرح كلارا مهنتها، تقول «أوّلاً الدم، وبعده الكلام». أجل، الدم غالباً ما يكون هو البداية لكلّ شيء. دم الجثّة، دم الملابس، الدم الذي يلطّخ الأرض أو الجدران، أكان ظاهراً أو ممحيّ الأثر، الدم الذي يتعيّن تجفيفه، وضعه في مغلّفات مختومة، الدم الذي يترتّب البحث عن أثره، الدم الذي أرسل إلى المختبر، ودم عمليّة التشريح الذي يُجمع في سطول بلاستيكيّة. بعد ذلك تأتي العمليّة الإجرائيّة، ودقّة المعجم لوصف ما شاهدت.

هذه المرّة، لم يكن هناك دم. لكنّ هذا لا يكفي لطمأنتها. تسنّى لكلارا خلال حوالى عشر سنوات أن تتثبّت من أن الوحشيّة في غنى عن الكريات الحمراء. خلال إحدى قضاياها الأولى، ذهبت لمعاينة سيّدة مسنّة نُقلت إلى المستشفى في مرحلة متقدّمة من الاجتفاف ونقص التغذية. كانت كدمات تكسو ركبتيها. كان كلامها غير مفهوم وغير مترابط ظاهريًا، لكنّه حمل النيابة العامة على فتح تحقيق. اشتُبه بأن زوجين أربعينيّين كانا يحتجزانها منذ بضعة أشهر لتقاضي معاشها التقاعدي. شاركت كلارا في عمليّة

الدهم التي جرت في شقّة متواضعة، مترهّلة بعض الشيء، لم تكن القذارة فيها تظهر بصورة جليّة، بل بالأحرى في الزوايا. لا أثر لأي عنف إطلاقاً. فقط ذلك الوعاء البلاستيكيّ الموضوع أرضاً الذي لاحظت كلارا وجوده من غير أن يكون هناك أي حيوان أليف في المنزل. ذلك الوعاء الذي تبيّن أن الجلّادَين كانا يرغمان السيّدة المسنّة على تناول الطعام فيه كلّ مساء، راكعة أرضاً، قبل تركها تنام على حصيرة.

كانت كلارا تحبّ الأجواء المخيّمة على بدايات أي قضيّة. قلّة النوم، الشطائر التي تُلتهم على وجه السرعة وقوفاً، الهاتف الملتصق براحة اليد من غير أن يفارقها، العيون الشاخصة في الشاشات. ذلك الغليان، ذلك الانفعال المحموم. أحياناً تكون بضع ساعات كافية للإمساك بخيط، سواء شاهد أو شريط فيديو أو هاتف يتّصل ببرج إرسال في المكان المناسب. وبقليل من الحدس، يكون اقتفاء الخيط كافياً. عمليّة توقيف في الصباح الباكر، مداهمة، وها هي القضيّة أغلقت. لكن في غالب الأحيان، كانت الفرقة الجنائية تعمل على المدى البعيد. وكان يتعيّن الصمود. عندها يتحوّل غليان الساعات الأولى إلى ما يشبه نبضاً عصبيّاً منتظماً ومتواصلاً. طاقة نابعة من عمق الأعماق، من أقصى الباطن، من الأحشاء كما يقول البعض، طاقة لا تنضب.

بعد ستٍّ وثلاثين ساعة على اختفاء كيمي ديور، كانت كلارا على يقين بأنّهم دخلوا هذه المرحلة الثانية، مرحلة بلا أفق آنيّ.

لا بدّ من الإقرار بأن أيديهم فارغة. تحليل الاتصالات الهاتفيّة لم يعطِ نتيجة، ومعاينة الجوار اقتصرت على الأقاويل. عملاً بأحكام الحالات الاستثنائية، جرت زيارة كلّ شقق المركز. لم تفض عمليّة تثبّت شاملة نفّذها حوالى عشرة محقّقين إلى أيّ نتيجة. أما بالنسبة لضلوع توم بريندیسي، سواء منفرداً أو بمساعدة شريك، فتم استبعاده نهائياً. لا شكّ أن الفتى سينجو بجلده ولن ينال سوى تحذير على مقلبه الرديء.

أكدت شهادات الأطفال الآخرين وأهلهم إفادة سامي، ما أتاح تحديد توقيت دقيق للوقائع: في الساعة ١٧,٥٥، بدأت جولة غمّيضة جديدة. تردّدت الفتاة، دارت قليلاً، ثم ركضت إلى حجرة النفايات. من هناك، كان بإمكانها الخروج إلى المرآب من دون أن يراها أحد. عند وصولها إلى الطابق تحت الأرض، يُرجّح أنها صعدت في سيّارة، طوعاً أو عنوة، واعية أو غير واعية. سيّارة حمراء ربّما. أو بأي لون آخر.

تلك الفتاة التي كانت تُستعرض من الصباح إلى المساء، تلك الطفلة التي يمكن رؤيتها بالملابس الرياضية، بالشورت، بالفستان، بملابس النوم، متنكّرة في زيّ أميرة أو حوريّة أو جنيّة، تلك الطفلة التي تردّدت صورتها مضاعفة إلى ما لا نهاية، تلك الطفلة تبخّرت.

اختفت من العالم المكتظ بالعلامات التجاريّة والرموز الذي نشأت فيه، وكأنّ يداً خفيّة قرّرت فجأة حجبها عن الأنظار.

في مساء يوم اختفاء كيمي ديور، حين سألوا ميلاني كلو من قد

يكون ناقماً على عائلتها، ذكرت احتمالين: فارس النت ووالد الشقيقتين من «فريق الحافلة الصغيرة»، القناة الرئيسية المنافسة لـ«الاستراحة السعيدة». تلقّى الاثنان استدعاءً لاستجوابهما في مكاتب الباستيون. من جهة أخرى، بقي محيط الزوجين، عائلة ميلاني في لاروش سور يون وعائلة برونو في ضواحي باريس القريبة، تحت مراقبة لصيقة. وكانت جداول أعمالهم جميعاً وبيانات هواتفهم تخضع لعملية تثبّت شاملة. قضيّة الطفل غريغوري، الإخفاق القضائي المدوّي في الثمانينات، تركت آثارا لن تزول عن قريب.

أثناء قيامها بدورة تدريب في الرقم ٣٦، عملت كلارا مع الكابتن ج، واحد من أقدم وجوه الفرقة. بعد أكثر من أربعين عاماً في الشرطة الجنائية، وقبل أشهر قليلة من تقاعده، لم يكن الرجل يبخل لا بالنصائح ولا بالنوادر. عايش حقبة بلا حمض نووي ولا هواتف جوّالة ولا كاميرات مراقبة. حقبة كان التحقيق فيها يقوم على علم النفس والحدس والخبرة. وكان يهوى سرد قصص. لم تكن الأدوات المتاحة علمية بالقدر الذي هي عليه اليوم، وكان الاعتراف هو الإثبات. كان يقول «أتعرفين، التحقيق يتطلّب العودة إلى ساحة الجريمة. بلا ملل ولا كلل. المكان الذي جرت فيه الوقائع. حيث حصلت المسألة، حيث بدأت. العودة مراراً وتكراراً إلى موقع المأساة. حتى بعد رفع الأحراز، وحتى بعد تنظيف كلّ شيء، حتى بعد مضي سنوات».

أن تعود. تشتمّ. تنظر. حفظت كلارا الدرس.

لذلك، في مساء الحادي عشر من نوفمبر، قادت إحدى سيّارات الشرطة لتعود وحيدة إلى شاتني مالابري.

فوق مباني المجمّع الصغيرة، كان القمر يضيء السماء بنور شاحب. كانت الأشرطة البلاستيكيّة التي استُخدمت لتحديد منطقة البحث تتدلّى فوق الأعمدة. كان الليل حالكاً، وبعض المصابيح ترسم مسار الممرّات. المدخل إلى المرآب لا يزال محظورا. في وسط الحديقة، تنتصب الأشجار على شكل دائرة صغيرة تتوزّع داخلها المقاعد وكأنّها عشوائيّاً، على مسافة متباينة فيما بينها. جلست كلارا على أحدها. كانت عشرات النوافذ مضاءة من حولها. من هذا الموقع من الحديقة، بإمكانها رؤية جوف الشقق عبر النوافذ التي لم تسدَل ستائرها. كلّها بيوت متشابهة، حديثة وعمليّة: مطابخ مجهّزة، أرائك بمقعدين أو ثلاثة مقاعد، أجهزة تلفزيون مسطّحة الشاشة.

ذكّرها توزيع المباني بمسكن طفولتها. على مقربة، في ضاحية أخرى، عاشت في مكان يكاد يكون مشابهاً. أكثر شعبيّة بالتأكيد، غير أنّه كان يبدو هو أيضاً بمنأى عن العالم.

غالبا ما كانت كلارا تستذكر والديها، تحرّك ذكراهما صورة أو رائحة أو كلمة، فيتبادر إلى ذهنها أحدهما، أو بالأحرى كلاهما. وكأنّ وفاتهما الواحد تلو الآخر، بفارق زمني ضئيل للغاية، جمعتهما إلى الأبد. كانت تفتقدهما. تود لو تخبرهما عنها، عن عملها، تودّ لو عرفاها امرأة الآن. شرطية، أجل، إنّما شرطيّة كانت لتستحقّ اهتمامهما، وربّما حتّى احترامهما.

لا شكّ أنه من غير الاعتيادي، بل من المقلق في سنّها أن تفكّر إلى هذا الحدّ بوالديها. كان ذلك فراغاً، غياباً، أسفاً، لم تكن واثقة بأنها تريد فعلاً ملأه. انقطع الحديث معهما قبل أن ينضب الكلام. وبما أنها لم تعرف هي نفسها الأمومة، ربّما بقيت ابنة قبل أي شيء آخر.

جالسة على ذلك المقعد، مثلما كانت تفعل أحياناً في المساء حين كانت طفلة، مكثت قليلاً تراقب الناس من حولها، امرأة مسمّرة أمام فرنها، رجل يتحدّث إلى فتى، صبيّ يفرك أسنانه. ثمّ أغمضت عينيها منصتةً للأصوات المحيطة بها: صوت مذياع في البعيد، وبالقرب منها الحفيف المتواصل المنبعث من أوراق الأشجار المتناثرة على الأرض.

ماذا يعني أن يكون الواحد في السادسة من العمر؟

في سنّ السادسة، كان بإمكانها أن تبقى هكذا، جالسة في حديقة مبناها، تتأمّل حياة الناس. لم تكن تتخيّل شيئاً، وكانت تمتنع عن اختلاق أمور. تكتفي برصد العادات، التوقيت، الغياب المطوّل. تحاول كشف الروابط، المشاعر. وحين تصعد إلى المنزل، قدماها متجمّدتان من البرد ورأس أنفها أحمر، تفتح والدتها ذراعيها وتضمّها إلى خصرها، ثمّ تهمس لها في زفرة «صغيرتي الحشّورة». في السادسة، دخلت كلارا المرحلة الإعداديّة، في صفّ السيّدة فيديل. في السادسة، فقدت جدّها إيدي الذي قضى جرّاء سرطان في الرئة. في السادسة، حفظت عن ظهر قلب «التلميذ الكسول»، قصيدة لجاك بريفير. في السادسة، انحنت فوق درابزين الشرفة لالتقاط ربطة شعر

عالقة في الجانب الآخر من التعريشة، وهوت. سقطت من الطابق الثاني على عشب الحديقة، وقد خفّفت أغصان شجرة لحسن حظّها من حدّة سقوطها. أُغمي على الفتاة التي كانت تجالسها، واستدعى أحد الجيران رجال الإطفاء. في مستشفى أنطوان بيكلير حيث أُبقيت قيد المراقبة، نامت كلارا على مدى أربعٍ وعشرين ساعة. إنّه الخوف، كما أوضح الأطباء. كانت سليمة. بعد سنوات، حين تحتّم الإقرار بقصور نموّها، كان سقوطها السبب المرجح بين مختلف العوامل المطروحة. في السادسة، توقّفت كلارا عن النموّ. وسرعان ما أُطلقت عليها ألقاب وكنيات. فتفوتة، كتكوتة، جرثومة... رغم ذلك، كان فيها شيء، رزانة ربّما، أو هدوء ظاهريّ، يثني عن السخرية. عند انتقالها إلى المدرسة التكميليّة، عاودت النموّ. غير أنّها لم تعوّض تأخيرها يوماً.

تائهة في ذكرياتها، كانت كلارا جالسة هكذا منذ بضع دقائق، ظهرها منتصب ويداها موضوعتان على خشب المقعد، حين اقترب منها برونو ديور.

«هل يمكنني مساعدتك؟».

لم تجفل ولم تنتفض. اكتفت بالابتسام له.

بدا السؤال غريباً، من فم رجل اختفت طفلته. بعد لحظة من الارتباك، حاولت أن تشرح سبب وجودها.

«جئت للتثبّت من أمرين أو ثلاثة...».

نظر برونو من حوله، وكأنه يتوقّع أن ينكشف فجأة تفصيل بقي حتّى ذلك الحين خفيّاً، ثمّ التفت إليها مجدّداً بعينيه المتعبتين.

«تبدين متجلّدة، هل تودّين الصعود بضع دقائق لتتدفّئي؟».

تردّدت كلارا للحظة.

ليلة اختفاء كيمي، بقيت في الخارج لتنظّم عمل فرق الشرطة الجنائية العلميّة في مسرح الجريمة، ولم تتمكّن من رؤية الشقّة. تلك فرصة لن تتكرّر.

«هذا لطف منك»، أجابت وهي تنهض.

أطفأ برونو ديور عقب سيجارته على الأرض، لمّه، ثم أشار إليها بإيماءة مرتبكة أن تتبعه.

كان سامي جالساً في أريكة الصالون، حانياً رأسه فوق جهازه اللوحي. حين أُغلق الباب خلفهما، رفع الطفل رأسه، وثب على قدميه وهرع صوب والده. بدا في البيجاما القطنيّة وعليها صورة سوبر ماريو، أشبه بأي صبيّ في الثامنة، مفعم بالحيويّة والفضول. راح يحدّق في كلارا، فعرّفته عن نفسها.

«مرحباً سامي. اسمي كلارا، أعمل مع الشرطيّين الآخرين على قضيّة اختفاء شقيقتك الصغيرة».

ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الآليّة التي كانت تظهر في مقاطع الفيديو، لكن عندما اقترب، اكتشفت ملامح القلق على وجهه. كانت دائرتان بنفسجيّتان تحيطان بعينيه، وبشرته رقيقة إلى

حدّ تتراءى عروقه من خلالها. لاحظت طول رموشه. بعد خدر ساعات الانتظار المديدة، بدت الشقّة غارقة في خمول كثيف، وسط تدفئة مسرفة. بقي سامي واقفاً أمامها، ينقّل النظر من والده إلى كلارا، ثمّ من كلارا إلى والده، على أمل الحصول على معلومة أو أيّ جديد. فهي قادمة من الخارج، قادمة من الباستيون، ربّما لديها أخبار تعلنها لهم.

اقتربت ميلاني من ابنها ووضعت يديها على كتفيه كأنما لطمأنته أو حمايته. ألقت كلارا نظرة سريعة من حولها، بحثا عن زميلها من فرقة البحث والتدخّل.

استبق برونو سؤالها.

«زوجتي تجد الكثير من الصعوبة في تقبّل وجود المفاوض، لا دخل له بذلك إطلاقاً، من الصعب أن يكون هناك أحد طوال الوقت في المنزل، تعلمين... في ظرف كهذا. وبالتالي، يبقى زميلك على مسافة، وعند أول إشارة صادرة من الخارج...».

في هذه اللحظة بالذات، دخل إريك بولان إلى الصالون ليحيّي كلارا، مثبتاً أنه لا يغفل عن أي تفصيل. كانت تعرفه، انضمّ عدّة مرّات إلى مجموعتها للمساندة في أوضاع أزمة أو خلال توقيفات حسّاسة. تبادلا بعض الكلام، ثمّ توارى من جديد.

لا شكّ أن الزوجين ديور كانا يبدوان في لوعة وقلق. «بعض الآلام لا يمكن افتعالها»، فكّرت كلارا، غير أنها انقبضت في الحال

إذ راودها خاطر مخالف: أي عنصر في الشرطة القضائيّة يعرف كم أن المظاهر خادعة. تبادرت إلى ذهنها صورة زوج أليكسيا دافال منهاراً من شدّة الحزن، ينتحب بجانب والدي زوجته، في مشاهد تناقلتها جميع النشرات الإخباريّة التلفزيونيّة. وبعد بضعة أشهر، اعترف بعد محاصرته في زاوية، بأنّه قتل زوجته وأحرق جثّتها.

عرض عليها برونو أن تجلس، ثمّ ابتعد ليعدّ الشاي. بادر سامي على الفور إلى الجلوس بجنبها. سألها بنبرة غريبة كأنها محمّلة بتلميحات مبطّنة:

«هل تودّين رؤية غرفة كيمي؟».

وقف مترصّداً عند مدخل الممشى من غير أن ينتظر الجواب.

لم يسبق لكلارا أن رأت هذا الكمّ من الحيوانات المحشوة والدمى والديكورات وألعاب الطاولة ولوازم النشاطات اليدويّة والمعدّات الرياضيّة، مكدّساً في غرفة طفل. كانت المساحة مكتظّة مثل محلّ ألعاب. وقف سامي في وسط الغرفة على غرار سمسار عقاريّ شاب، متتبّعاً عينيها، مترصّداً ردود فعلها، جاهزاً لإعطائها التوضيحات الضروريّة. كان الجوّ يعبق برائحة فانيلا. قبل أن تكتشف القوارير العديدة المصفوفة على الرفوف، خطر لكلارا أنّها رائحة كيمي، مثل بصمة سكّريّة تبقى منتشرة في الجوّ رغم غيابها.

بعد جولة أفق أوّليّة، تقدّمت داخل الغرفة. خلف ستارة النافذة كانت تنتصب تلّة من المنتجات المختومة، ألعاب وعلب وصناديق

صغيرة لم تُفتح بعد. شرح لها سامي أنّه لم يعد هناك مساحة لتوضيب الأغراض، وتأكيداً على كلامه، فتح الخزائن. اكتشفت كلارا في الدولاب كميّة هائلة من الملابس المثنيّة بترتيب والمكدّسة بعضها فوق بعض، ومعظمها لم يتمّ ارتداؤه مرّة على ما يظهر. في الأسفل، كومة من الأحذية الرياضيّة الجديدة، حوالى عشرين زوجاً. دفع سامي من جديد الأبواب الجرّارة، وجالت كلارا بعينيها في الغرفة بحثاً عن مساحة فارغة.

«أترين؟ لدينا الكثير من الأغراض»، ختم متنهّداً.

على مكتب كيمي، كانت عدّة علب من أقلام اللباد وأقلام التلوين وما لا يقلّ عن ثلاث حقائب رسم موضوعة فوق بعضها. عند طرف الطاولة، رصدت كلارا رسوم الطفلة والتي صوّرها زملاؤها. وفوق الكدسة، جنيّة صهباء تقود جرّافة.

قرب السرير، كانت عشرات الدمى المحشوّة الجديدة تتراكم داخل وعاء أشبه بحوض كبير.

حاولت كلارا لبضع دقائق أن تتصوّر كيمي في وسط هذه الغرفة المكتظّة بأغراض يبدو كلّ منها وكأنّه منسوخ أو مضاعف.

*ما الذي يمكن أن يرغب به أطفال لديهم كلّ شيء؟*

*أي صنف من الأطفال يعيشون هكذا، مطمورين تحت فيض من الألعاب لم يتسنّ لهم حتّى أن يرغبوا بها؟*

كان سامي يراقبها بوجه رزين. ابتسمت له.

*أي صنف من البالغين يصبحون؟*

«وغرفتك أنت، هل تصطحبني لرؤيتها؟».

أشار برأسه موافقاً، مسروراً على ما بدا باهتمامها به، ثمّ قادها إلى الغرفة الملاصقة، حيث اكتشفت كلارا غزارة مماثلة من الأغراض، وعلى القدر ذاته من الترتيب. إن كانت غرفة كيمي تراكم الصور النمطيّة لغرفة فتاة، كاللون الورديّ ووفرة من الدمى والحلي والقوارير، فإن غرفة سامي تختزل كل ما يقابلها للفتيان، من ألوان داكنة وشاحنات ودرّاجات ناريّة ومجسّمات بلاستيكيّة لأبطال خارقين وجنود، إلى ما هنالك.

فيما جلس الولد على سريره، باشرت كلارا التحدّث إليه:

«ألا تذهب إلى المدرسة إذا في الوقت الحاضر؟».

«لا، إنّها عطلة عيد جميع القدّيسين. عادة نذهب إلى مدينة ملاهٍ، إلى ديزنيلاند أو هكذا، لكن هذه المرّة لا يمكننا... لأن كيمي ليست هنا».

أخذ صوته يرتجف، كان على شفير البكاء. لكنّه تدارك نفسه بسرعة، مستعيداً تعبير التلميذ الجادّ الذي يظهر على وجهه في غالب الأحيان.

«هل تودّين رؤية رسومي؟».

«أجل، بكلّ سرور».

توجّه سامي إلى المكتب، فتح الدرج وأخرج منه بضع أوراق من قياس A٤.

«هل تحبّ أن ترسم؟».

«لا، أفضّل ألعاب الفيديو. رسمت بالأمس لأن الشرطيين أخذوا جهازي اللوحي للتثبّت من أمور، وبالتالي شعرت بالملل. ردّوه لي فيما بعد. لا أعرف كثيراً ماذا أفعل بدون كيمي».

مدّ لها رسومه، ثم بقي بجانبها. كان بإمكانها أن تحسّ بأنفاسه منتظمة، مترقّبة.

على الورقة الأولى، رسم سامي شخصية مانغا. على الثانية، درّاجة ناريّة وسيّارة سباق. الرسم الأخير يصوّر عائلة مؤلّفة من الأب والأم وولدين صغيرين، جالسة في مطعم أو مقهى. كان الأربعة يتناولون العصرونيّة على ما بدا من الأكواب والحلويات المرسومة. تحت طاولتهم، كان هناك فتى قابع متقوقع، بدا لها مراهقاً طويل القامة، شعره متوسّط الطول مربوط خلف رأسه، يلامس أرجلهم من دون أن يمسّها. تأمّلت كلارا سامي. لم يكن لديها مطلق فكرة عن كيفيّة استجواب طفل بعمره، لكنّه لم يكن بوسعها أن تفوّت مثل هذه الفرصة. أشارت إلى الشخص تحت الطاولة.

«إنه فتى، أليس كذلك؟».

ابتسم سامي بانشراح.

«ألم يدعوه لتناول الطعام معهم؟».

فكّر لحظة وكأنه يطرح السؤال على نفسه.

ثم وثب خارجاً من الغرفة وهرع قاطعاً الممرّ لينضمّ إلى والديه. أخرجت كلارا بسرعة البرق هاتفها من جيبها والتقطت صورة للرسم.

في الصالون المزدحم أيضاً بالأغراض، فيما كانت ترتشف كوب الشاي الذي قدّمه لها، استمعت كلارا إلى برونو ديور يشرح لها علاقات «الاستراحة السعيدة» مع المعلنين. ما إن تخطّت القناة عشرة آلاف مشترك، حتّى بدأت الهدايات تتوارد. أما الآن وقد وصل العدد إلى خمسة ملايين، فهم يتلقّون كلّ أسبوع عشرات الرزم. كانت علامات تجارية للألعاب والملابس والمواد الغذائية، «شتّى الأمور...» كما لخّص وهو يشير بيده إلى أرجاء الشقّة، ترسل لهم أبرز منتجاتها أو أحدثها على أمل تسويقها. إزاء هذا السيل، لم يكن بإمكانهم الاحتفاظ بكلّ شيء. كان هذا مستحيلاً. لا بدّ من القيام بفرز بين كلّ ما يتلقّونه لكيم وسام، إنما كذلك لميلاني وللمنزل. كانوا يقومون بعمليّة «تفريغ» مرّتين أو ثلاث مرّات في السنة. كيم وسام يختاران بنفسيهما الألعاب التي يودان الاحتفاظ بها، وكلّ ما تبقّى يكدّس في علب كرتون ضخمة تُرسل إلى الأطفال المرضى أو المعوزين. كانت ميلاني تصوّر عمليّة الفرز بحدّ ذاتها لإعداد فيديو جديد للقناة من أجل توعية المشتركين إلى عمل هذه الجمعيّات. للأسف، لم تكن فيديوهات الهبات تهمّ العديد من المشتركين بالمقارنة مع مقاطع التسوّق أو فتح هدايا.

جالسة بجانب زوجها، كانت ميلاني تهزّ رأسها موافقة بصمت.

فيما كانت كلارا تستمع إلى برونو ديور، فكّرت في «دودو وسخة». كان الجمل الصغير من القماش يخضع في تلك اللحظة مع بعض العناصر التي جُمعت بالأمس، لعملية كشف بحثاً عن أثر حمض نووي، تبعث أملاً ثميناً.

التفتت إلى ميلاني.

«و... دودو وسخة، من أين لها هذا الاسم؟».

ارتسم على وجه المرأة الشابة للحظة ظلّ عابر امتزجت فيه العذوبة بالحزن.

«كيمي هي التي أعطتها هذا الاسم. إنها دميتها المفضّلة، الدمية التي لا تقبل أن تفارقها. أهدتها إيّاها صديقة من المجمّع حين كانت طفلة صغيرة. صديقة غادرت. رغم أنّ لديها كما رأيت بنفسك كميّة هائلة من الألعاب. في البداية، كان اسمها جمل جميل. لم تكن تقبل أن أغسلها، وكنت أقول لها طوال الوقت «إنها وسخة، رائحتها كريهة، يجب غسلها!». وبالتالي أطلقت عليها اسم دودو وسخة».

تكسّر صوت ميلاني.

«في عمرها، لم تعد تأبه كثيراً للألعاب المحشوّة. لكن هذه اللعبة تحديداً، لا تزال تنام معها، تحملها معها أينما تذهب. في المرّات النادرة التي نجحْتُ في وضعها في الغسّالة، أصيبت بنوبة

شديدة... تصوّري إذاً، أن أعرف أنها فقدتها، أنه ليس معها حتّى هذه الدمية، هذا يجعلني...».

صمتت ميلاني بضع ثوان، كابتة شهقة.

لم تكن كلارا تعرفها إلى حدّ أن تسمح لنفسها بالقيام بإشارة لمواساتها، والكلمات التي خطرت لها بدت لها فارغة إلى حدّ غير لائق.

توجّهت ميلاني إليها من جديد، باذلة مجهوداً واضحاً للسيطرة على صوتها:

«هل لديك أطفال؟».

«لا».

ابتسمت لها كلارا. تعلّمت أن تجيب على هذا السؤال بكلمة واحدة، من دون أن تشرح ولا أن تبرّر. وإن أضفت قدراً من الحزم إلى نبرتها، اكتفى معظم الناس بهذا الحدّ بدون أن يجرؤوا على المضي أبعد. بدت ميلاني مشدوهة، لكنّها تابعت:

«ألن تندمي؟».

لو صدر هذا السؤال عن أي شخص آخر، لكانت كلارا ردّت ربّما بجفاء. بدت ميلاني وكأنها تنطلق من مبدأ أن هذا خيار، وليس نتيجة ظروف قاهرة، وكأنّه يكفي أن ترى كلارا لتدرك ذلك.

«لا، أجابت كلارا، لا أعتقد ذلك».

تاهت ميلاني في أفكارها قليلاً، وبين أصابعها محرمة ورق ملفوفة على شكل كرة صغيرة.

«تعرفين، أنا لست نادمة إطلاقاً، أحبّ طفليّ أكثر من أي شيء آخر. لكن يحدث أحياناً أن أقول لنفسي إنّه لا يمكن أن يحصل لي أي شيء آخر بعد الآن. لا أدري السبب، لكنّ هذا يحزنني. حين أكون متعبة».

«حبيبتي، ماذا تقولين؟ قاطعها برونو مقترباً منها. هل أحضر لك كوباً من الشاي؟».

لم تجب ميلاني وواصلت الكلام متوجّهة إلى كلارا.

«هل يحدث لك أنت أيضا أن تشعري أن أفضل ما في حياتك بات خلفك، وأنّ ما تبقّى لا يستحقّ العناء؟».

كانا برونو يراقب زوجته، منفعلاً ومذهولاً في آن.

«لا تتكلّمي هكذا حبيبتي. أنت منهكة».

كانت ميلاني تنظر الآن إلى زوجها. بدت وكأنها ثملة.

«لكن أنت يا عزيزي، أنت لا ترى الشرّ. لا ترى شيئاً إطلاقاً، لا المكر ولا النفاق».

التفتت مجدّداً إلى كلارا.

«هل تذكرين لوانا؟».

تردّدت كلارا ثانية ثمّ هزت رأسها إيجاباً.

«نجت بنفسها في نهاية المطاف. قامت بعدّة محاولات انتحار، أصيبت بانهيارات عصبيّة خطيرة، لكنّها بقيت على قيد الحياة. يمكن القول إذاً إنها نجت بنفسها، أليس كذلك؟ تحلّت بالكثير من الشجاعة، تعلمين؟».

قاطعها برونو مرّة أخرى.

«عمّ تتكلّمين حبيبتي؟ يجدر بك أن تأخذي قسطاً من الراحة في الغرفة».

«كانت تبدو في غاية الثقة بنفسها. تذكرين؟ كانت رائعة. كاملة الجمال. كانت تشعر أنها مختلفة عن الآخرين، لأنّها كانت فعلاً كذلك. لم تكن مسلّحة لمواجهة هذا العالم».

تنهّدت ثمّ أضافت:

«هل ستجدين طفلتي الصغيرة؟».

عندما خرجت كلارا، أخذت نفساً عميقاً ثمّ عبرت الحديقة.

تراءت لها لثانية صورة كيمي جثّةً مطمورةً تحت كومة من الحصى، محاولة فرض نفسها في ذهنها. تعثّرت كلارا، استعادت توازنها، ثمّ أكملت طريقها.

تحتّم عليها النظر في عيني ميلاني كلو والردّ على سؤالها. قالت كلارا «سخّرنا كلّ الوسائل للعثور على طفلتك». قالت «كوني واثقة من أنّنا نبذل كلّ ما في وسعنا للعثور عليها». لكنّها لم تتمكن من الردّ «أجل سيّدتي، سنعثر على ابنتك الصغيرة»، مثلما كان بعض

زملائها ليفعلوا. لم تعرف كيف تهدئ من روع تلك المرأة. كان سيدريك بيرجيه يقول «ثمّة فواجع لا يسعنا شيء حيالها». تلك كانت إحدى الجمل التي يباغت الجميع بها ويردّدها ليطمئن نفسه حتماً.

خرجت كلارا من المجمّع السكنيّ. كان هناك أمر مؤكّد، طالما أن التحقيق لم ينته، ستبقى طفلة صغيرة تشغل ذهنها بالكامل، طفلة ستّ سنوات اختارت «دودو وسخة» من بين كميّة هائلة من الألعاب الجديدة.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

الموضوع:

وصف (من حيث النوع) لفيديوهات قناة «الاستراحة السعيدة» المتوافرة على يوتيوب.

### سلسلة «وجبات سريعة وسعيدة»

(ما بين ثلاثة وستة ملايين مشاهدة)

### «نقدّم طلبيّة معصوبي العينين»

في مطعم ماكدونالدز، يقدّم سام وكيم طلبيّة معصوبي العينين عند جهاز الطلب الذاتي (لوح القائمة). على كلّ منهما أن يختار بدوره عشرة أطباق من دون أن يرى ما يضغط عليه على شاشة اللمس.

عند العودة إلى المنزل، يتمّ إخراج المشتريات (همبرغر، بطاطا مقليّة، حليب مخفوق، راب، مشروبات) من الكيس وعرضها بالتفصيل أمام الكاميرا.

هناك بالطبع أكثر ممّا يمكنهما تناوله.

الصيغ المعدّلة: نأكل وجبات ماكدونالدز على مدى أربع وعشرين ساعة، سامي يفتح خدمة طلبات السيّارة في البيت، سامي وكيمي يفتحان مطعم وجبات سريعة.

هناك مقاطع مماثلة مع علامات أخرى (علامات هوت دوغ أو مشروبات محلّاة أو بيتزا).

غادرت كلارا روسّيل ومكثوا هناك، محتجزين في تلك الشقّة، مع ذلك الرجل المتجهّم الذي يظهر ما إن يرنّ أحد هواتفهم. كان برونو يتحدّث معه خافضاً صوته، يعرض عليه فنجان قهوة أو كوب شاي، لكنّها هي لم تكن تكلّمه، لا. لم يكن بوسعها أن تفعل بذلك. تفضّل التصرّف وكأنه غير موجود. الإقرار بوجود ذلك الرجل في منزلها يعني الاعتراف بأن أمراً خطيراً جدّاً حصل، وأن حياتهم توقّفت.

مضت عشرون دقيقة وسامي جالس إلى الطاولة، يعبث بحبيبات البازلّاء برأس شوكته، فتتدحرج في صحنه من جهة إلى جهة. كان وجهه شاحباً إلى حدّ بدا متوعّكاً. بالأمس أيضاً لم يكد يأكل شيئاً. شعرت ميلاني لأوّل مرّة أن لا حيلة لها أمام طفلها. لم تعرف ماذا تقول له، كيف تكلّمه. كانت منهمكة في ترويض قلقها هي نفسها واحتوائه، ولم يكن بمقدورها مواجهة قلق ابنها. لم تكن تملك القوة لتقول له «كل البازلّاء» أو «لا تقلق». كان بودّها لو ينضمّ برونو إليها في المطبخ بدل أن يثرثر مع ذلك الرجل، لو يقول

لابنه أن يكمل عشاءه ويذهب إلى النوم. لكنّها كانت وحيدة مع سامي الذي كان يماطل بانتظار أن تستسلم.

«اذهب وتناول حلوى»، همست متنهّدة.

نهض ووقف أمامها بضع ثوانٍ.

كان ابنها يراقبها، مترصّداً على وجه والدته علامة، جواباً، إشارة تكشف مزاجها.

لطالما كان هكذا. يحملق فيها دائماً، يحدس ما يجول في بالها، يلتقط أدنى تغيير في نبرة صوتها. بإمكان سامي أن يشعر خلال ثوانٍ باضطرابها أو قلقها. أحياناً حتّى قبل أن تدركه هي نفسها. ربّما كانت تلك ميزة الطفل البكر، أن يكون على هذا التواصل مع مزاج والديه. أحياناً كان الأمر يربكها.

فتح البرّاد، التقط عبوة زبادي بالفانيلا، ثمّ عاد ووقف أمامها، مترقّباً موافقتها.

متى تحوّل إلى ذلك الصبيّ الصغير الوديع والمهادن إلى هذا الحدّ؟ ربما كان كذلك على الدوام. كان يبدو طوال الوقت في غاية الرزانة والتعقّل. تملّكتها فجأة الرغبة في أن تصيح «ماذا تنتظر؟».

استبق مزاجها مرّة جديدة، وعاود الجلوس في مكانه.

لم يعارضها ابنها سوى مرّة واحدة. كان ذلك في البداية، عند بدايات انطلاق القناة، في وقت كانت تكسب مئات المشتركين كلّ يوم. كانت ميلاني تمرّ بفترة من الضغط، بل حتّى الإرهاق. لم

يكن الآخرون يدركون ذلك، لكنّها كانت تعمل كثيراً. التخطيط لعمليّات التصوير وتنظيمها، التفاوض بشأن العقود مع الوكالات، مع العلامات التجاريّة، متابعة شبكات التواصل الاجتماعي، كلّ ذلك يتطلّب عملاً هائلاً يبدو أن لا أحد كان يراه. كانت تقضي أياماً وأمسيات كاملة في العمل، تخصّص له وقتها بالكامل. في ذلك اليوم، كان برونو يتبع دورة إعداد على التصميم الغرافيكي، وهي انتهت للتوّ من تجهيز الإستديو استعداداً لتصوير فيديو. نبّهت الولدين قائلة «سأضع الكاميرا في هذه الزاوية لأحاول التصوير من زاوية جديدة، احذروا أن تدوسوا على الشريط الكهربائي». بعد بضع دقائق، حصل ما كان في الحسبان، تعثّرت كيمي بالسلك وسقطت الكاميرا أرضاً وسط جلبة فظيعة. عندها راحت ميلاني تزعق ناهرة ابنتها، رافعةً يدها متأهّبة لصفعها. كانت كيمي تنظر إليها محملقة وذقنها يرتجف، كابتة زفرة على وشك أن تنفجر، وواصلت ميلاني الصراخ وكأن لا شيء بات يهمّ سوى ذلك التوتّر المتراكم الذي وجد أخيراً متنفّساً. كان ذلك السيل من الملامة والغضب والإنهاك يتدفّق منها، حين انتصب سامي متوسّطاً بينهما ليحمي شقيقته، مواجهاً والدته، لا بل واقفاً مثل سور أمامها. لم يسبق أن رأته يوماً واجماً ومصمّماً إلى هذا الحدّ. راح يزعق بصوت علا على صوتها «ماذا أصابك؟ إنها ابنتك!»، ثم صاح مستنكراً «تفضّلين فيديو على ابنتك!!!» أو شيء من هذا القبيل. كم كان عمره في ذلك الحين؟ ست سنوات؟ سبع سنوات؟ الواقع أنّه جعلها تتسمّر في مكانها. حلّت لحظة صمت، ثمّ انهارت كيمي

باكيةً. عندها ركعت ميلاني وضمّتهما بين ذراعيها وهي تردّد بلا توقّف «كل شيء على ما يرام، كلّ شيء على ما يرام، كلّ شيء على ما يرام»، إلى أن هدأ طفلاها.

مطرقة في المطبخ، تائهة في الفراغ، راحت تستعيد ذلك المشهد بوضوح مروّع. تستذكر وجه ابنها الذي بدا فجأة في غاية القسوة والتصلّب.

بقيت تلك اللحظة تطاردها لوقت طويل. لم يكن من عادتها أن تزجر ولديها، كم بالأحرى أن ترفع يدها عليهما. شعرت تحت الضغط بأنّ حالة لا تعرفها استولت عليها. أنّبت كيمي وكأنّ حياتهم برمّتها رهن بتلك الكاميرا، وكأنّها نهاية العالم. كان سامي على حقّ. بالغت في ردّ فعلها. بعد ذلك، ظلت على مدى أسابيع تستعيد تلك اللحظة المروّعة مراراً كلّ يوم، وخجلت من نفسها. لم يكن لديها من تكلّمه في الأمر. إليز، صديقتها الوحيدة في المجمّع، غادرت. لكان بإمكانها أن تبوح لإليز بما شعرت به، ذلك الإحساس بأنّها تغرق. لكانت شرحت لها ذلك الضغط، وكلّ تلك المشاريع التي تعمل على إنجازها دفعة واحدة. كانت إليز رفيقة، لما كانت حكمت عليها. لكانت عرضت عليها أن تصطحب ولديها إلى منزلها لقضاء سهرة، مثلما كانت تفعل أحياناً، حتّى تتمكّن ميلاني من تنفّس الصعداء. كان طفلاها يحبّان كثيراً الذهاب إلى منزل إليز. لكن الحقيقة أنّهما تباعدتا حتّى قبل رحيل إليز. هكذا، بلا شجار ولا سبب محدّد. لمجرّد ذلك القدر من الوقت الذي باتت ميلاني

تخصّصه لـ«الاستراحة السعيدة». لم يكن بإمكان أحد أن يتصوّر المجهود الذي يتطلّبه ذلك. تلك العزلة التي يتحتّم عليها تقبّلها. ذلك كان ثمن النجاح.

بالطبع، كان لديها زوجها. كان يقف بجانبها. بإمكانها أن تناقش معه مقاطع الفيديو، واختيار العلامات التجاريّة الشريكة، والعقود. بإمكانها أن تبحث معه برامج عطلات نهاية الأسبوع القادمة ونتائج الولدين المدرسيّة. والمشاريع المستقبليّة على المدى القريب والمتوسّط. لكن ما أحسّت به في ذلك اليوم، طعم المرارة ذاك الذي ظلّ يلاحقها، لم يكن بوسعها أن تفاتحه فيه.

في ذلك اليوم، اعترضها سامي.

بعدها، عاد ذلك الصبيّ الذي عهدته، صبيّ رزين متعقّل جادّ، لا يتشكّى أبداً.

حين نجحت ميلاني أخيرا في نفض تلك الأفكار عن ذهنها، كان سامي لا يزال جالسا إلى الطاولة. انتهى من تناول الزبادي وكان ينظر إليها. حاولت أن تبتسم له. نهض عن كرسيه، فتح سلّة النفايات برأس قدمه ليرمي العبوة الفارغة ووضع ملعقته الصغيرة في الجلّاية. ثمّ اقترب منها بدون أن يتفوّه بكلمة.

عندها، تراءى لها لثانية أنها تقرأ على وجهه الجملة التي لن يتلفّظ بها أبداً «هذا بسببك أنت. كلّ هذا بسببك».

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي

**الموضوع:**

محضر جلسة الاستماع إلى لويك سيرمان.

أجراها في ١٢ نوفمبر ٢٠١٩ سيدريك بيرجيه، مفوّض الشرطة المناوب في الفرقة الجنائية في باريس.

تمّ التوضيح للسيّد سيرمان أنه يجري الاستماع إليه بصفته شاهداً وأنّ بإمكانه في أي وقت قطع المقابلة.

**عن هويّته:**

اسمي لويك سيرمان.

ولدت في ٠٨/ ٠٥/ ١٩٨٨ في فيلوربان.

أقيم في الرقم ١٢ شارع لا ترويل في ليون (٦٩).

أعيش مع شريكة.

أدير قناة «فارس النت».

**عن الوقائع (مقتطفات):**

هدف قناتي تشريح ما يلقى رواجاً على يوتيوب. أنشأتها عام ٢٠١٤ ولديّ اليوم أكثر من مليون مشترك. أتناول الانحرافات على الإنترنت، وبصورة خاصّة على يوتيوب. يلقّبونني فارس النت، لكنّني أعتبر نفسي أقرب بالأحرى إلى مبلّغ عن التجاوزات. كنت من الأوائل الذين فضحوا الاستغلال التجاري للأطفال على يوتيوب. نشرت عدّة مقاطع فيديو حول هذا الموضوع، «فضيحة الأطفال المؤثّرين» عام ٢٠١٦، «القنوات العائلية في المرمى» و«نعم، المعتدون جنسيّاً على الأطفال يجمعون صوركم الخاصة» عام ٢٠١٧. لكن حول هذا الموضوع، الفيديو الذي أثار أكبر قدر من الضجّة هو الذي نشرته العام الماضي، «عبيد يوتيوب الصغار». أنا من أطلق أول عريضة ضد هذه القنوات. وهذا ما لفت انتباه وسائل الإعلام. إذا قطعاً، لا يمكنني القول عن كلّ هؤلاء الأهل إنّهم يكنّون لي الكثير من الودّ. بقيت المسألة برمّتها لفترة طويلة حبراً على ورق. بالطبع، يجني الأهل أموالاً طائلة، لكن يوتيوب أيضاً، تفهم قصدي، أليس كذلك؟ (...)

أجل، ثمّة حرب تدور بين بعض القنوات. كيمي وسامي لديهما اليوم خمسة ملايين مشترك، في حين أن أقصى ما وصلت إليه قناة «فريق الحافلة الصغيرة» مليونان، رغم أن فابريس بيرو بدأ قبلهما. إنه غاضب إلى أقصى حدّ. استثمر مبالغ ضخمة، يسعى بكلّ الوسائل لزيادة حجم جمهوره. حين تشاهد مقاطع الفيديو، غالبا ما تبدو ابنتاه

منهكتين، غير مكترثتين، هو وحده يتظاهر بأنّه يمرح. يصوّرهما بوتيرة غير مقبولة. يكفي القيام بعمليّة حسابيّة بسيطة. تصوير مقطع فيديو يستغرق وقتاً. يمكنني أن أؤكد لكم أنهما لا تفعلان حتماً شيئاً يُذكر غير ذلك، ما عدا النوم، وحتى هذا غير مؤكّد، فهو قد يوقظهما في الساعة الثالثة صباحاً لتصوير «مقلب». هو وميلاني كلو يسوّيان حساباتهما عبر الفيديوهات والشائعات. من وجهة نظري، الوضع سيّان من الجانبين: أطفال عبيد ووتيرة عمل تليق بالأشغال الشاقّة. لأنّ يوتيوب أمر جميل، لكن حين أدركا أنّ المسألة لن تستمرّ إلى ما لا نهاية، عمدا إلى تنويع مواقعهما: إنشاء قنوات ثانويّة باسم الأهل وإقامة حسابات إنستغرام للجميع. والهدف واضح: احتلال الساحة. كلّ شيء جاهز للالتفاف على القانون المقبل. الآن، تقوم بعض العائلات حتّى بالتصوير بالبثّ الحيّ. أجل، البثّ لايف، هل تتصوّر ذلك؟ (...) حسناً، هذا يعني أنه حين يكون الأطفال في حوض السباحة، أو في السوبرماركت، أو في حفل المدرسة، يُبثّ كلّ ذلك مباشرة على حساب إنستغرام. وبإمكان المشتركين التفاعل أو طرح أسئلة. إنّه النجاح المضمون. (...)

بنظري، هؤلاء الأطفال هم ضحايا عنف أسري. سوف تُطرح المسألة مجدّداً في المستقبل، سترون. أنا مستعدّ للمراهنة على ذلك. يدّعي الأهل أن هذا من باب الترفيه، ترفيه يدرّ الملايين. أمّا أنا، فأعتبره عملاً خفيّاً. عمل مرهق ومضن وخطير، مهما قالوا. عمل يعزل هؤلاء القصّر ويعرّضهم للأسوأ.

الحميميّة كلمة لا يعرفها الناس. انظروا كيف يصوّرون أطفالهم، ما إن يستيقظوا، أمام كوب الفطور، إن لم يكن أثناء حمّامهم، ولا أختلق شيئاً هنا. يكفي أن تشاهدوا هذه الصور لتفهموا أنّه استغلال. أجل، استغلال للسطوة. استغلال للسلطة. يردّد هؤلاء الجنود الصغار الطيّبون الجمل ذاتها التي تعلّموها عن ظهر قلب: «مرحباً يا أصدقاء الحافلة الصغيرة»، «أهلاً بمحبّي الاستراحة السعيدة»، «تحيّة لأعزّائنا الدباديب»، يوزّعون «ضمّة من البوسات» و«قبلات من النجوم»، و«لا تنسوا أن تشتركوا» و«الإبهام الصغير إلى الأعلى لمنحنا لايك». تعلّموا كيف يبتسمون مثلما تتعلّم قرود السيرك عرضها. هل تظنّون أنّ بإمكانهم أن يقولوا «لا، لم أعد قادراً على ذلك، سأتوقف» في وقت تعتاش العائلة بكاملها من عائدات مقاطع الفيديو هذه؟ (...)

أنا لا أعتقد أنّ طفلاً في الثالثة من العمر يحلم بأن يكون نجماً على يوتيوب.. يتمّ غسل دماغهم منذ صغرهم كما لو أنّهم في طائفة. المبادئ الأساسيّة أُرسيت بشكل نهائيّ: أنا يوتيوبر، إذاً أنا سعيد. شخصيّاً، أعتبر ذلك نظاماً شموليّاً. ربّما قالت لكم ميلاني كلو إنّني عدوّها. هذا صحيح. وعدوّ جميع الأهل الذين يستغلّون أطفالهم. (...)

أثارت الفيديوهات التي نشرتها سيلاً من التعليقات وجمعت الكثير من الدعم، بما في ذلك من الشباب. لا تخطئوا! يجب أن تعرفوا أن الشباب لا يؤيّدون بمجملهم هذا النظام، بل هو يصدم العديد منهم. لأن المشكلة الحقيقية، هي أنّ الأمر لا يقتصر على هاتين

القناتين أو الثلاث قنوات التي يجري الكلام عنها أكثر من سواها، بل هناك عشرات منها يتابعها ألف، عشرة آلاف، ثلاثين ألف، مئة ألف مشترك، يديرها أهل يحلمون بكسب القدر ذاته من المال. ليس هناك اليوم ما يمنع هؤلاء الأهل من تصوير أطفالهم طوال النهار والإتجار بذلك. (...)

سيأتي يوم يتحتّم فيه التحدث أيضاً عن الأطفال الذين يشاهدون ذلك كلّ يوم. عن الإعلانات التي يستهلكونها بالأطنان من غير أن يدري أحد. ليسوا بالعشرات فقط، بل هم بمئات الآلاف. أكل وجبات ماكدونالدز، ابتلاع سكاكر هاريبو، شرب الكوكاكولا والفانتا... هذه هي الحياة المثاليّة التي يصوّرونها لهم. مثال للحياة، أليس كذلك؟ خذوا ساعتين من الوقت لتشاهدوا، وستفهمون ما أتحدّث عنه. ستدركون الأضرار... (...)

أجل، بالتأكيد، أودّ التحدّث عن ميلاني كلو. ليس لديّ أي مأخذ شخصي على هذه المرأة. التقيتها مرّة، في معرض مهنيّ، هي التي بادرتني. بدت ودودة. إنها امرأة تحسن الكلام، مؤدّبة للغاية في كلّ ما تقول. في تلك الفترة، كنت نشرت مقطع فيديو أو اثنين حول الموضوع، وكانت تريد إقناعي بأنّني مخطئ. كانت تريدني أن أدرك أنها أمّ صالحة، حريصة على رفاه ولديها وعلى دروسهما، أمّ فائقة الحضور في حياتهما، تُعنى بهما، باختصار كلّ ما تستعرضه بلا توقّف في مقاطع الفيديو. لم أحاول مجادلتها، أقرّ بذلك. قلت لنفسي «لسنا في الفريق ذاته». (...)

أعرف أنّ ابنتها اختفت. أعرف ذلك لأنّ لديّ آذان في كلّ مكان لمتابعة ما يجري على الإنترنت. من حسن حظّكم أن الإعلام لم يكشف الأمر بعد، لكن هناك حتما تسريبات. الناس كلّهم على تواصل، والمعلومات تنتشر بسرعة. بسرعة كبيرة. لن يدوم الصمت طويلاً. (...)

لا، لا أعرف توم بريندیسي. (...) كتب لي تعليقات على صفحتي على يوتيوب؟ ثمّة مليون شخص يتابعونني، كما تعلمون. معظمهم شباب. لا، لم أقابله إطلاقاً، لم أتكلّم إليه يوما. (...)

إنني متأسّف جدا لما حصل لهم، وآمل من كلّ قلبي أن تكون الفتاة بخير وأن تتمكّن قريبا من العودة إلى منزلها. لكنّ الأمر لا يفاجئني. حين تروي نهارك من الصباح إلى المساء، حين تستعرض منزلك الجميل، طفليك الرائعين، وكل هذه الهدايا التي تكدّسها إلى ما لا نهاية، بإمكانك أن تنادي الناس «أحبّائي» قدر ما تشاء، وترسل لهم «ضمّة من البوسات» أو «قبلات من النجوم»، وتوهمهم بأنهم سيصبحون جزءا من عائلتك إن اشتركوا، تأتي لحظة يعترض أمر ما طريقك. لحظة لا بدّ لك أن تدرك فيها أن ما تقوم به ليس صواباً.

تأتي لحظة يغضب منك أحد ويعاقبك.

خلال اليوم الثالث الذي تلى اختفاء كيمي ديور، راجعت كلارا بانتباه محاضر جلسات الاستماع التي أودعها زملاؤها في سلّتها، ثمّ رتّبت النتائج الأوليّة القادمة من المختبرات في ملفّات. كانت تشعر بلهب في عينيها وألم في عنقها.

كان التحقيق يتواصل من حولها، في صمت أحياناً، ووسط فوران أحياناً أخرى. في الطرف الآخر من الممرّ، كانت قاعة الأزمة تشهد الآن اجتماعاً كلّ أربع ساعات.

تمّ الاستماع إلى الحارس وزوجته وجميع الجيران في المجمّع. وبعد مطابقة الإفادات، وُضع جدول بكل التحركات في المرآب خروجاً ودخولاً مع توقيتها بدقّة، إلّا أنه لم يتمّ التعرّف بعد إلى السيارة الحمراء التي شوهدت بين الساعة ١٧,٥٥ والساعة ١٨,٠٥.

بعد تعزيز صفوفه بثلاثة محقّقين، كان فريق الإنترنت يواصل تقصّي كل عناوين بروتوكول الإنترنت التي تتّصل بانتظام بـ«الاستراحة السعيدة» والتدقيق فيها. وبالطبع، لم يكن المشاهدون الأكثر مواظبة للقناة يقتصرون على الأطفال، ولا عجب في ذلك، إذ ثبت مراراً استخدام شبكات الاستغلال الجنسي للأطفال الصور الخاصة. غير أن هذا لا يمنع آلاف الأهالي من نشر صور لأولادهم يوميّا. سرعان ما تمّ رصد بعض الأفراد المعروفين لدى فرقة حماية القصّر. كان ينبغي الآن استدعاؤهم واستجوابهم والتثبّت من جدول أعمالهم.

مع انقضاء الساعات الواحدة تلو الأخرى، كانت فرضية طلب فدية تبتعد أكثر فأكثر، لتحلّ محلّها سيناريوهات أكثر تشاؤماً. من بين هذا الكمّ الهائل من الأطفال المعروضين في ملابس داخليّة أو تنّورة باليه أو مايو جمباز أو ثوب سباحة، قد يكون مريض نفسيّ اختار كيمي.

أهدر سيدريك بيرجيه وقتاً طائلاً بعد الظهر سعياً للحصول على سجلّ الملّاكين أو المستأجرين السابقين الذين كان لديهم وصول إلى المرآب. كان من المفترض أن يحتفظ وكيل اتّحاد الملّاكين المشتركين بأثر لكلّ الأجهزة الإلكترونيّة الموزّعة، والتي نادراً ما تتمّ إعادتها، كما هو معلوم. لكن في العام ٢٠١٧، تغيّر وكيل المجمع السكنيّ. وبعدما تعذّر الاتّصال بالوكيل السابق طوال عطلة نهاية الأسبوع، ردّ أخيراً خلال الصبيحة. شغّل سيدريك مكبّر الصوت كما يفعل في غالب الأحيان، حتّى لا يفوت كلارا شيءٌ من المكالمة فيما كانت مستغرقة في المحاضر. شرح الوكيل السابق بنبرة مداهنة متملّقة لرئيس المجموعة أن المحفوظات نقلت للتوّ إلى موقع تخزين في منطقة بانيوليه. وفي حال تمّ الاحتفاظ بالملفّات القديمة، وهو أمر غير مؤكّد إطلاقاً، عندها ينبغي تقديم طلب استخراج من خلال ملء استمارة ترفع إلى المدير. وبما أن المدير في عطلة لبضعة أيّام، فقد يتأخر الجواب.

بعدما باشر سيدريك المكالمة بلهجة حازمة إنّما ضمن حدود التهذيب، انتهى به الأمر متوعّداً: فهو مخوّل القيام بعمليّات دهم. عندها ردّ الوكيل الإداري بالنبرة ذاتها المتأسّفة أنه سينقل رسالته إلى من يهمّه الأمر، وأنّ أحداً سيتّصل به حتماً.

زعق سيدريك «حياة طفلة على المحكّ!» وأغلق الخطّ. ظنّت كلارا لثانية أنّه سيقلب مكتبه كما سبق أن فعل مرّتين منذ أن بدآ تقاسم المكتب ذاته، في مؤشر إلى عجزه أكثر منه إلى فقدان السيطرة، لكن لا بدّ أن ذكرى انزلاقه الغضروفيّ كانت لا تزال حيّة في ذهنه.

«ما الذي يمكننا القيام به حيال المعتوهين يا كلارا، أترين ما أعنيه، المعتوهين الحقيقيّين الأغبياء؟».

فكّر بضع لحظات وتابع:

«سأذهب إلى هناك مع سيلفان. صدّقيني، من مصلحتهم العثور على تلك المحفوظات اللعينة، وإلّا سنقلب مكاتبهم الجديدة رأساً على عقب».

لبس معطفه واختفى.

قرابة الساعة السادسة مساء، في حين لم يكن سيدريك عاد بعد، تلقّت كلارا نتائج تحاليل الحمض النووي التي طُلبت بصورة عاجلة. على «دودو وسخة»، تم التعرف على أثري حمض نووي باللمس، الأول لكيمي والثاني لوالدتها. أما محارم الورق وأعقاب السجائر التي جُمعت في الخارج وفي المرآب، فأعطت حوالى عشر بصمات وراثيّة مختلفة. للأسف، لم تكن أي منها مدرجة في السجلّ الوطني.

قرابة السادسة والنصف، تبلّغت بأن ميلاني كلو طردت للتوّ مفاوض فرقة البحث والتدخّل إذ لم تعد تحتمل وجوده. حاولت اختصاصيّة علم النفس عبثاً التحدّث إليها، لكنّها رفضت الخروج من غرفتها.

لاحقاً، اتّصل سيدريك بكلارا. كان خارجاً خالي الوفاض من مكتب وكيل اتّحاد الملّاكين. لكنّه تمكّن من حملهم على إعادة

المحفوظات التي تمّ نقلها، على أن يحصل ذلك في صباح اليوم التالي.

قررت كلارا العودة إلى منزلها بعد يوم طويل عكّرته عقبات كثيرة.

حين فتحت كلارا باب شقّتها، أحسّت بجسدها يسترخي، فأدركت كم كانت عضلاتها متشنّجة في اللحظة التي بدأت تتحلحل فيها. البقاء متحفّزة مترقّبة ساعات طويلة بدون أن يحصل شيء، هذا أكثر ما كان يرهقها بالتأكيد. لاحظت ذلك مراراً. ملأت المغطس بماء ساخن لأخذ حمّام، مع الحرص على إبقاء هاتفها في متناول يدها، ثمّ تفحّصت محتوى البرّاد. قليل من التاراما، بقايا سلطة جزر مبشور (أين قرأت أنّ الاحتفاظ بها لأكثر من أربع وعشرين ساعة غير محبّذ إطلاقاً؟)، هذا يفي بالغرض، مع بضع شرائح خبز بعد تحميصها.

لأوّل مرّة منذ زمن طويل، شعرت بكآبة أليفة منبثقة من أحشائها تنتشر في صدرها. أطبق عليها الإحساس الجسديّ بالوحدة. خطر لها أن تتّصل بتوما. كانت بحاجة إلى تقاسم تلك الساعات الأخيرة معه. معه هو، ولا أحد سواه. أن تروي له الانتظار، والقلق، وحياة فتاة صغيرة في قلب تحقيق خالٍ من أي عناصر ملموسة. عاينت عن كثب على مدى حوالى عشر سنوات مصائب وجراحاً ومآسيَ من كلّ الأنواع. لكنّها لم تحقّق من قبل في اختفاء طفل. ولأوّل مرّة، جالسة بين كدسات ملفّاتها، كان ينتابها شعور بأنّها خارج اللعبة.

حين انفصلا، طلب توما نقله إلى مركز آخر. أراد الابتعاد عنها، عن باريس، منح نفسه فرصة للعيش بطريقة مختلفة. هي التي بادرت إلى مراسلته بعد رحيله. لم يكن أوّل رجل تنفصل عنه بهذه الطريقة، بهذه القسوة وبهذا الإجحاف، لكنّه الوحيد الذي ودّت البقاء على تواصل معه. لأنّه عندما غادر، تحتّم عليها الإقرار بالواقع، بأنّ الصمت لا يُحتمل. لم يكن بإمكانها التسليم بالعيش بدون أن تردها أخباره. كانت تريد أن تعرف ما حلّ به، إن كان يحبّ عمله الجديد، إن كان تكيّف مع المدينة، التقى أشخاصاً. لم يردّ توما على رسائلها الإلكترونيّة الأولى. لكنّها كانت مواظبة وواصلت الكتابة له لتروي له أخبارها، الانتقال إلى شارع باستيون، إعادة تشكيل الفرق، صعوبة إيجاد مكان لركن السيّارة، ومن حول المبنى أشغال البناء تلك التي تتواصل بلا نهاية. قصصها، الصغرى منها والكبرى. الشكوك والانتصارات. بقيت رسائلها الإلكترونيّة لفترة طويلة بلا جواب. لم تكن تعرف حتّى إن كان توما يقرأها. لكنّها استمرّت في الكتابة، مدركة أنّ في ذلك قدر من الأنانيّة. ثم ذات يوم، أجابها أخيراً. كان يكتب لها في بادئ الأمر بإيجاز، مكتفيا بعرض وقائع. ثمّ شيئاً فشيئاً، استسلم بدوره للسرد. دوره في مركز تدريب المفوّضين، تلك القيم التي لطالما سعى لتلقينها للآخرين، حياته الجديدة. استقرّ على مسافة بضعة كيلومترات من سان سير أو مون دور، في قرية جميلة، ونادراً ما كان يذهب إلى ليون. بدا سعيداً. كان ذلك الرابط على مسافة عزيزا على قلب كلارا، وكانت تخشى اليوم الذي سيعلن لها فيه أنه التقى امرأة. لأنّ ذلك الرابط

سينقطع عندها، هي واثقة من ذلك. الواقع أن مراسلاتهما تباعدت منذ بضعة أسابيع. كان يتأخّر أكثر ليردّ عليها. وهي تسعى جاهدة لاحترام وتيرته.

في ذلك المساء، شعرت أكثر من أي وقت مضى بالرغبة في أن تكتب إليه، أن تكلّمه. كانت لتضحيَ بالغالي من أجل أن يكون هنا.

حين أغلقت الصنبور في المغطس، تنبّهت إلى أن المياه شديدة الحرارة. رتّبت لنفسها طبق عشاء على عجل وجلست أمام شاشة حاسوبها. بضع نقرات، ودخلت إلى الصفحة الرئيسية لقناة «الاستراحة السعيدة» على يوتيوب. ظهرت حوالى خمسين صورة مصغّرة، تطابق مقاطع الفيديو الأكثر شعبيّة. وتحت كلّ منها، كان عدد المشاهدات يحدَّث بشكل آنيّ. بدأت كلارا بمشاهدة بعض المقاطع وهي تقضم عشاءها بلا شهيّة. اكتشفت في اليوم السابق أنّ بإمكانها تبويبها من حيث تاريخ نشرها، من الأقدم إلى الأحدث أو بالعكس. كان هناك المئات منها.

*البدء بالبداية، العودة إلى الأصل...*

حين رفعت رأسها، كانت ثلاث ساعات انقضت. تمطّطت لتمدّد ظهرها ومفاصلها. في الحمّام، وجدت المياه باردة. فتحت السدّادة لتفرغ المغطس وأطفأت الضوء.

بدا لها من المستحيل رغم تعبها أن تخلد إلى النوم.

عاودت الجلوس أمام الحاسوب، تناولت مجدّداً الملفّ الذي تدوّن فيه ملاحظات، محاولة منذ المساء الأوّل بناء نظريّة.

كان يتحتّم تسمية الصور ووصفها وترتيبها.

كان يتحتّم استخراجها من تلك المساحة اللّامتناهية، مساحة بلا حدود حيث كانت مخبأة ومعروضة على الملأ في آن. مساحة تولّد فيها ملايين المشاهدات من غير أن يدري باقي العالم. استخراجها من تلك المساحة حيث تفلت من أي رقابة، على ما في ذلك من تناقض.

كان يتحتّم نقلها إلى العالم الواقعيّ.

ولتحقيق ذلك، كانت الكلمات سلاحها الوحيد.

من أجل أن يتمكّن آخرون من إدراك أبعاد ما عاينته، آخرون ممّن لا ينظرون ولن ينظروا إطلاقاً إلى هذه المشاهد، ولا يعلمون حتّى بوجودها، لا بدّ لها من مواصلة كتابتها.

وصفها، وضعها على الورق.

أجل، هذا ما يتعيّن عليها القيام به، على الرغم من المفارقة، وحتّى لو لم يكن لذلك أي معنى.

حتّى لو لم يكن لذلك أي جدوى.

قضت ثلاث ساعات مسمّرة أمام شاشتها، تردّد بلا توقّف بصوت عالٍ «لا بدّ من رؤية ذلك من أجل تصديقه».

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# اختفاء الطفلة كيمي ديور

الموضوع:

خلاصة حرّرتها كلارا روسّيل عن فيديوهات قناة «الاستراحة السعيدة» الموجودة على يوتيوب.

بمعدّل مقطعين أو ثلاثة مقاطع فيديو في الأسبوع، صوّر الطفلان ما بين ٥٠٠ و٧٠٠ فيديو منذ إطلاق القناة.

جمعت هذه المقاطع أكثر من ٥٠٠ مليون مشاهدة.

يتابع القناة حالياً خمسة ملايين مشترك.

بمعزل عن «فتح العلب» التقليدي (فتح رزم أو ألعاب أو سكاكر)، مقاطع الفيديو الأكثر شعبية هي التي تتضمّن ألعاباً وتحدّيات تصوَّر داخل المنزل.

الاستهلاك هو في صميم معظم السيناريوهات. الشراء وفتح العلب والأكل هي النشاطات الرئيسية التي يمارسها الطفلان.

خارج المنزل، السوبرماركات ومدن الملاهي وصالات ألعاب الفيديو هي الديكورات الثانويّة التي تلقى أكبر قدر من الاستحسان بين المشتركين.

بين ٢٠١٥ و٢٠١٧، لم تكن ميلاني كلو تظهر بعد على الشاشة. كان صوتها يرشد الولدين من خارج الصورة ويعلّق على ما يفعلون.

ابتداءً من العام ٢٠١٧، بدأت تظهر. يمكن بعد ذلك ملاحظة التطور السريع في تسريحة شعرها ومكياجها. ومع تزايد حضورها، يتأكّد أسلوبها: ترتدي عموماً ملابس زهريّة أو بيضاء، تحبّ الساتان والبرَق. مظهرها مستوحى بصورة جليّة من شخصيات والت ديزني النسائيّة. غير أن الطفلين يبقيان محور مقاطع الفيديو.

مع مرور الوقت، تتّخذ أشكال المقاطع والمونتاج والمؤثّرات الغرافيكيّة منحى احترافيّاً متزايداً. يؤدّي الولدان أحياناً أدواراً مكتوبة، من الواضح أنّهما يحفظانها عن ظهر قلب. غير أن الهدف هو الإبقاء على ذلك الانطباع بمشاهدة أفلام هواة بالانغماس في العائلة، الذي يتيح للمشاهد التماثل إلى أقصى حدّ معهم.

بينما يكبر الولدان، يتبدّل سلوكهما.

في البداية، لا تعير كيمي أي انتباه للكاميرا. كلّ ما يهمّها هو الألعاب ونيل استحسان والدتها. ينظر الشقيق والشقيقة إلى والدتهما خارج حقل الكاميرا. تدريجيّاً، ومع تغيّر الديكور (ولا سيّما مع إنشاء الإستديو العائلي)، يركّز الطفلان النظر إلى العدسة.

بموازاة ذلك، تتبدّل ملابسهما تدريجيّاً. في البداية، يرتدي سامي وكيمي ثياباً خالية من أي علامة فارقة. اعتباراً من العام ٢٠١٧، يظهران في كلّ فيديو بملابس مختلفة: قمصان تي شيرت أو قمصان قطنية طويلة الأكمام تحمل شعار مختلف العلامات الشريكة للقناة أو صور أبطالهما المفضّلين. ولا يظهران مرّتين بالملابس ذاتها.

اعتباراً من أواخر ٢٠١٦، تتبلور اللغة ويتّضح النحو. يردّد سام وكيم بصورة منهجيّة الجمل ذاتها في بداية كلّ فيديو ونهايته، فيحضّان متصفّحي الإنترنت على الاشتراك في القناة ومنحهما لايكات.

اللازمة الافتتاحيّة: «أهلاً بمحبّي الاستراحة! نأمل أن تكونوا جميعكم بخير. نحن بحال جيّدة جدّاً!» ثمّ يُسمع عادة صوت ميلاني تتدخّل لتؤكّد أن الجميع بأحسن حال فعلاً وتسأل ولديها عن تحدّي اليوم (سواء لعبة أم فتح هدايا)، وكأنّ القرار يعود لهما وهي تكتشف الأمر بالتزامن مع المشاهد.

اللازمة الختاميّة (كيم وسام يتكلّمان بالتناوب أو بصوت واحد): «باي باي محبّي الاستراحة! إن أحببتهم هذا الفيديو، لا تتردّدوا في مشاركته! نرسل لكم الكثير الكثير من قبلات النجوم ونحن نحبّكم كثيراً. لا تنسوا الإبهام الصغير إلى الأعلى، وخصوصا: اشتركوا!».

خلال العام ٢٠١٧، وردّاً على الهجمات التي تستهدف القناة، صوّر سامي فيديو مع شقيقته. يظهر قبالة الكاميرا وعلى وجهه

ابتسامة متشنّجة بعض الشيء، ليوضح أنه لطالما كان يحلم بأن يصبح يوتيوبر، وأن حلمه تحقّق. من الواضح أن النصّ مكتوب، وأنّه يسمّعه. بجانبه تجلس كيمي، باسطة يديها على ركبتيها، تهزّ رأسها موافقة بصمت. ينهض سامي ويقوم بما يشبه رقصة، ثمّ يشكر «من كلّ قلبي» جميع الذين يدعمونهما ويحبّونهما. ويختم بهذه الكلمات: «علينا أن نكون مثالاً للأطفال الآخرين الذين لديهم أحلام، وأن نظهر لهم أنّ عليهم أن يؤمنوا دائماً بأنفسهم».

تبدو حماسة كيمي في تراجع منذ بضعة أشهر. بالرغم من ديناميكيّة المونتاج وحضور المؤثرات المتزايد، يمكن أحياناً لمس تمنّع الفتاة أو تعبها الذي لا تحسن إخفاءه بالقدر الذي يخفيه به شقيقها.

في بعض الحلقات التي صوِّرت مؤخّراً، يتيه نظرها أحياناً، وكأن كلّ ذلك لا يعنيها. تنفصل، لا تعود تستمع، لا تعود تنظر إلى الكاميرا، فتتدخّل والدتها في غالب الأحيان لحثها على الإكمال.

عندها، تبتسم مرغَمةً مثل جنديّ صغير شجاع.

*

بعض فيديوهات «الاستراحة السعيدة» تتخطّى اليوم ٢٥ مليون مشاهدة.

تشكّل تحدّيات المأكولات أكبر نجاح للقناة. في زمن المواد الغذائية العضويّة والحميّة النباتيّة، فإن ثمانين بالمئة من المنتجات التي

يعرضها سامي وكيمي تدخل في فئة الطعام غير الصحّي (مشروبات محلّاة ووجبات سريعة وسكاكر).

يُستخدم المعجم الإنكليزيّ بشكل منهجيّ في أسماء الألعاب، إذ من الواضح أنها من وحي القنوات الأنكلوساكسونيّة. بصورة عامّة، فيديوهات «الاستراحة السعيدة» شبيهة بفيديوهات «فريق الحافلة الصغيرة» و«زمرة الدباديب» وغيرها من القنوات المنافسة، إذ تستوحي بعضها من بعض.

تتبع كل هذه الفيديوهات في بنائها الدراميّ الحافز ذاته: التلبية الآنيّة للرغبة. كيمي وسامي يعيشان حلم جميع الأطفال: شراء كل شيء، في الحال.

يُدعى كيم وسام بانتظام للترويج لمدن ملاهٍ وصالات ألعاب. وتخصّص عطل نهاية الأسبوع كلّها تقريبا لهذه التنقّلات.

مرّة في السنة على الأقل، يلتقي الطفلان محبّيهما في حدث يُرتّب عبر تطبيق «ميت آب». تجري هذه اللقاءات في مدن ملاهٍ، يتمّ تصويرها، وتكون هي نفسها موضوع فيديو جديد. كيم وسام يُستقبلان استقبال النجوم. يقف محبّيهما في الصفّ، محتشدين خلف حواجز، وبعد انتظار طويل بمعدّل ساعتين، يغادرون حاملين صورة عليها إهداء. والأكثر حظّاً بينهم يتسنّى لهم التقاط صورة سيلفي مع الطفلين.

يخصّص عدد من مقاطع الفيديو للترويج لمنتجات فرعيّة

تطلقها العائلة (مفكّرات، ألعاب طاولة، دفاتر نصوص، أقلام حبر).

قبل بضعة أيّام من اختفاء كيمي، نشرت ميلاني كلو فيديو بعنوان «الحقيقة حول الاستراحة السعيدة»، تظهر فيه وحيدة. لأوّل مرّة، لا تطلق أي لعبة ولا تروّج لأي منتج. تتكلّم بوجوم. الهدف هو الردّ على مختلف الهجمات المتزايدة على مواقع التواصل الاجتماعي.

تتحدّث ميلاني كلو عن مشروع القانون الرامي إلى تنظيم نشاط الأطفال على يوتيوب، وهو مشروع قانون قيد الدرس تؤكّد أنّها تدعمه. هي وعائلتها تحترمان منذ الآن أي قواعد قد تُفرض مستقبلاً. تتخلّل خطابها بعض التلميحات إلى شبكات منافسة «أقل حرصاً». تتطرّق من جهة أخرى إلى شائعات تناولتهم (سحب الطفلين من المدرسة ومضايقات يُقال إن سامي تعرّض لها في المدرسة)، لتنفيها بحزم. تكرّر مراراً أن كلّ شيء على أحسن ما يرام للجميع، وتختتم في النهاية: «نحن نشكّل عائلة متّحدة جدّاً. طفلانا في غاية السعادة، لديهما أمّ تهتمّ بهما كثيراً، وهذا حتماً ما يثير كلّ هذا الحسد. نحن أقوى من كلّ هذه النميمة. نعرف أنّكم أنتم هنا، وأنّكم تحبّوننا. كلّ ما يحصل لنا، إنّما هو بفضلكم. نحن أيضاً نحبّكم كثيراً كثيراً ونشكركم من صميم القلب: شكراً، شكراً، شكراً».

في صباح اليوم الرابع على اختفاء ابنتهما، تلقّت ميلاني كلو وبرونو ديور ظرفاً أبيض مبطّناً بفقّاعات من حجم عاديّ، خطّ

عليه طفل اسم ميلاني، مجرّد اسمها، وعنوان العائلة الكامل، بما في ذلك المبنى والطابق. لا بدّ أن طفلاً صغيراً، ربّما كيمي نفسها، نسخ الكلمات. تفحّص برونو الخطّ المجتهد، وانسابت قطرات عرق بارد على طول ظهره. حين أدركت ما يحصل، انقضّت ميلاني على الظرف البريديّ ومزّقته، غير آبهة للتعليمات الصارمة التي أعطيت لهما.

«لا تفعلي هذا!» صاح بها برونو.

تجاهلت احتجاجات زوجها ودسّت يدها داخل الظرف. أخرجت منه صورة بولارويد اكتشفت عليها كيمي. تظهر الفتاة الصغيرة في الصورة الملتقطة عن قرب، جالسة أرضاً، ساندة ظهرها إلى جدار أبيض. أمام الصورة، تمالكت ميلاني نفسها عن العويل. بعد ذلك، وجدت في قعر الظرف ما يشبه حزمة صغيرة. حين تأمّلتها بإمعان، تبيّن لها أن الرزمة مصنوعة من ورقة تغليف رقيقة مطويّة عدّة مرّات ومحكمة بشريط لاصق. كانت مرفقة بملاحظة مدوّنة على بطاقة ملساء. قرأت ميلاني الرسالة وانتشرت ارتعاشة يديها في ثانية إلى جسدها بالكامل.

انتزع منها برونو البطاقة وقرأ النصّ بدوره:

إن كنت تريدين رؤية ابنتك مجدّداً،

افعلي ما أقوله تماما.

صوّري نفسك عندما تفتحين الحزمة.

*وانشري الفيديو*

انتصب منتفضاً.

«لا تلمسي شيئاً بعد الآن!».

كانت ميلاني مسمّرة، مطبقة قبضتها على الرزمة.

«يجب أن نخطر سيدريك بيرجيه. هناك بصمات يجب رفعها، سوف نفسدّ كلّ شيء. قالوا لنا هذا ألف مرّة، ميل، إذا تلقّينا اتّصالاً أو تسلّمنا أي شيء كان، علينا الاتّصال بهم على الفور!».

اتّخذ صوته فجأة نبرة حازمة جداً. اقترب منها وحاول فكّ أصابعها.

توسّلت:

«لا، لا، استمع لي! سنفعل أولاً ما يقولون، وبعد ذلك نتّصل. أعدك بذلك».

وقفا بضع ثوان يحدّقان الواحد بالآخر بنظرة تحدّ.

لم يسبق لبرونو أن رأى زوجته في هذه الحالة. كانت شفتاها قد فرغتا من الدم وعيناها كعيني امرأة ممسوسة.

توجّه إلى المطبخ وعاد حاملاً علبة قفّازات مطّاطيّة تستخدمها بين الحين والآخر لتنظيف البيت. أخرج منها زوجاً وناولها إيّاه.

وقفت خلف الطاولة من غير أن تتفوّه بكلمة، وبعد لحظة من التردّد، اختارت الجلوس. ذهب برونو وجلب الكاميرا، ثبّتها على

القاعدة وأشعلها. نظر من خلال العدسة ليتثبّت من أن ميلاني في وسط الإطار كما ينبغي، وتأهّب لبدء التسجيل.

وضعت القفّازين، أخذت نفساً عميقاً وباشرت فتح الرزمة الصغيرة.

كان يصوّر.

حين اكتشفت ما تحويه الورقة، وهو ما بدا له من حيث كان واقفاً شيئاً صغيراً جدّا يكاد لا يُرى، أطلقت عويلاً.

انهارت باكية وقطع التصوير.

اقترب برونو. لم تعد ساقاه تحملانه. كانتا تترنّحان في حركة غير مترابطة، وكأنّهما لا تطيعان دماغه بالكامل.

قبل أن يلقي نظرة على ما اكتشفته زوجته، حرص هو أيضاً على الجلوس، مدركاً أنه إنّما يؤجّل مشهدا قد يجهز عليه.

ثمّ انحنى فوق الورقة الورديّة، فرأى عليها ظفر طفل، ظفراً أملس نظيفاً. اقتُلع من السبابة أو الإصبع الوسطى، على ما يبدو من حجمه.

تمالك نفسه عن تسديد لكمة إلى الجدار، التقط هاتفه واتّصل برقم سيدريك بيرجيه.

في حالات اختفاء قصّر، يُشار بصورة عامّة إلى المشتبه به بالمذكّر «هو». فخارج الدائرة العائليّة، يكون مرتكبو جرائم قتل الأطفال

واغتصابهم بنسبة ٩٨. ٧ بالمئة من الرجال. أمّا عند الخطف مع طلب فدية، يتعيّن استخدام صيغة الجمع، كالقول إن الخاطفين لن يتأخروا في تحديد مطلبهم. فاللغة تطابق الإحصاءات.

رغم ذلك، ظل المحقّقون يستخدمون صيغة المفرد حتّى بعد تلقّي الظرف الذي يحتوي على صورة كيمي ديور والطلب العجيب. كان لا وعي الفرقة يطرح بدون أي سبب ظاهر فرضيّة رجل تحرّك بمفرده. غداة الخطف إذاً، «هو» أودع هذه الرسالة في مكان ما، في أحد صناديق البريد في دائرة باريس العاشرة. استغرقت الرسالة يومين لتصل إلى ميلاني كلو، وكانت مختومة بطابع أخضر، طابع البريد غير المستعجل. لم يكن الخاطف على عجلة من أمره. على صورة البولارويد، كانت الطفلة ترتدي فعلاً الملابس ذاتها التي كانت تضعها يوم اختفائها، والحذاء ذاته أيضاً. كانت كيمي تنظر بتركيز إلى العدسة، رزينة الوجه، بدون أن تظهر عليها أيّ آثار قيود أو إصابة. كانت التعليمات المرفقة بالرزمة مكتوبة بخطّ اليد بأحرف كبيرة. لكن سرعان ما اكتشفت كلارا رسالة ثانية مخربشة بالقلم على ورق التغليف المحيط بالظفر: «لا تنسي الفيديو، وإلّا في المرّة المقبلة تتلقين إصبعاً».

رسالة مزدوجة، كتابة بخطّ اليد، من الممكن تفسير ذلك على أنّه ينمّ عن قلّة احتراف أو نوع من الارتجال. ربّما أيضاً وسيلة تمويه.

«أو إستراتيجيّة مراوغة»، ختم ليونيل تيري.

أمام عناصره، كان الرئيس يبدي حيرته.

كانت الفرقة الجنائية تنتظر منذ البداية طلب فدية. هذه الفرضيّة، إلى جانب شهرة الطفلة، هي التي حملت النيابة العامة على رفع الملفّ إليها. والخاطف لم يطلب في الوقت الحاضر سوى أمر واحد، هو أن تنشر ميلاني فيديو.

نبّهت كلارا: «لكن ليس أيّ فيديو اعتياديّ، بل فيديو لفتح الرزمة، على غرار مئات الفيديوهات التي صورها ولداها».

بعد لحظة صمت، أضافت:

«لكن هذه المرّة، هي من تفتح الرزمة».

كان تاريخ الصورة يعود برأي الخبراء إلى غداة يوم الاختفاء. والظفر الذي أرسل كان فعلاً ظفر طفل في السادسة، لكن تمّ تنظيفه، ما يجعل من المستبعد أن يفضي تحليل أكثر دقّة إلى نتيجة.

يتحتّم الآن على الفرقة الجنائية اتخاذ قرار، ما بين الاستجابة لطلب الخاطف أم لا. في حال طلب فدية، تقضي الإستراتيجيّة بصورة عامّة بكسب الوقت. لكن الخاطف لم يطلب مالاً حتى الآن. لم يحدّد موعداً. كلّ ما طلبه هو فيديو يمكنه مشاهدته من منزله أو من أي مقهى إنترنت، متوارياً وسط جموع المعجبين أو الفضوليّين الذين سيشاهدونه حتماً بصورة متواصلة بلا توقّف، فضلاً عن الخوارزميّة التي ستواصل الترويج له لوقت طويل على ضوء الإقبال الشديد المرجّح عليها. فهل ينبغي الرضوخ للطلب، على أمل أن يوضح الخاطف مطالبه لاحقاً، أو التريّث والمجازفة

بتلقّي إثبات آخر على تصميمه؟ كانت الآراء منقسمة. وبعد جدل خيّم عليه توتّر شديد، حسم ليونيل تيري الأمر: يجب القيام بخطوة في اتجاهه «هو»، إرغامه على الخروج من مخبئه وإقامة اتصال والظهور من جديد.

على ميلاني إذا القيام بما طلبه منها. دار نقاش مجدّداً لمعرفة المنصّة التي ينبغي بثّ الفيديو عبرها، وكان جواب كلارا قاطعاً: يوتيوب هو موقع «فتح العلب».

قرابة الساعة السابعة مساء، نشرت ميلاني كلو إذاً الفيديو الذي صوّره زوجها على قناة «الاستراحة السعيدة»، من مكاتب الباستيون حيث كان حاسوبها لا يزال محجوزاً. كان عنوان الفيديو يقتصر على تاريخ النهار، ومدّته أربعين ثانية، ولم يرافقه أي تعليق. تظهر فيه ميلاني تفتح الرزمة، تصرخ، ثمّ تخبّئ وجهها خلف يديها. مشاهد صامتة، وجيزة، غامضة، لكنّها مشحونة بزخم دراميّ حقيقيّ. كلّ من يكتشفها لأوّل مرّة، حتّى خارج سياقها ومن دون أي شرح، سيدرك أنه لا يرى مقلباً ولا شريطاً مفبركاً. كان الفيديو، بالرغم من قصره، يدعو المشاهد إلى ولوج مأساة. معاناة ميلاني تتحوّل إلى عرض، عرض مشبع بعنف مضمَر سيضمن له حتماً الانتشار الواسع والنجاح.

ربّما كانت هذه تحديداً النتيجة المرجوّة.

وهذا ما حصل. ما إن نشر الفيديو على الإنترنت، حتّى سرت الشائعات التي كانت لا تزال محدودة حتّى ذلك الحين، وعمّت

في ثوانٍ جميع شبكات التواصل الاجتماعي: كيمي ديور خُطفت. استُنسخت مشاهد ميلاني كلو وتوالت التعليقات عليها إلى ما لا نهاية. وكانت معظم التفسيرات تخلص إلى الاستنتاج ذاته: الوالدة تلقّت قطعة من إصبع الطفلة.

كانت كلارا قد بلغت لتوّها الثالثة عشرة من العمر، حين وافق والداها أخيراً على شراء جهاز تلفزيون. بعد سنوات من المناقشات العبثيّة والرفض المتكرّر، اضطرّت إلى استخدام وسائل كاسحة: حملة تعليق لافتات على جدران الصالون والمطبخ، تنظيم حركة احتجاجيّة في عين المكان، إطلاق عرائض وتوزيع مناشير يوميّاً. تشكّلت لجنة دعم على وجه السرعة، تضمّ كلبها ميستيك وابنة عمّها إلفيرا وابن عمّها ماريو. هزّ اعتصام أوّل تحت نوافذ الشقّة قناعات والديها، وقضى اعتصام ثان أمام حجرة الحارس، كان الهدف منه استقطاب مؤيّدين جدد، على تصميمهما. انتصرت كلارا في نهاية المطاف. أخيراً، سيكون بوسعها أن تتحدث مع صديقاتها عن مسلسلات «تشارمد» و«فريندز» و«دكتور كوين». اضطرّت للانتظار حتّى عيد الميلاد ليُترجم انتصارها على أرض الواقع. في متاجر دارتي، اختار فيليب وريجان جهازا متوسّط الحجم، تحتّم ترتيب مكان له في الصالون. وما هي سوى أشهر حتّى كان فيليب يواظب على مشاهدة «آرّيه سور إيماج» و«دي مو دو مينوي»، في حين لا تفوّتُ ريجان أي حلقة من مسلسل «أورجانس». وإن كان الوقت الذي تقضيه كلارا أمام التلفاز لا يزال يخضع رسمياً لضوابط، فإن

أنشطة والديها الكثيرة في الخارج كانت تترك لها هامشاً لا يُستهان به لمخالفةِ الأوامر، وكان فيليب وريجان يغضّان الطرف.

في المساء، حين يكون الثلاثة في المنزل، كان فيليب يحبّ الجلوس بجانبها لتحليل المشاهد. علّمها تدريجيّاً كيف تفكّ رموز المشهد الإعلامي: استخدام صيغة الشرط الافتراضيّة لتمويه غياب المعلومات، الاختزال التقريبي في النشرة الإخباريّة المسائيّة، الإخراج الدراميّ للريبورتاجات أو التقارير الاقتصاديّة، التخييل الطاغي في برامج تلفزيون الواقع. كان فيليب يبدي اهتماماً خاصّاً بأولى الشبكات الإخباريّة العاملة على مدار الساعة، أسلوبها اللغويّ ومعجمها وقدرتها المذهلة على ملء الفراغ. ابتكر مع كلارا مسرحيّة قصيرة عنوانها «الموفد إلى الموقع في تغطية مباشرة من اللّاشيء العظيم»، لم يكونا يفوّتا فرصة لتأديتها.

أدركت كلارا الأمر حين أصبحت بالغة، بعدما رحل والداها: كانت الطفلة الوحيدة المدلّلة لناشطين عاشقين. كان فيليب وريجان أوّل من أنجب طفلاً من بين جميع أصدقائهما. كانا لا يزالان في ريعان الشّباب حين ولدت، وحملاها معهما إلى كلّ مكان. كانت كلارا تشارك في كل الحفلات، كلّ وجبات الطعام في الهواء الطلق. من القصص الطريفة الأحبّ إلى قلبها والتي سمعتها مئات المرّات، قصّة الحفلة التي تلت أول تظاهرة شاركت فيها كلارا حين كان عمرها بضعة أشهر. وصل فيليب وريجان في بداية الأمسية، فوضعا القفّة التي كانت نائمة فيها على سرير مضيفيهما. ثمّ قدم أصدقاء

آخرون ومدعوون آخرون. جالسين في الصالون الصغير المكتظّ، شربوا وتحادثوا. بعد ساعتين، اكتشفت ريجان القفّة مطمورة تحت كومة من الشالات والمعاطف. وفيها، كانت كلارا لا تزال غارقة في النوم، غير آبهة. بات شعور الفزع الذي سيطر عليهما بعد التنبّه للأمر، جزءاً من الأسطورة العائليّة، واستخلص فيليب من الحادث أن ابنته لن تفتقر إلى الجسارة في حياتها.مكتبة .. سُر مَن قرأ

نشأت بين أحاديث البالغين، على وقع كلمات مثل إنجاب وهيمنة وعنف وتمرّد ومعركة والكثير غيرها. كانت منذ طفولتها تعي بوضوح شديد بؤس العالم، والامتياز الذي تحظى به إذ ولدت في المكان المناسب. حين توقّف نموّها في سنّ السادسة، لم يكن سقوطها الفرضيّة الوحيدة التي طرحت لتفسير ذلك. قابلت كلارا على مدى بضعة أشهر طبيباً نفسيّاً أبدى مخاوف حيال نضوجها وبصيرةٍ اعتبرها مقلقة في سنّها. أوصى والديها بحزم بإبقائها بعيداً عن بعض النقاشات.

احتفظت من تربيتها بروح المقاومة والحرص على الالتزام بأعلى المعايير. كانت تسعى للمشاركة في ما يجري من حولها بدون أن تتخلّى عن تساؤلاتها. وبهذه الذهنيّة ذاتها كانت تنظر إلى عملها. تفكّر أحياناً كثيرة في الحبّ الذي كان يربط والديها. كان ذلك مصدر توازن لها. مصدر قوّة بلا شكّ.

لكن اليوم، في وسط هذه الأسطورة التي لا يمكن لشيء أن يعدّلها ولو بصورة طفيفة أو يخالفها، أصبح هذا الحبّ مثالاً بعيد المنال.

بعض القضايا تحرّك الذكريات، الصدمات الماضية. أحياناً يتطرّق الشرطيّون إلى تلك المسائل فيما بينهم، كأنّما رغماً عنهم، لكن من النادر أن يقرّوا بمشاعر تعاطف أو كراهية، أو بأنّ قصّة معيّنة لها وقع في نفوسهم أكثر من سواها. لا بدّ لهم من إظهار صلابتهم، برودة أعصابهم، وليس أحاسيسهم. ذات مساء، لا تزال تذكر الأمر، خرج سيدريك عن صمته. روى لكلارا كم أنّ جرائم القتل الزوجيّة تؤرقه. كان والده عنيفاً حيال أمّه وكاد يقتلها أكثر من مرّة. وفي كلّ مرّة واجه هذه المسألة في سياق عمله، أحسّ بدمه ينتفض. كانت بضع كلمات، بضع صور كافية ليسري في عروقه ويتصاعد قلق تعلّم كيف يكافحه.

خرجت كلارا من الباستيون قبل ساعة من دوامها. أرجأت في بادئ الأمر نزولها إلى المترو، ثمّ قرّرت مرّة جديدة أن تعود مشياً. كانت الآن تسير على طول جادة سان مانديه، غارزة قلنسوة صوفيّة على رأسها ومخبّئة يديها في قفّازين، مدركة أن اختفاء كيمي ديور يعيدها بصورة عجيبة إلى الطفلة الصغيرة التي كانتها هي فيما مضى.

ويحيلها حتماً إلى الطفلة الصغيرة التي لن تنجبها.

على غرار زملائها، كانت كلارا تحبّ العمل في صمت، وبمنأى عن الضوء. «غامضون وبلا أمجاد»، ذلك كان في فترة ما شعار محقّقي الفرقة الجنائية، سواء كان واقعيّا أو وهميّا.

الهدنة انتهت، هي على يقين بذلك. ثمّة قنبلة انفجرت للتوّ

في وسائل الإعلام وعلى شبكات التواصل. من الآن فصاعداً، ستكون كلّ الأضواء مسلّطة عليهم. الأهل، العائلة، الشرطيون، الجيران، لن يفلت أحد من الرادار.

بعد ساعة فقط على بثّ الفيديو، كان حوالى عشرة صحافيين متربّصين أمام الباستيون، فيما تمركز آخرون حول مجمّع «السمكة الزرقاء»، أو غزوا المتاجر في الجوار. كان «الموفدون إلى الموقع في تغطية مباشرة من الّاشيء العظيم» ينشطون. سيبقون هنا حتّى النهاية بأنوفهم الحمراء من شدّة البرد وأيديهم المطبقة على الميكروفون، مترصّدين تفاصيل وقصصاً وفرضيّات وتعليقات.

حين كانت ميلاني تمسح شاشة هاتفها الجوّال بإصبعها إلى اليمين، كانت تظهر عليها تشكيلة من أحدث الأخبار. أنباء عاجلة لم تكن تغفل عن طابعها المدوّي أو المثير أو الفضائحي. لا شكّ أن ذلك ما كان يجعلها تمرّر إصبعها على الشاشة. في الصباح حين تستيقظ، خلال النهار حين تمنح نفسها استراحة لبضع دقائق، في الحمّام، في صفّ الانتظار في السوبرماركت، في المساء، قبل أن تنام بقليل. لو تحتّم عليها أن تقدّر كم مرّة خلال النهار كانت تكرّر هذه الحركة، لبقيت تقديراتها دون العدد الفعليّ. فتلك الإشارة، مجرّد فاصلة ترسمها بإبهامها، باتت بالنسبة لها كما بالنسبة للعديدين وسيلة للبقاء على تواصل مع العالم، أو بالأحرى مع ميل العالم إلى توليد أحداث دراميّة.

هكذا، قرابة الساعة العاشرة من ذلك المساء، تصفّحت ميلاني

للمرّة العشرين الأخبار العاجلة التي ظهرت على شاشة هاتفها الآيفون.

**إيسي.إف إر**

مباشر: الطفلة كيمي، نجمة يوتيوب، مختفية منذ أربعة أيام.

**بي إف إم تي في.كوم**

فيديو الجحيم. بطلب من خاطف ابنتها، والدة الطفلة كيمي تنشر فيديو.

**ويست-فرانس.إف إر**

فيروس الطماطم. تلوّث مثبت في حقل زراعيّ في الفينيستير.

**لوباريزيان.إف إر**

إعانات البطالة: ما الذي سيتغيّر عام ٢٠٢٠.

**الأرصاد الجويّة**

شاتني مالابري

طقس مشمس

احتمال تساقط أمطار: ٢٠٪

في الظروف العاديّة، كانت لتتوقّف عند أول نبأ، وتجري أبحاثاً إضافيّة، مدفوعة بفضول طبيعيّ حيال الحوادث، بالرغم من إحساس مبهم بالذنب. كانت لتقول لنفسها «يا للهول!»، وتشعر

في جسدها بتأثر حقيقيّ، مزيج من الخوف والحزن، أقرب إلى دفق من التعاطف مصحوب بارتياح لكونها غير معنيّة بما جرى. فهي تعرف جيّداً أننا لا ندرك مدى هناء عيشنا إلّا عندما تتراءى لنا الكارثة. عندما ندرك أن الحياة قد تنقلب رأساً على عقب في طرفة عين وتغرق في مأساة، نثمّن الطمأنينة أكثر.

لكن هذه المرّة، لم تكن الضحية المفقودة مجرّد طفلة صغيرة، بل كانت طفلتها هي.

في المساء، نُقلت ميلاني كلو وزوجها تحت اسمين مستعارين إلى «تيم ترافل»، وهو فندق حديث نسبيّاً، على مسافة مئة متر تقريباً من الباستيون. وضع في تصرّفهما جناح صغير، فسيح ومنور. مختبئين في منزلهما منذ اليوم السابق، نجح والدا برونو حتى ذلك الحين في حماية سامي من المصوّرين وإبقائه بعيدا عن التلفاز.

نشرت ميلاني الفيديو، وفي ثانية انطلق عدّاد المشاهدات.

قبل أن تذهب إلى الفراش، دارت في أرجاء الغرفة بضع دقائق، تردّدت قليلاً، ثم لم تتمالك نفسها عن النظر إلى لوحة البيانات الخاصة بقناتها. كان موقع يوتيوب يولّد الإحصائيّات تلقائيّاً.

كان الفيديو الجديد يحتلّ الصدارة على الصفحة الرئيسية، مرفقا بالتعليق التالي «الفيديو الأخير الذي سجّلْته يحقّق أداء استثنائيّاً!».

في ظروف كهذه، كانت ميلاني تدرك العبثيّة والعنف في هذا التعليق الذي تولّده آلة، لكنّه لم يكن بوسعها تحويل نظرها عنه.

من المؤكّد أن الفيديوهات الأخرى على «الاستراحة السعيدة» استفادت من هذا الضوء المسلط على القناة. فكل البيانات كانت في ارتفاع: خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، ازداد جمهور المتابعين بنسبة ٢٤٪، ومدة المشاهدة بنسبة ٢٣٪، والعائدات بنسبة ٣٠٪.

كانت المنصّة تهنّئها بالأحرف العريضة: «**ممتاز! قناتك سجّلت** ٣٢ مليون مشاهدة خلال الـ ٢٨ يوماً الأخيرة. **تهانينا!**».

أعادت ميلاني قراءة التعليقات عدّة مرّات. بعث فيها الإطراء شعوراً بالاعتزاز. بأنّها تلقّت مكافأة.

حين تنبّهت لذلك، تملّكها إحساس بالاشمئزاز. أجل، اشمأزّت من نفسها.

خطرت لها تلك اللذّة التي يشعر بها الواحد أحياناً حين يشتمّ روائح جسده. روائح العرق، سوائل الجسم، الشعر الوسخ. حين كانت طفلة، كانت تخلع جوربيها، ثمّ تحملهما إلى أنفها لتشتمّ رائحتهما.

هذا تماماً ما تفعله الآن.

في صباح اليوم الخامس بعد اختفاء طفلتها، نهضت ميلاني قبيل الساعة السادسة. مضادّات القلق منحتها ثلاث ساعات من النوم. مدّة لا بأس بها.

ما إن استيقظت حتّى عاد القلق إلى الظهور. كان سائل حمضيّ ينتشر في كامل جسمها، ضاغطاً بصورة متواصلة على أنفاسها. في

بعض اللحظات، كانت ميلاني تضبط نفسها حتّى لا تأخذ بالعويل وهي تتمرّغ أرضاً، وفي لحظات أخرى تبحث فقط عن زاوية تتقوقع فيها. كانت تحلم بأن تطمر رأسها داخل مادّة طريّة وتغيب عن الوعي. كانت صور لكيمي تعاودها باستمرار وكأنّها تصعقها، صور ابتسامتها، وجهها الظريف، الحركات التي تقوم بها، حركات طفلة صغيرة. أحياناً في وسط الصمت، كانت تسمع ابنتها تناديها مستغيثة. لم تكن لتتصوّر يوماً عذاباً كهذا، والمجهود الذي يتحتّم عليها بذله الآن لمجرّد أن تقف على قدميها.

حياتهم توقّفت، لكن الوقت لا يزال يجري بالوتيرة ذاتها، ربّما أبطأ بقليل، أجل، ربّما تباطأ، لكنّها لم تكن واثقة تماماً. لم تعد واثقة من أي شيء، وكأنّ جزءاً من قدراتها الإدراكيّة البدائيّة، الأساسيّة، بُتر. أحياناً لا تعود تدري أين هي، ولا الساعة.

إلّا أن الرسالة التي تلقّتها بالأمس أحيت فيها الأمل. كيمي على قيد الحياة.

اقتربت من النافذة. تأمّلت للحظة المدينة وهي تستيقظ. أولى عمليّات تسليم البضائع، أوائل المارّة الخارجين من المترو، وحركة الشاحنات الصغيرة الخضراء التابعة للبلدية ذهاباً وإياباً بلا توقّف. على الإنترنت، بات من المستحيل إغفال النبأ. اختفاء، قُتلت، خطف، فدية، طرف إصبع مقطوع، تلك كانت الكلمات المفاتيح الأكثر تواتراً على ارتباط باسم كيمي ديور. والتكهّنات تنهال بغزارة. البعض يؤكّد من مصدر موثوق أن طلب الفدية يرتفع إلى مليون يورو، والبعض

الآخر يشير إلى التناقضات في القصةّ، والكشف عنها بصورة متأخرة، مرجّحا فرضيّة عمليّة خطف كاذبة دبّرتها العائلة لأهداف دعائيّة.

في اليوم السابق، تلقّت ميلاني اتّصالاً من والدتها. كانت تشهق من البكاء، آخذة على ابنتها أنّها لا تبلّغها بما يجري. من حقّها هي أيضاً أن تعرف. أهل برونو ليسوا الوحيدين الذين يقلقون. بعد كل ما اضطرّت إلى تحمّله من أسئلة وتلميحات وتقصّيات، ها إنّ هاتفها لم يعد يتوقّف عن الرنين منذ أن بات الجميع على علم. استمعت ميلاني إليها تتشكّى وتتحسّر على مصيرها، تردّد «لا تودّين إخبارنا أيّ شيء، لا نهمّك إطلاقاً، لا تدركين ما نشعر به»، من دون أن تتفوّه بكلمة. لم تكترث والدتها لحظة واحدة لتسأل عن حالها، لم تستفهم عن سامي، لم تبدِ أي حنوّ تجاه كيمي أو أيّ كان. اشتكت والدتها من كل هؤلاء الأشخاص الذين يتقاطرون إلى منزلهم أو يطاردونهم باتصالاتهم الهاتفيّة للاستعلام عن مجرى التحقيق، منزلهم أو منزل ساندرا أيضاً، إلى حدّ أنّ شقيقتها اضطرّت إلى سحب أولادها من المدرسة. الوضع برمّته في غاية الصعوبة عليها، تلك التسريبات، ذلك الضغط الإعلامي، خصوصاً وأنها لا تعلم بآخر التطوّرات إلّا عبر الإنترنت. آخر التطوّرات، تلك كانت العبارة التي استخدمتها، فأغلقت ميلاني الخطّ.

أحسّت بما يشبه الخدر على هدير نظام التكييف، فاستسلمت لإحباط عظيم. حاولت والدتها معاودة الاتّصال، لم يخطر لها أن انقطاع الخطّ يمكن أن يكون مقصوداً، لكنّ ميلاني رفضت المكالمة

منذ الرنّة الأولى. تلك الإشارة التي كرّرتها ثلاث مرّات جعلتها تشعر بالارتياح. يجدر بها عدم الإذعان. عليها أن تصمد. لم تكن وحيدة. لديها مجموعة من حولها. عائلة بالقلب. فهي تتلقّى مئات الرسائل في حسابها على إنستغرام. رسائل دعم ومواساة. سيل من اللايكات وقلوب من كلّ الألوان ورموز تعبيريّة تطفح حبّاً.

والدتها لم تستقلّ أوّل قطار لتكون بجانبها. والدتها بقيت في منزلها لتردّ على أسئلة الجيران. ذلك كان أمراً واقعاً لا يمكنها التغاضي عنه. أما مشتركوها، أولئك الذين يتابعونها منذ زمن طويل ويحبّونها، فإنهم هنا. معها. بجانبها. يتمنّون لها التسلّح بالشجاعة ويؤكّدون لها دعمهم.

كان برونو لا يزال غافياً تحت تأثير المنوّم الذي ابتلعه هو أيضا في نهاية المطاف، في وقت متأخّر من الليل. لأوّل مرّة منذ أربعة أيّام، كانت ميلاني جائعة. تردّدت في الاتّصال بخدمة الغرف لطلب فطور، ثمّ قرّرت الانتظار حتّى يستيقظ زوجها.

عاودت النظر من النافذة. كان الضوء يطلع، والحركة ازدادت في المدينة. السير أكثر كثافة، وكان رجال ونساء ينبثقون بأعداد متزايدة من مداخل محطّات المترو. بدت لها خيالاتهم من أعلى وكأنها تنزلق تحت المطر الخفيف. أسفل المبنى، يعبر الترامواي بانتظام، فتُفتح أبوابه مفسحة لصعود ونزول جموع من الركّاب. أشخاص مسرعون، بعضهم منهك، لكنّهم يواظبون على روتينهم اليوميّ. أشخاص لم تغرق حياتهم في بحر من القلق. مكثت ميلاني لبعض

الوقت هكذا، مصلقة أنفها بالزجاج. ثمّ التفتت صوب الغرفة وراحت تراقب زوجها في نومه. كان برونو مستلقياً على ظهره، إحدى ذراعيه ممدودة لصق جسده، والأخرى مثنيّة ترقد فوق اللحاف. كانت ارتجافات طفيفة تعتري جبينه وجفنيه وحاجبيه. لم يكن بإمكان وجهه الاسترخاء، تحت وطأة صور أو انطباعات أو أحلام أشبه بشحنات كهربائيّة متناهية الصغر، لن يحتفظ منها على الأرجح بأي ذكرى. اقتربت ميلاني منه إلى أن أحسّت بأنفاسه. كانت بشرة برونو ملساء. كان وسيماً. يتّبع حميّة غذائيّة صحيّة، لا يدخّن، يمارس عدّة رياضات. كان الرجل الذي لطالما حلمت به. رجل يمكن الاعتماد عليه. تبعها برونو على الدوام. لم يتردّد في ترك عمله لينطلق معها في تلك الحملة الافتراضية التي خاضتها وصولاً إلى القمّة. تخلّى عن مسار مهنيّ واعد كمبرمج كمبيوتر ليتدرّب على التصوير والمونتاج والمحاسبة والمؤثّرات الخاصّة. آمن بها، بطاقاتها، بقدرتها على تغيير حياتهم. كان برونو رجلاً مخلصاً، لن يغدر بها أبداً. كان معجباً بها. كم مرّة سمعَته يقول عن أسرتها ممازحا «زوجتي هي التي تحكم» أو «عليّ العودة إلى الرئيسة للبتّ في ذلك». كان برونو رجلاً عصريّاً. رجلاً طيّباً. وعمليّا. لم يكن بحاجة إلى أن يتولّى القيادة ولا أن يكون رأس العائلة ليثبت رجولته. كان من صنف الرجال الذين يمكن لامرأة أن تعوّل عليهم.

راحت تراقب في العتمة صدره يرتفع ويهبط على وقع تنفّسه. بين الحين والآخر، في صمت هذه الغرفة المعزولة تماماً عن الأصوات

الخارجيّة، كان زوجها يُصدر أنيناً عابراً. شعرت فجأة بالرغبة في مداعبة شعره، تقبيله، لكنّها امتنعت عن ذلك خشية أن توقظه.

خلعت ميلاني ملابسها أمام مرآة الغرفة ووقفت عارية أمام خيالها. اقتربت إلى أن ارتسمت أنفاسها بخاراً على سطح المرآة الأملس. ما عليها إلّا أن تخبط رأسها، مجرّد خبطة حادّة سريعة، وسوف ينشقّ جبينها ويسيل الدم على وجهها. عبرت الصورة ذهنها. ثمّ أدارت ظهرها ودخلت الحمّام مغلقة الباب لتستحمّ.

بينما كانت المياه الساخنة تنساب على بشرتها، توقّفت لتتأمّل نفسها. فخديها، بطنها، نهديها. لطالما حلمت بأن يكون لها جسد آخر. جسد يثير الرغبة منذ النظرة الأولى. جسد فاضح. واضح. مرسوم خصيصاً من أجل الجنس، مثل جسد نابيلا[١] أو سافان أو فانيسا. حلمت بأن تكون لها مثلهنّ ساقان طويلتان ومؤخّرة بارزة صلبة. لم يكن جسدها جذّاباً كثيراً. لم يكن قابلاً للتحسّن كجسد تلك النساء اللواتي يواصلن تحويله وتغييره لجعله أكثر شبقاً. كان جسداً عاديّاً، متوسّطاً، لا أقبح ولا أجمل من ذلك. أنجبت طفلين، ومع الوقت اكتنز جسدها قليلاً وتراخى جلدها. لكنّ نهديها لا يزالان على حالهما. نهدان ممتلئان كثّان ممدودان بصلابة صوب الآخر.

أغمضت عينيها واعترتها صورة: كانت يدان تداعبان نهديها، أو بالأحرى تغلّفانها بالكامل. يدان عريضتان نهمتان. لم تكونا يدي زوجها.

---

(١) Nabilla نجمة من برامج تلفزيون الواقع الفرنسية.

عند خروجها من الدوش، اتّخذت ميلاني قراراً.

سوف ترتدي ملابسها وتخرج وتمشي حتى الرقم ٣٦ من شارع باستيون. عند مكتب الاستقبال، ستطلب التحدّث إلى كلارا روسّيل وستروي لها كلّ شيء.

في صباح اليوم الخامس بعد اختفاء كيمي ديور، صادفت كلارا فور وصولها إلى قسمها سيدريك بيرجيه يشوّر بذراعيه في الممرّ، مستغرقاً في نقاشٍ محتدم على هاتفه الجوّال. أومأ إليها برأسه أن تتبعته حتى مكتبها، فلحقت به.

واقفة أمامه، راحت تتأمّله وهي تنتظر. بدت ملامحه متعبة ووجهه شاحباً. «لم ينم منذ أربعة أيّام»، فكّرت كلارا وهي تبتسم له. جلس سيدريك ريثما ينهي مكالمته وأشار إليها أن تجلس أيضاً. فهمَت وهي تستمع إليه أنه على الخطّ مع فرقة البحث والتدخّل.

لم يكن التواصل الأوّل بينهما سهلاً. وصل صيتها إلى سيدريك بيرجيه قبل أن يعمل معها. كان يُقال عنها إنها مهووسة في طريقة عملها وشديدة الدقّة وعقلانيّة. هي ابنة أستاذين، وخلال مهمّة سابقة، ارتبطت بعلاقة غراميّة مع كابتن، وتلكما قرينتان دامغتان سيلاحقانها أينما ذهبت. سبق أن التقاها مرّتين أو ثلاث مرّات قبل تعيينها في فريقه، فدُهش بمظهرها اليافع وقامتها، قامة راقصة انتقلت إلى سباق الماراتون. ارتاب في بادئ الأمر من السطوة الغريبة المنبعثة منها رغم قصر قامتها، واستقبلها في فريقه من غير أن يخفي تحفّظاته. من النقاط الإيجابية المسجّلة لها، كان يُقال إنّ

بإمكانها العمل ساعات من غير أن تتناول كوب ماء ومن غير أن تُهمل أيّ شيء على الإطلاق. كان من عادته أن يكوّن رأيه الخاص. من جانبها، أبلغته كلارا بأنها مصرّة على أن يُشار إليها بلقب «مأمورة الضابطة القضائيّة» وليس «مأمور» كما هو شائع. لم يكن لسيدريك أيّ مانع، لكنّه لم يدع الفرصة تفوت من غير أن يلفت انتباهها إلى أنّ مأمورة في اللّغة الفرنسية هي على وزن حشريّة وحيزبون، فقالت له إنّ الصّفتين تناسبانها تمام المناسبة. ضحكا معاً لأوّل مرّة. لاحقاً، فوجئ سيدريك بحدسها وانفتاحها الذهنيّ وصمودها الجسديّ. كانت كلارا تتكلّم على غرار شابّات الستّينات اللواتي ينبشهنّ المعهد الوطني للسمعيّات والمرئيّات من أرشيفه، لكنّها لم تكن تفتقر إلى السخريّة الذاتيّة. كان لديه غريزة صيّاد ماهر، فيحسن تكييف نقاط تركيزه وزوايا مراقبته. سرعان ما أدرك أنّها محقّقة ممتازة وأنها ستكون عنصراً بمثابة محرّك داخل فريقه. بعد بضعة أشهر، وبينما كانت تطارد الفريق بمطالبها النحويّة والصرفيّة، مرغمة الجميع بمن فيهم هو نفسه على معاودة كتابة محاضرهم بحجّة، ولو مسرفة قليلاً، أن صورة الفرقة على المحكّ، أطلق عليها لقب «الأكاديميّة».

وهو لقب لازمها.

بعد بضع دقائق، أغلق الخطّ أخيراً.

«هل تعلمين ما الذي اكتشفْته؟».

«لا».

«ابنتاي من هواة الاستراحة السعيدة. وميلاني تحديداً! هما مولعتان بها! كلاهما! يبدو أن الأمر مستمر منذ بعض الوقت، لأنّهما قدّمتا لي عرضاً مقتضباً بكلّ ما حصل في العائلة خلال السنتين الماضيتين. إلى حدّ أنّني على وشك استدعائهما لجلسة استماع. ابنتي الصغرى معجبة بكيمي، في حين أن الكبرى تفضّل سامي. ومنذ أن بات لديها هاتف جوّال، اشتركت الكبرى أيضا في حساب «ميلاني دريم» على إنستغرام. إنّها مفتونة بها. تراها «جميلة جداً ولطيفة جداً، كأنّها جنيّة»، اقتبسُ كلامها. باختصار، تشاهدان ذلك بدون توقّف منذ أشهر، من غير أن ينتبه أحد للأمر، لا أنا ولا زوجتي. لا بدّ أنّنا لمحنا ذلك من بعيد، الموسيقى اللطيفة، طفلان يلعبان، لم تساورنا أي شكوك. طالما أنّهما لا تشاهدان أموراً إباحيّة، نقول لأنفسنا أنّ كلّ شيء على ما يرام، تفهمين ذلك. لم يخطر لنا للحظة كمّيّة الإعلانات التي كانت تُحشر في ذهنهما وكأن شيئاً لا يحدث... تعرفين، أنا واثق أنّ معظم الأهل في وضعنا. لا يرون الضرر من بعيد. كلّ ما في المسألة أنّ أطفالهم يشاهدون أطفالاً آخرين يلعبون، الأمر على قدر من الحماقة في أسوأ الحالات، غير أنّه لا يشكل خطراً. لكن الآن بعدما قرأت مذكّرتك، أقرّ لك بأنني أشعر بمزيد من القلق. أفهم الآن بشكل أفضل لماذا أصيبت ابنتي الصغيرة بنوبة حقيقيّة قبل أيّام في كارفور أمام مجسّمات لشخصيات ديزني بالكاد ظهرت في الأسواق. وشغفها المفاجئ ببسكويت أوريو».

«طالما أنها لا تطلب منك الذهاب إلى أوروبا بارك في نهاية كلّ

أسبوع...».

«وما أدراك كلارا! قبل أقلّ من شهر، سألتني ابنتي الكبرى لماذا لا نذهب إلى مدن ملاهٍ. ما مغزاه نحن، المساكين بلا سلوى ولا متعة، المعوزين والمتعطّلين».

ضحكا معاً. كان لا بدّ من تصريف التوتّر. تابع:

«بالأمس في المساء، تفرّغت لمشاهدة بعض مقاطع الفيديو. أقولها لك بصراحة كلارا، لم أكن أظنّ أنّ مثل هذا الشيء يمكن أن يكون موجوداً حتّى. لا بدّ من رؤية الأمر لتصديقه، أليس كذلك؟ هذا ضرب من الجنون... بجدّ، هل يعرف الناس أن هذا موجود؟».

«الناس، لا أدري. لكنّ مئات آلاف الأطفال والأحداث يحلمون بأن يعيشوا الحياة ذاتها مثل سامي وكيمي. حياة تحت شعار الوفرة».

«وما رأي «الأكاديميّة» في ذلك؟».

«هذا هو تحديداً ما كنت أريد أن أكلّمك بشأنه. تستخدم ميلاني كلمة «تشارك» كيفما تيسّر. تقول «سوف أتشارك ذلك بعد قليل» أو «لدينا الكثير من الأخبار السارة نريد تشاركها معكم». هذا استخدام مقتبس عن اللغة الإنكليزيّة المعمّمة في العالم. لكن الصيغة الأصحّ أننا نشارك شيئاً «مع» أحد».

«الواقع أنهم لا يشاركون ما يُذكر، إن صحّ فهمي...».

صمت سيدريك لحظة ثمّ تابع بنبرة أكثر جديّة:

«مع كل ما جمعَته من مال، هي بالتأكيد على حق حين تقول إن لديها أعداء».

أطرق قليلاً، تائهاً في أفكاره، قبل أن يواصل:

«في مطلق الأحوال، بالمناسبة، ذلك الرجل من «فريق الحافلة الصغيرة»، كان في عطلة مدفوعة التكاليف بالكامل مع ابنتيه في منتجع بمناسبة عيد جميع القدّيسين، وهو يعود اليوم. سيحضر إلى مكاتبنا بعد الظهر. تثبّتنا من الجداول الزمنيّة وبيانات الهاتف، كلّ شيء تمام، لكنّني رغم ذلك أودّ معرفة ما لديه. حسناً...».

كان يبحث ربّما عن عبارة من تلك التي يحبّ اختتام كلامه بها دائماً، لكن لم يخطر له شيء. بدأت كلارا تعرف رئيس فرقتها حقّ المعرفة. هو يفاخر ويتظاهر بالصلابة، لكن الحقيقة أنه بدا ممتعضاً. أحياناً يكون إحساس أو انطباع أو سلوك لا يفهمه كفيلاً بإفساد نهاره بالكامل. كانت على وشك أن تسأله ما باله، حين اعترف لها من تلقاء نفسه.

«تعرفين كلارا، في نهاية الفيديو الثالث، تلك المرأة، ميلاني كلو، وددت لو أجعلها تصمت. وددت لو أقول لها: اتركي ولديك وشأنهما! اتركيهما يعيشان... الواقع أن «الاستراحة السعيدة» تلك، أنا شخصيّاً، لا تفرحني إطلاقاً. لا بل يمكن أن تحبطني. هل تفهمين ما أعنيه؟».

كانت كلارا تفهم جيداً ما يعنيه. البهجة المفتعلة في نبرة الصوت، الإمعان في الألعاب الغبيّة لا بل المذلّة أحياناً، اعتناق الاستهلاك أو الشراء بلا تحفظ ولا تمييز، الإقبال على الأطعمة غير الصحيّة بنشوة تامّة، تكرار الجمل نفسها حتّى الغثيان، كلّ ذلك يبعث فيها، في الشخص البالغ، اضطراباً غامضاً.

كانت كلارا تستعد للردّ على سيدريك حين رنّ هاتفه من جديد. أجاب، أنصت بدون أن يقول كلمة، ملتفتاً إلى كلارا، ثمّ أغلق الخطّ.

«ميلاني كلو هنا. تريد أن تراك. أنت».

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# خطف الطفلة كيمي ديور واحتجازها

مكتبة
t.me/soramnqraa

الموضوع:

محضر ثاني جلسة استماع إلى ميلاني كلو.

أجرتها كلارا روسّيل بطلب المعنيّة في ١٥ نوفمبر ٢٠١٩.

(مقتطفات)

ليس هذا تفصيلاً بسيطاً، لكنّني كنت أعتقد أنّه غير مرتبط بالقضيّة، هذا كلّ ما في الأمر. أجل، الواقع أنّني كنت أقول لنفسي طوال الوقت: هذا لا علاقة له. هذا الصباح، بدّلت رأيي. قلت لنفسي إنّ لا بدّ لي من إبلاغك بالأمر. يجب أن تعلمي أنّني أحب برونو، زوجي. نحن عائلة متّحدة. لم أكن أريد المجازفة بهدم ما بنيناه. (...)

بعد ولادة سامي، عرفنا أنا وزوجي مرحلة برودة. هذا يحصل للعديد من الأزواج. التعب، القيود، الروتين... كل هذه الحياة

الجديدة التي تنتظم حول الطفل ولا تعود تدور إلاّ حوله. عربة الطفل، مقعد السيّارة، قفّة الرضيع، المقعد الهزّار، السرير المتنقّل حين نزور أصدقاء، تعلمين، كل هذه المعدّات التي يتحتّم تركيبها، طيّها مجدّداً، إرشادات الاستخدام تلك، ثمّ المقادير الواجب الالتزام بها لقنينة الحليب، إدخال الخضار إلى طعام الطفل، كلّ هذا سخيف، لأنه في الحقيقة في غاية البساطة، لكنّه بدا لي في ذلك الحين في منتهى التعقيد. عندها، نشأت بيننا شيئاً فشيئاً مسافة ما، وأخذت تتّسع بهدوء. لم نعد نتضاجع كما من قبل، وبعد بضعة أسابيع، لم نعهد نتضاجع إطلاقاً. الواقع أنّني لم أعد أحتمل زوجي. لم أعد أحتمل أن يقترب منّي. كنت أحبّ أن يعانقني، يمسكني من خصري أو كتفي، يداعب وجهي، لكن ما إن أشعر برغبته، حتّى أتشنّج. لم يعد بوسعي احتمال أن يلامسني زوجي. هذا ما حصل. آسفة لقول ذلك لك، أدرك تماماً أنها مسألة حميمة، أنت امرأة، يمكنك ربّما تفهّم الأمر... (...)

عدا ذلك، كان كلّ شيء على ما يرام. لم يحصل مرّة شجار، ولا نوبة غضب، لم يكن ينغّص حياتنا منغّصٌ. كنت أقرأ شهادات أمّهات شابّات على المنتديات، تعرفين، هناك الكثير من الشهادات، ومن المطمئن بالأحرى أن أعرف أن نساء أخريات عرفن ذلك قبلي. استتبّ الوضع، لا بل استقرّ على حاله، وكلّما مرّ الوقت، ازداد الخروج منه صعوبة. في نهاية الأمر، سلّم زوجي برفضي. لم يعد يقوم بأي محاولة. لا مداعبات ولا قبلات حقيقيّة. لزم مسافة.

ذات مساء، خرجت مع صديقة إلى المطعم. كانت صديقة من أيّام المدرسة في فانديه، وجدتها قبل بضعة أشهر بفضل فيسبوك. كانت استقرّت للتوّ في المنطقة الباريسيّة. غير معقول عدد الأشخاص الذين نلتقيهم مجدّداً بفضل شبكات التواصل، هذا أمر رائع، أليس كذلك؟ أرادت معاودة التواصل. كان عمر سامي أكثر من عامين بقليل، وطوال هذا الوقت لم أمارس الحبّ، ولا مرّة واحدة.

تناولنا العشاء في مقهى في الدائرة الرابعة عشرة. كان من النادر في تلك الفترة أن أخرج في باريس. طوال العشاء، على أقرب طاولة إلينا، كان رجل يحدّق فيّ. كان جالساً قبالتي ويتناول العشاء برفقة رجل لم أكن أرى سوى ظهره. حين انتهيا، ترك صديقه يخرج وجلس إلى البار، وحيداً. كان ينتظرني. أدركت ذلك على الفور. كان وجهه ألوفاً، كشخص عرفته ربّما منذ وقت طويل، في فترة أخرى. رغم ذلك، لم يكن بوسعي أن أتذكّر أين يمكن أن أكون التقيته. أنهيت العشاء بتمهّل. كنت على يقين بأنّني سوف أنضمّ إلى هذا الرجل خلف البار. كنت أعلم أنّني أعجبه. لم يسبق أن حصل لي مثل هذا الأمر، ذلك اليقين بأنّ اللقاء يمكن أن يحصل. كان الأمر يتوقّف عليّ وحدي. بعد العشاء، رافقْتُ صديقتي إلى سيّارتها، ثمّ ادّعيت أنّني نسيت شالي. غادرَت، فعدتُ أدراجي ودخلْتُ الحانة. لم يبد متفاجئاً. ابتسم لي. عندها، في تلك اللحظة فقط تعرّفت عليه. (...)

اسمه غريغ. ربّما رأيتِه، كان في أحد المواسم الأولى من برنامج كوه لانتا. لم أكن أعرفه شخصيّاً، لكن على غرار الجميع، رأيته

على التلفزيون. في الفريق الأحمر. ألا يذكّرك هذا بشيء؟ كان لقبه راهان لأن شعره كان أشقر طويلاً، وكان مفتول العضلات. تغيّر كثيراً. اقتربت منه، شربنا كأساً، ثمّ أخرى، أعتقد أنه شعر بالتأثر والإطراء لأنّني تعرّفت عليه بعد كل هذا الوقت، أكثر من عشر سنوات، أجل، أعتقد أنّه كان مسروراً. لم يفز في اللعبة، لكنّه وصل إلى التصفيات النهائيّة. قال لي إنّه يراني جميلة. سألني إن كان بإمكانه دسّ يده تحت كنزتي، فقلت نعم. كان يسكن على مقربة من المطعم، صعدت إلى شقّته وتمدّدنا على سريره. قبل زوجي، لم أضاجع سوى رجل واحد. لم يسبق لي أن مارست الحبّ بهذه الطريقة، أعني بمثل هذا الإحساس بالحرية، وبعدها لم يحصل لي ذلك مجدّدا. صعدت في سيّارتي، كان يغمرني شعور طيّب، وكأنّ جسدي عاد فجأة إلى الحياة، عاود العمل. وكأنها مجرّد مسألة ميكانيكيّة: ثمّة عطل أصاب وصلاً أو دارةً، وقام شخص بقدر من المهارة بإعادة تشغيل المحرّك. (...)

انطلاقاً من تلك اللحظة، قد يبدو لك الأمر غريباً، لكن بات بإمكاني مجدّداً ممارسة الحبّ مع زوجي. ولأكون صريحة معك، في المساء نفسه. أجل، في المساء نفسه. (...)

بعد أسبوع، عرفت أنّني حامل. كان الوقت لا يزال مبكراً، لكنّني أحسست بذلك. (...)

لم أقابل غريغ من جديد، ولم نتبادل حتّى رقمي هاتفينا. كنت أفكّر به أحياناً بامتنان، كمن يفكّر في شخص أنقذه من ورطة.

وضعت القصّة في علبة، علبة جميلة، لكنّها علبة تُقفل بإحكام. تعرفين، النساء تعلّمن ذلك، إخفاء الذكريات التي يجدر عدم استرجاعها، لأنّها تضرّ أكثر ممّا تنفع. أجل، النساء يحسنّ ذلك. بعد أسبوع أو أسبوعين، اشتريت اختباراً للحمل أعطى نتيجة إيجابيّة. لاحظت بوضوح أن برونو شعر ببعض الخيبة حين أعلنت له أنّني حامل، كنّا استعدنا للتوّ حياةً جنسيّة، لكن الإجهاض لم يكن وارداً، لا من حيث تربيته ولا من حيث تربيتي. (...)

قرّرت عندها أن الطفل طفله. اتّخذت القرار وكأنّ الأمر يتوقّف على مشيئتي، ومشيئتي وحدها. (...)

ولدت كيمي، وبدا لي كلّ شيء أبسط. كانت ظريفة للغاية. تعلّمت الكلام باكراً جداً، كانت متّقدة الذكاء وكان الجميع مولعاً بها. بدأتُ أصوّر مقاطع الفيديو لأنّني أردت أن أتقاسم ذلك مع آخرين، تلك اللحظات الرائعة. رأيت كيف تجري الأمور في الولايات المتحدة مع بعض العائلات، وقلت لنفسي لمَ لا نفعل ذلك نحن أيضاً؟ استغرق الأمر عدّة أشهر للوصول إلى مئة ألف مشترك. ثمّ فجأة تسارع التطوّر، وبعدها أخذ سامي يشارك في مقاطع الفيديو، وتعرفين ما تبقّى. (...)

بعد قليل على عيد ميلاد كيم الرابع، اتّصل غريغ. كنت أنشأت للتوّ حسابي على إنستغرام «ميلاني دريم» استكمالاً لقناتنا على يوتيوب، بعث لي رسالة خاصّة. كان يريد أن يراني. كان لذلك وقع الصدمة عليّ، لا يمكنك تصوّر الأمر. شعور يفوق الوصف.

كنت نسيت وجوده. أجل، نسيته. «شطبته عن الخريطة» كما يُقال. حدّدت له موعداً في باريس. كنت خائفة. خفت أن يدمّر كلّ شيء. تقابلنا في مقهى، على مقربة من الحانة حيث التقينا في المرّة الأولى. لم ينتظر حتّى أن يجلبوا لنا ما طلبناه. سألني إن كانت كيمي ابنته. كان الأمر يجول في باله منذ وقت طويل، يجد أنها تشبهه، وهو أجرى حساباته. قلت له لا، إنّها صورة طبق الأصل عن زوجي، وهو أسمر لكنّ شعره هو أيضا كان أشقر حين كان طفلاً. أخرج غريغ من محفظته صوراً له طفلاً، وحتّى لو أنّني قلت له «أه أجل، ربّما»، محاولة اتّخاذ بنبرة من يريد فقط عدم مشاكسته، إلاّ أنّني شعرت بقلبي ينقبض لأنّ كيمي تشبهه. هو أيضاً. فهي تشبه برونو كثيراً، الكلّ يقول ذلك. تملّكني ما يشبه الدوار. ظننت أنّ حياتي ستنهار. كانت هذه نهاية كلّ شيء. كل ما كنت أبنيه، عائلتنا، نجاحنا، حلم اليقظة هذا الذي كنّا نعيشه منذ بضعة أشهر، كل ذلك سيزول. ظننت أن غريغ طلب منّي المجيء لابتزازي. كانت الصحف بدأت تتحدّث عن دخلنا، وبث التلفزيون تقريراً أو تقريرين. أمّا هو، فتصدّرت صورته غلاف «تيلي ستار» و«تيلي سيت جور»[1]، عرف قسطه من الشهرة، لكن بعد «كوه لانتا» عادت الأمور إلى سالف عهدها. كان يرى نفسه مقدّم برامج تلفزيونيّة أو صحافيّاً رياضيّاً. الحقيقة أنّه بقي مناظراً في مدرسة خاصّة. حين تمالكت نفسي، سألته كم يريد. نظر إليّ بحزن كبير. كان هادئاً. لم يكن يريد مالاً. كان

(١) Télé Star وTélé 7 jours مجلّتان تنشران أخبارا ومحتويات تتعلّق ببرامج الإذاعة والتلفزيون الفرنسيين.

يريد أن يرى الطفلة، لمرّة، مرّة واحدة، كان يعتقد أن هذا سيكفيه ليكوّن رأيه. هذا كلّ ما كان يطلبه منّي. وبعد ذلك، لن أعود أسمع به إطلاقاً. ردّد لي أنّ هذا كلّ ما يريده. فقط أن يعرف. في مطلق الأحوال، لم يكن لديه ما يقدّمه لها. كان وحيداً ومتعباً. لن تجد ما تتعلّمه من شخص مثله. أذكر أنّه قال لي «فشلت في كلّ شيء، ماذا تريدينني أن أفعل بطفلة؟» شعرت بالحسرة. تحدّثنا قليلاً، قلت له إنّني سأفكّر في الأمر وسأرتّب لقاءً، وغادرت. في السيّارة، خطر لي أنّه قد ينتحر، بدا لي محبطاً تماماً، وأعترف لك أنّني تمنّيت ذلك للحظة، أجل، تمنّيت لو يعود إلى منزله ويبتلع خزانة أدويته كاملة، ربّما كان ذلك أبسط بكثير. أخجل من نفسي لأنّني فكّرت كذلك، لكنّني كنت خائفة جدّاً أن أخسر كلّ ما لديّ.

رتّبت الأمر ليلتقي كيمي بعد ظهر يوم أربعاء في صالون شاي في باريس. هو الذي كان يعرف المكان. اصطحبت معي الطفلين، لم يكن بإمكاني القيام بغير ذلك، وإلّا لبدا الأمر مريباً. قلت لهما إنّني سوف ألتقي صديقاً قديماً كنّا معاً في المدرسة. شربنا كوباً من الشوكولا، كانا كلاهما في غاية الرزانة. عادةً تتململ كيمي طوال الوقت، لكنّه هذه المرّة بقيت هادئة، جالسة منتصبة الظهر. وكأنّها الطفلة المثاليّة. كان لوجود غريغ وقعٌ شديد عليها، رأيت ذلك بوضوح. هو أيضا كان متأثّراً. كان يراقبها خلسة، لم يكن قادراً على النظر في عينيها من شدّة تأثّره. لم يتبادلا سوى بضع كلمات. هي طلبت قطعة ميلفوي، حلواها المفضّلة، بالكاد لمستها.

في السيّارة، في طريق العودة، سألني سامي إن كان يستطيع أن يخبر والده بأنهما قابلا غريغ. غير معقول قدرة الحدس لدى الأطفال. الأمر مروع. أجبته أجل، بالطبع، أنا نفسي أخطرت والده بأنّني سألاقي صديقاً لم أره منذ زمن. عدنا إلى المنزل، تناولت كيمي دودو وسخة ثمّ تمدّدت قليلاً. لم نتكلّم في الأمر مجدّداً بعد ذلك الحين.

هذه هي القصّة. ظننت أنّه سيعاود الاتّصال بي. أنه سيطلب منّي مبلغاً من المال في نهاية المطاف. لكن لم تردني أخباره إطلاقاً فيما بعد. تابعتُ حسابه على فيسبوك. بعد بضعة أشهر على لقائنا، رأيت أنه غادر إلى أستراليا للعيش هناك. لم يعد ينشر شيئاً منذ سنتين. لا شيء إطلاقاً. أحياناً أطبع على شريط البحث على غوغل «غريغ» و«كوه-لانتا»، لأرى إن كان سيظهر أي شيء. أحياناً أيضاً أضيف كلمة «توفّي»، لا أحد يدري. (...)

كان يجدر بي أن أفاتحكِ بالمسألة من قبل، أعرف. قلتِ لي ذلك مراراً: يجب تقصّي كلّ الخيوط. أدنى تفصيل، أدنى ذكرى، حتى الأكثر تفاهة ظاهريّاً. إنّني متأسّفة... (...)

تعلمين، أنا واثقة من أن كيم ليست منه. كلّما كبرَت، أصبح شعرها داكناً أكثر، رأيتِ بنفسك، وازداد شبهها بزوجي. لكن هذا الصباح، خطر لي أنّ عليّ أن أخبرك ذلك مهما كان. لا أحد يدري، أليس كذلك؟ أفضّل لو أنّ زوجي لا يعلم بالمسألة إطلاقاً، يمكنك تصوّر ذلك. هل هذا ممكن برأيك؟

لم يكن من الصعب العثور على اسم غريغوار لاروندو وعنوانه. لم يُمضِ سوى عام واحد في أستراليا حيث عمل في عدّة مزارع، ثم مضيفاً في مطعم فرنسي في ملبورن. وعند انتهاء صلاحية تأشيرته، عاد إلى فرنسا. أكّد تحقيق سريع في الجوار أنه عاد للعيش في منزل والدته، في شقّة من ثلاث غرف في الدائرة الرابعة عشرة من باريس. كان هاتفه يتّصل ببرج الإرسال في العنوان المذكور. المعلومات الأوّليّة التي جمعها المحقّقون تعكس صورة رجل وحيد وقليل التواصل. كان عاطلاً عن العمل منذ عودته، ووالدته هي التي تتكفّل بإعالتهما على ما يظهر.

تمكنت الشرطة الجنائية خلال بضع ساعات من تحديد عنوان بروتوكول الإنترنت الخاص به والكشف على نشاطه على يوتيوب. كان غريغوار لاروندو يدخل بانتظام على قناة «الاستراحة السعيدة»، وقضى الشهر الماضي حوالى خمس عشرة ساعة يشاهد مقاطع فيديو لكيم وسام. يكفي أن يكون يتابع أيضاً الستوريز على حساب «ميلاني دريم» حتى يكون على اطّلاع بجدول العائلة بالتفصيل: العودة المعلنة إلى المنزل بعد التسوّق في «فيليزي ٢» ولعبة الغمّيضة التي بدأت في الساعة ١٥ ,١٧. من الدائرة الرابعة عشرة، كان لديه ما يكفي من الوقت تماماً ليأتي في سيّارة والدته، سيّارة توينغو حمراء قديمة بحسب سجلّ تسجيل السيّارات.

قرّر سيدريك بيرجيه القيام بمداهمةٍ صباحيّة. كان من المقرّر أن تلتقي المجموعة في الباستيون ليتسنّى لجميع العناصر التزوّد

بالمعدّات وحضور إحاطة قصيرة. من غير المستبعد أن تكون كيمي ديور في الشقّة. طلبت كلارا أن ترافقهم، فهي سئمت لزوم مكتبها حيث تدور على نفسها.

في الساعة الخامسة، ابتلع عناصر فريق بيرجيه فنجان قهوة، ثم ارتدى كلّ منهم سترته الواقية من الرصاص. كانت كلارا تحبّ لحظات الاستعداد تلك، الانفعال المحموم إلّا أنّه مضبوط، طقطقة أسلحة الخدمة عند تلقيمها، الخزائن المعدنيّة التي تُغلق على عجل.

كانوا خمسة. استقلّوا سيّارتين من المرآب، جلس سيدريك وسيلفان في الأولى، وصعدت كلارا وماكسيم وتريستان في الثانية. الشوارع لا تزال مقفرة في تلك الساعة.

بينما كانوا يتوجّهون بصمت إلى ذلك الرجل الذي أصبح خلال ساعات قليلة المشتبه به الأوّل، فكّرت في ميلاني كلو. أو بالأحرى في الأسلوب الذي تتكلّم به تلك المرأة. مزيج عجيب من الاعترافات الحميمة والجمل الفارغة النمطيّة. كانت ميلاني تقول أشياء مثل «نحن عائلة متّحدة جدّاً» أو «لم أكن أريد المجازفة بهدم ما بنيناه»، أو كذلك «أنا مع طفليّ دجاجة حاضنة، أتعلمين». عبارات كأنّما تردّدها آليّاً مثل ببّغاء، سواء عمداً أو لاشعوريّاً. من أين تأتي تلك الكلمات؟ من الإنترنت؟ أو من مسلسل تلفزيوني؟ استمعت كلارا إليها بدون أن تتدخّل، تركتها تسرد قصّتها وتستفيض. هذا ما تعلّمت القيام به. أن تترك الآخر يتكلّم أولاً. على أن تعود لاحقاً إلى كلّ من تلك الجمل إذا استدعى الأمر. أحياناً يجلس

الموقوف قبالتها وهي على يقين بأنّه يكذب. فهي تحسن فكّ رموز لغة الجسد. لكن لم يكن هذا ما أحسّت به أمام ميلاني كلو. تلك المرأة جاءت تكشف لها سرّاً، سرّا جازفت بكتمه حتّى ذلك الحين. شعرت كلارا بالحنوّ حيالها. فهي تجد ميلاني كلو مؤثّرة في يأسها وقلقها، وفي الوقت نفسه ثمّة فيها ما لا يسعها احتمإله، نوع من إنكار الواقع أو التعامي عنه.

كانت ميلاني كلو تستعرض أمومتها كمن يرفع راية. أن تكون أمّاً مثاليّة، فوق أي ملامة، تلك هي اليوم هويّتها الجوهريّة. أفضل دور تؤدّيه. لم يكن هناك الكثير من النقاط المشتركة بين حياتيهما. لطالما عاشت كلارا وحيدة، وهي لا تعرف شيئاً عن رتابة الحياة الزوجية ولا التحوّلات المرتبطة بالأمومة. لكنّ الأمر لم يكن مجرّد فارق في المنظور، بل كانت تعجز حتّى عن فهم لغة تلك المرأة.

قبيل الساعة السادسة، سلك سيدريك وسيلفان شارع موتون دوفرنيه. وجدا موقعاً لركن السيّارة قرب الهدف، فيما أوقف الثلاثة الآخرون سيّارتهم في الشارع الملاصق. دخلوا المبنى معاً مستخدمين شارة فيجيك[1] وصعدوا الأدراج بصمت. في تمام السادسة، دقّوا على الباب.

بعد بضع دقائق، سُمع صوت خطى تقترب كمن يجرجر قدميه، ثم سأل صوت امرأة «من هناك؟» عرّف سيدريك بيرجيه عن نفسه

---

(١) شارة ابتكرتها دائرة البريد الفرنسية تسمح للمقيمين وموظفي دوائر الخدمات الرسمية بالدخول إلى المساحات المشتركة في المباني.

وعرض بطاقته أمام عين الباب. فُتح الباب وظهرت امرأة ستّينيّة قصيرة القامة. بدت مذهولة ودعتهم يدخلون. بقي سيدريك قربها، فيما راح عناصر المجموعة يتفرّقون بصمت في الشقّة.

«صباح الخير سيّدتي. هل ابنك هنا؟».

«نعم... إنّه نائم في غرفته».

«هل هو بمفرده؟».

«أجل...».

«إذا، إن سمحتِ، سوف نوقظه».

كان سيدريك بيرجيه معروفاً بحسّ اللباقة الذي لا يتخلّى عنه حتّى في أشدّ الأوضاع الحرجة، لا بل يمضي فيه أحياناً إلى حدّ العبثيّة. أشارت السيّدة بيدها إلى الممرّ. كان الباب الأول مفتوحاً على غرفة فارغة، والباب الثاني مغلقاً. أشار سيدريك إلى محققّيه أن يفتحوه بدون أن يدقّوا.

نهض غريغوار لاروندو منتفضا في سريره، مخبول. لم يكن يرتدي سوى سروال داخليّ، فطلب أن يُسمح له بارتداء ملابسه. كانت حركاته المرتبكة تكشف عن ذهوله. نجح رغم ذلك في ارتداء قميص تي شيرت وبنطال جينز على وجه السرعة، وانضمّ إلى والدته في الصالون حيث جلس بجانبها. عندما رأته جالساً هكذا، متقوقعاً على الكنبة، استذكرت كلارا على الفور رسمة سامي. لا شكّ في الأمر. ذلك الفتى الطويل القامة المسترسل الشعر، الراكب

خلسة الذي رسمه الطفل تحت الطاولة كمن يخفي كومة غبار تحت البساط، كان هو فعلاً.

أُبلغت الوالدة وابنها بالمداهمة التي بدأت على الفور. لم يبد أيّ منهما أدنى مقاومة.

بعد ثلاث ساعات، تحتّم الإقرار بأن عملية التفتيش التي أجرتها مجموعة بيرجيه لم تعطِ أيّ نتيجة. لا أثر لكيمي ديور، ولم يُعثر في المكان على أيّ عنصر قد يوحي بأنّها أقامت في الشقّة. كما أن والدة غريغوار لاروندو كانت تعير سيارتها التوينغو الحمراء منذ العام السابق لابنتها، ولم تكترث يوما لتعديل أوراق تسجيلها. هذا ما سمح لها بتحرير موقفها في المرآب لتأجيره.

قبيل الظهر، وافقت الوالدة والابن بدون أي صعوبة على مرافقة المحقّقين حتّى يتمّ الاستماع إليهما في مكاتب الفرقة. وجرت مصادرة بعض الأغراض بينها كمبيوتر غريغ وهاتفه الجوّال.

حين وصلوا عند مشارف محطة «بورت دو كليشي»، مكثوا رغم صفّارات الشرطة ما لا يقلّ عن نصف ساعة عالقين وسط زحمة متراصّة من السيّارات والشاحنات يصعب الخروج منها. كانت الأشغال لا تزال متواصلة إلى ما لا نهاية عند التقاطع.

لدى العودة إلى مكتبها، شعرت كلارا أنها منهكة. كانت بحاجة إلى كافيين. لكن الشعور الطاغي كان خيبة الأمل، لا بدّ من الإقرار بذلك. سيناريو الأب البيولوجي الذي ظنّ أنه عثر على

ابنته على يوتيوب قد يكون ينطوي على قدر من الرومنسيّة، لكنّها آمنت به. سواء كان غريغ لاروندو والد الطفلة البيولوجيّ أم لا، هذا الخيط ينهار فعليّاً. وبعد بضع ساعات، سيجدون أنفسهم من جديد فارغي الأيدي.

لم يعد أمامها سوى أن تنكبّ على العمل مجدداً.

قراءة الوثائق نفسها ومعاودة قراءتها عشرات المرّات، ترتيبها، استعراض الصور والمخطّطات بحثا عن دليل قد تكون أغفلته، حفظ الجداول الزمنيّة والمعطيات الجليّة والنقاط المحجوبة عن ظهر قلب، تلك كانت مهنتها. أحياناً، من وسط كل هذه «الإجراءات»، هذا الكمّ من الأوراق الذي يتكدّس تحت أنظارها كأنّها بفعل عمليّة تكاثر لا مفرّ منها، كان ينبثق رمز، تفصيل طفيف، يلقي فجأة الضوء على الملفّ برمّته. أو خلال ليلة شاقّة قضتها تراجع كلّ ما لديها، تُفتح فجأة طريق أمامها بفعل كلمة أو ترابط أفكار.

لكن هنا، لم تكن تتراءى لها أي طريق. بل على العكس، بدا لها أن كلّ المخارج المحتملة أغلقت.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# خطف الطفلة كيمي ديور واحتجازها

**الموضوع:**

محضر جلسة الاستماع إلى فابريس بيرو.

أجراها في ١٦ نوفمبر ٢٠١٩ سيلفان س.، الرقيب أول في الشرطة المناوب في الفرقة الجنائية في باريس.

تمّ التوضيح للسيّد بيرو أنه يجري الاستماع إلى إفادته بصفته شاهداً، ويمكنه في أي لحظة وقف الجلسة.

**عن هويته:**

اسمي فابريس بيرو.

ولدت في ١٥/ ٣/ ١٩٧٢ في بانتين.

أقيم في الرقم ١٥ شارع لا شومينري في بوبيني (٩٣).

إنّني مطلق.

لديّ حقّ حضانة ابنتيّ ميليس (٧ سنوات) وفانتازيا (١٣ سنة).

أدير قناة «فريق الحافلة الصغيرة».

**عن الوقائع (مقتطفات):**

بالطبع أنا على علم، الخبر على كلّ لسان. ابنتاي تخافان في الشارع الآن. خصوصاً الصغرى، تشعر بالهلع لفكرة أن يتمّ خطفها. لكن برأيي، لا دخان بلا نار. (...)

أجد الأمر محزناً للطفلة، ما يحصل لهم. محزن جدّاً. تعلمين، ميلاني كلو ربّت الكثير من الأعداء. لا بدّ أنك تبلّغت ببعض المناقشات الحادّة قليلاً بيننا، أنا وهي، أتصوّر أنّ هذا هو سبب وجودي هنا، لكن صدّقني، ثمّة كثيرون يعتبرون أنّها تمضي أبعد ممّا ينبغي. ومع ذلك، تسمح لنفسها بأن تعطيَ الدروس. تدّعي أنها استوحت من القنوات الأميركيّة. الحقيقة أنّها نسختني منذ البداية. في فرنسا، أقولها بلا تبجّح، أنا كنت السبّاق. يمكنك التثبّت من ذلك. ميلاني كلو، هي، لم تخترع شيئاً. كل التحدّيات، كل الألعاب، كلّ الأفكار، هل تعرف أين تجدها؟ في فريق الحافلة الصغيرة! أنا أرى ما يفعلونه في الولايات المتحدة، هذا صحيح، لكنّني أكيّف، أحسّن، أبتكر! أمّا هي، فتسرق يميناً ويساراً، خصوصا من عندي، وتقوم بالشيء نفسه. يكفي أن تنظر إلى التواريخ. أَنشر فيديو جديداً مع ابنتيّ، «بابا يقول نعم لكل شيء لمدة ٢٤ ساعة»، يحقق نجاحاً كبيراً، بعد أسبوع تطلق «ماما تقول نعم لكلّ شيء لمدة يوم». راجع قوائم النسخ السابقة على يوتيوب، التواريخ بغنى عن شرح... أنا انطلقت من لا شيء.

في البداية، اشتريتها كلّها بنفسي، المنتجات، شوكولا كيندر، ألعاب ليغو، لعب باربي. استثمرت. بعد ذلك، اتّصلت بي العلامات التجارية. أمّا ميلاني كلو، فبدأت مدّعية الترفّع، من نوع «أصوّر ابنتي الصغيرة تغني أغنية للأطفال، لست هنا إطلاقاً للقيام بنشاط تجاري»، لكن سرعان ما اتّضح الهدف.

سؤال: في مطلق الأحوال، لا يقتصر الأمر عليكما فقط، هناك قنوات عائلية أخرى؟

جواب: نعم، نعم، هناك العديد منها الآن. أكثر من مليون مشترك، هناك ثلاث: الاستراحة السعيدة، وزمرة الدباديب، ونحن. القنوات الأخرى، نادي اللعب ولعبة مضحكة، وكلّ ما تبقّى، كلّها جاءت لاحقاً. لكن الواقع أن بعضها تتدبّر أمرها بشكل جيّد إذ تتموقع في فئة محدّدة. فيليسيتي مثلاً، تعرفها؟ والدة الطفلة التي أطلقت اسمها على القناة، هي ملكة جمال الكوت دازور سابقا. تتوجّه إلى جمهور من «البنّوتات الكتاكيت»، وتبلي جيّداً. الواقع أنّنا نعرف بعضنا جميعاً إلى حدّ ما. هناك جماعات... أنا وابنتاي نتّفق جيّداً مع ليام وتياغو من زمرة الدباديب. يسكنان في النورماندي. حتّى إننا صورنا مقاطع فيديو معهما لمشتركينا. نتكاتف. أما ميلاني كلو، فلعبت اللعبة على الدوام منفردة. منذ البداية. لا تأبه للآخرين، لا مبادئ أخلاقية لها، كلّ ما تريده هو كسب المال. هل رأيت البيت الذي يشيّدونه؟ أه! لم تكلّمكم عنه؟ وكلّ المنتجات الفرعيّة تلك، المفكّرات، الدفاتر، سوف ترون، قريباً

تطلق علامتها التجاريّة لملابس الأطفال ومستحضرات التجميل للأمّهات. أنا على استعداد للمراهنة على ذلك.

(...)

سؤال: هل سبق أن التقيت ميلاني كلو وطفليها؟

جواب: أجل، أجل، رأيناهم عدّة مرّات. خلال لقاءات ميت آب، في أكوا بارك أو أوروبا بارك، أو شيء من هذا القبيل. كانت عدّة قنوات عائليّة مدعوّة. التقينا أيضا خلال «باريس غايم ويك»[1]، العام الماضي أو العام السابق، لم أعد أذكر. هناك حصل الصدام. هي لا تصبّح مرّة، تلك المرأة. تتظاهر بأنّها لا تعرفنا.. أنا لست من النوع الذي يتراجع، فذهبت إليها وقلت لها إنّني سئمت تلميحاتها. كان هناك شهود، وأحدثت المسألة ضجة كبرى على الإنترنت. هذا لأنّها ردّت على عدّة مقابلات قالت فيها إنها «هي» تحترم القواعد المرعيّة. وفي كلّ مرّة، تحرص على الإشارة إلى أن هذا لا ينطبق على الجميع. هي تستهدفني أنا بكلامها. لكن هل رأيت عدد الفيديوهات التي تصوّرها كلّ أسبوع؟ وأسلوب الكليبات التي تنشرها الآن؟ شخصيّاً، بوسعي أن أؤكّد لك أن ذلك يستغرق الكثير من الوقت: يجب إجراء تمارين، تكرار اللقطات.. ثمّة ديكور وإخراج، طفلاها يكدّان في العمل مثل الجميع. إذاً؟ لماذا لا تعترف بالأمر؟ أنا شخصيّاً، طفلتاي تعشقان ذلك. هما تطالبانني بالتصوير، وإلّا تشعران بالملل. لكن عندما تسمح ميلاني كلو لنفسها بالتلميح إلى أنّني أقضي وقتاً

(١) Paris Game Week معرض سنوي لألعاب الفيديو ينظم في باريس.

أطول منها في تصوير الفيديوهات، وأنّني لا ألتزم بفترات الاستراحة المحدّدة لبنتيّ أو أنّني أنفق كل أموالهما.. هذا يثير جنوني.

سؤال: هي قالت ذلك؟

جواب: لا تذكر إطلاقاً اسمنا. هي أكثر دهاء من ذلك. هل رأيتها، فيديو سامي التي يدافع فيها عن والدته ليشرح أنّه لا يتمّ استغلاله؟ يبدو أشبه برهينة! طفل مسكين... لا يمكنك تصوّر سيل الشتائم الذي تعرّض له على شبكات التواصل الاجتماعي: ابن الماما المدلّل، لوطيّ صغير، متزلّف باب أوّل، وأجنّبك الأسوأ بينها.

سؤال: اليوم، قناة الاستراحة السعيدة تخطّتكم بفارق كبير، كيف تفسّر ذلك؟

جاوب: شرحت لك ذلك للتوّ، هي تسرق من الجميع. بصراحة، لا أحسدهم. أقرّ بأن ابنتيّ تعرّضتا لنكسة كبيرة حين تخطانا سام وكيم. حتّى ذلك الحين، كانتا الملكتين. كانتا تعتزّان بأنّهما الأوليان. وهذا طبيعيّ. إذاً تلقّتا ضربة قوية، قطعاً. خصوصا ميليس، الصغرى، خِلتها ستنهار بين ذراعيّ. لم تفهما لماذا كان الناس يفضّلون كيم وسام. يتهيّأ لها أنه لم يعد هناك من يحبّهما. شرحت لهما، ليس المهمّ أن نكون الأوائل. المهم هو كلّ هؤلاء الأطفال الذين ما زالوا يشاهدوننا ويعتمدون علينا. لأنّ العجلة تدور، أليس كذلك؟ الخلاصة، نعم، ميلاني كلو تجاوزتنا، لا يمكنني قول عكس ذلك. لكن في الوقت الحاضر، من دون تبجّح، أفضّل أن أكون في موقعي على أن أكون في موقعها.

تقضي الأعراف السائدة بأن يتقاسم رؤساء المجموعات في الشرطة الجنائية مكاتبهم مع مساعديهم، غير أن سيدريك بيرجيه شغل مكتبه لفترة طويلة وحيداً. لم يكن هناك تهافت لمشاطرته المكتب، وهو معروف بمزاجه المتقلّب، المتأرجح بين فترات طويلة من الصمت المطبق ونوبات غضب مفاجئة. حين انضمّت كلارا إلى فريقه، باغت الجميع إذ عرض عليها المكان الشاغر بجانبه. كان يريدها أمام ناظريه على الدوام. وافقت بدون تردّد. فهي معتادة التعايش المحفوف بالمخاطر، وقدرتها على التركيز عالية إلى حدّ أنها قادرة على العمل حتى وسط حفل هارد روك. أمهلتها التوقّعات أسبوعين، لكنها خالفت كلّ التكهّنات، إذ تشاركه بلا صدامات منذ عدّة سنوات مساحة ضيّقة نسبيّاً. حتّى إنّها رفضت قبل بضعة أشهر وبالتوافق معه عرضاً لمنحها مكتباً لها بمفردها.

جالسة أمام الكمبيوتر، كانت كلارا تنهي قراءة محضري الاستماع اللذين وجدتهما في سلّتها في الصباح، حين تلقت اتصالاً من المختبر. استمعت إلى المتّصل لحوالي أربعين ثانية، ثم أغلقت الخطّ. التفتت فوراً إلى سيدريك لتنقل إليه المعلومات: الظفر الذي تلقته ميلاني كلو لم يكن يحتوي على أي أثر حمض نووي. إن كان عليه دم، فتمّ تنظيفه بصورة جيّدة.

فكّر سيدريك للحظة.

«ما لا أفهمه كلارا، هو أن الرجل لم يظهر إطلاقاً منذ أن نشر الفيديو على الإنترنت. هو يعرف أنّهم ينتظرون تعليماته. فإمّا أنّه

يتلاعب بنا، أو أنه يبحث عن أفضل وسيلة تكفل له وضع يده على المبلغ المالي الذي سيطلبه في نهاية المطاف. تمّ تعميم صورة الطفلة على جميع مراكز الشرطة، ويجري التنصّت على هاتفي الوالدين، ونشرت ثلاث فرق تجول باستمرار في الدائرة العاشرة».

حاولت كلارا تحويل مجرى الحديث قليلاً.

«هل تلقّيت أنباء من مجموعة الإنترنت؟».

«لا شيء يذكر. على يوتيوب، كل التعليقات معطّلة منذ العام ٢٠١٩ تحت الفيديوهات التي تصوّر أطفالا، بسبب ما يندسّ بينها من محتويات مغرضة، لا بل تمتّ ببساطة إلى التحرّش الجنسي بالأطفال. كان بعض المعلنين يهدّدون بسحب ميزانياتهم الإعلانيّة. على إنستغرام، تقول ميلاني كلو إنها تمضي فترة من الوقت كلّ يوم تزيل التعليقات السلبية أو حتّى العدائيّة. أما بالنسبة إلى عناوين بروتوكول الإنترنت، فإنّ رصد مستخدم مشبوه ليس بالعمليّة السهلة، إذ أن الأطفال يشاهدون الفيديوهات بشكل متواصل. مهما يكن، نجحوا في إجراء مطابقة مع السجلّ الأمني، وتعرّفوا على أربعة أشخاص سبق أن رُصدوا أو أوقفوا لتنزيلهم صوراً إباحيّة عن أطفال، يشاهدون بانتظام الاستراحة السعيدة، مع ميل خاصّ إلى للفيديوهات الصيفيّة التي يرتدي فيها الطفلان ملابس خفيفة أو ملابس سباحة. كان اثنان منهم في المنطقة الباريسية عند حدوث الوقائع. جرى التثبّت من جدولهما الزمني، ومن الآثار الرقمية التي تركها هاتفاهما الجوالين يوم الخطف. المؤشّرات الأوّلية تضعهما

خارج دائرة الشبهات. في مطلق الأحوال، يبدو منذ بدء هذا التحقيق أن أي فرضية لا تصمد أكثر من ثلاث ساعات».

«وماذا عن غريغوار لاروندو؟».

«لاروندو ووالدته كانا فعلاً في منزلهما ليلة الخطف. هي أجرت اتصالاً هاتفيّاً استمرّ نصف ساعة من خطّها الثابت، وهو عاد حوالى الساعة السادسة والنصف من نزهته اليوميّة: الجولة ذاتها على الدوام، مروراً بجادة الجنرال لوكلير ثمّ جادة رينيه كوتي وشارع بيزوه. رآه الجيران يخرج ويعود. أنتظر نتائج تسجيلات كاميرات المراقبة، لكن هناك احتمال كبير ألّا يكون خالف عاداته. هو مكتئب وحياته تنتظم وفق روتين ثابت لا يتزحزح عنه. كما أنّني لا أعرف ماذا يمكن أن يكون فعل بالطفلة، بما أنّنا لم نعثر على شيء في الشقة، وأنّه ليس هناك ما يبرّر فرضيّة شريك. يمكننا القول إنها عودة إلى المربّع الأوّل».

«الخاطف سيظهر من جديد قطعاً».

«إنه يعمل على إضعاف صمود الوالدين النفسيّ، يختبرنا، وبعد ذلك سيقدم الفاتورة».

«هل تعتقد أنه سيطلب مبلغاً من المال؟».

«آمل ذلك كلارا. وإلّا، فهذا يعني أنّه مختلّ فعلاً، ولن يكون ذلك نبأ سارًا. وأنت؟ إلى أين وصلت؟».

«قمت بكلّ ما ينبغي. نقلتُ العناصر التي طلبتَها منّي إلى

القاضية المكلّفة بقضيّة كلير، أتممتُ محاضر ضمّ التحقيقات في قضية روشيه... راجعتُ آخر جلسات الاستماع في قضية ديور».

تردّدت في المضيّ أبعد، لكنّ سيدريك بدأ هو أيضاً يعرفها جيّداً.

«ماذا تريدين؟».

ابتسمت له قبل أن تكمل.

«أودّ مشاهدة كل الستوريز. كل التي بثّتها ميلاني في الأشهر الماضية في حسابها على إنستغرام والتي بقيت في الأرشيف. أودّ تنزيلها على حاسوبي لمشاهدتها الواحدة تلو الأخرى بهدوء».

«هذا ليس مطابقاً كثيراً للأصول...».

«ليس سوى برنامجٍ صغير وبعض البيانات التي يترتّب نسخها. لدينا أجهزة تنجز ذلك على أفضل وجه...».

انتظرت ثانيتين أو ثلاث ثوان قبل أن تضيف:

«أريد أن أفهم».

كانت ميلاني كلو تبدأ كلّ ستوري متكلّمة بمواجهة الكاميرا. مؤخراً، غيّرت مرّة جديدة تسريحتها معتمدة قصّة أكثر تدرّجاً تبرز خصلاتها المجعّدة، ونمط ملابسها الذي بات يظهر بمزيد من الوضوح ميلها إلى نقشات الأزهار، كلّما سمح لها تطوّر وضعها المالي والشركات الراعية لحساباتها باقتناء المزيد من البدلات.

مع الوقت، تحوّلت ميلاني كلو إلى ميلاني دريم. اكتسبت صورة تختلط فيها الإثارة بالقصص الخرافيّة والحياة المنزليّة في آن، مازجه بمهارة بين الرموز والأنماط.

لكنّ ميلاني دريم تبقى قبل أيّ شيء والدة كيم وسام. أمّ جنيّة تنظّم سعادتهما وتشرف عليها. كانت تقضي النهار من الصباح إلى المساء في تجاذب متواصل بينها وبين ولديها، بحيث لا يمكن فصلهما عنها ولا هي عنهما، فتروي نهارهما، منتجة ما يشبه برامجاً من تلفزيون الواقع العائليّ ذاتيّ الإدارة، مع جهات راعية محجوبة بدرجات متفاوتة. كان الهدف الأوّل إعطاء كلّ من المشتركين الإحساس بالانتماء إلى القبيلة العائليّة.

بدأت كلارا بمشاهدة أقدم الستوريز، إذ يسمح لها الأرشيف بالعودة إلى العام ٢٠١٦، ثمّ تقدّمت إلى شتاء السنة السابقة، وانطلاقاً من هناك، تركت البرنامج يعرض المشاهد تباعاً بحسب تسلسلها الزمني.

كانت الأيام تتعاقب وتتكرّر وفق نسق لا يتبدّل، فتبدأ وتنتهي بالعبارات ذاتها: «صباح الخير أحبّائي، آمل أن تكونوا جميعاً بخير!» و«هذا كلّ شيء أحبّائي، أتمنّى لكن ليلة هانئة وأرسل لكم ضمّة من قبلات النجوم!».

شيئاً فشيئاً، غاصت كلارا في عالم ابتلعها. بدا صوت ميلاني كلو الذي تتلاعب بنبرته إلى حدّ الإسراف، وكأنّه يستحوذ عليها على مرّ ما تبوح به من أسرار وأخبار. كانت كلارا مدركة للإحساس

الذي يبعثه فيها، ما بين الافتتان والاشمئزاز. تلك المشاهد لها قدرة لا يمكن إنكارها على إثارة الإدمان.

زادت ميلاني في الأشهر الأخيرة وتيرة التصوير. فبات نقل يوميّاتها يبدأ ما إن تستيقظ، وراحت المناسبات تتزايد باطّراد. أدنى نشاط، أصغر حدث، أتفه تنقّل، كانت تجعل منه موضوع ستوري.

كانت ميلاني تصوّر كيم وسام في سريرهما، في غرفتهما، في المطبخ، في الصالون، عند العودة من المدرسة، أمام التلفاز، منكبّين على الفروض المدرسيّة أو أمام جهازيهما اللوحيّين، في الشارع، في السوبرماركت، في السيّارة، في الغابة، في حوض السباحة. تظهر فجأة بدون سابق إنذار شاهرة هاتفها الجوّال، وتعلّق على المشاهد.

لم تكن عين الكاميرا تغفل عن أي لحظة أو أي مكان، باستثناء الحمام والدوش. دفاتر المدرسة، سجلّ العلامات المدرسيّة، الرسوم، السريران قبل توضيبهما، تصوّر ميلاني كلّ شيء. وما لا يمكنها إظهاره بالصورة، ترويه بالصوت. ترفع تقارير بكلّ تفصيل، على غرار موفدة خاصة داخل منزلها. وإذا حصل مكروه وغيّبها المرض أو التعب أو إذا قضت لمطلق سبب بضع ساعات بدون أي إطلالة، كانت تعتذر لمشتركيها عن ذلك.

كما بالنسبة لفيديوهات يوتيوب، يمكن الاكتفاء بمشاهدة هذه الصور من بعيد، وفي هذه الحال تبدو بلا شكّ بريئة، أو اتخاذ قرار بالتمعن فيها عن كثب.

من المؤكّد أن الشعور بالانقباض هو نتيجة التكرار.

وسط تعاقب تلك المشاهد، تجلّى أمر بوضوح. سلوك كيمي تبدّل في الأسابيع الأخيرة. أحياناً كان مجرّد تفصيل بسيط، تعبير على وجه الطفلة أو حركة تراجع أو إشارة تكْبتُها محاولةً التهرّب من الكاميرا. لكن في أحيان أخرى، كان ضيق الفتاة فاضحاً. ودّت مراراً لو تضمّها بين ذراعيها. تنتزعها من الصورة. تخرجها من هناك.

فيما كان سامي يحاول الظهور في مظهر لائق، فيبتسم ابتسامة آليّة أو يرفع إبهامه موافقاً، كانت كيمي تحتمي بصورة متزايدة تحت قلنسوة سترتها أو تدير ظهرها. وكأنها تحاول الاختفاء.

أمام هذه المشاهد، ودّت كلارا لو تقول «اقطَع!» وتطفئ كلّ شيء.

أعادت تشغيل البرنامج، فاجتاح صوت ميلاني الغرفة مجدّداً. كانت كلارا تراقب الفتاة على الشاشة، لا تحيد عنها بنظرها ثانية.

في ستوري تعود إلى أواخر الصيف صُوِّرت في محلّ النظّارات «أوبتيك فوتور»، طرحت ميلاني استفتاء على مشتركيها لاختيار نظّارات سامي. كانت تتوجّه إلى كيمي سائلة رأيها، لكنّ الطفلة بقيت جالسة على كرسيّ من غير أن تجيبها، والإرهاق ظاهر عليها.

ما إن خرجوا من المحلّ، حتّى أعلنت ميلاني نتيجة التصويت: عملاً بنصائح «أحبّائها»، فازت نظّارات جاكادي على سواها!

كان سامي يبتسم للكاميرا فيما تقف كيمي في الخلفيّة مطرقة تائهة. بعد بضع ثوانٍ، تنبّهت إلى أنها في حقل الكاميرا، فأخفت وجهها خلف «دودو وسخة» في حركة منهكة سئمة.

في ذلك اليوم، بدت كيمي وكأنها استسلمت، عاجزة عن خوض اللعبة والابتسام والتظاهر.

في ستوري أخرى تعود إلى يوم أربعاء من شهر أيلول، كانت ميلاني تصوّر الشقيقين يوقّعان التشكيلة الجديدة من مواد القرطاسيّة التي أطلقتها «الاستراحة السعيدة».

جالسين جنباً إلى جنبٍ في ردهة متجر كبير، كان سامي وكيمي يواجهان حشداً من الأطفال والفتيان الذين قدموا مع أهلهم من جميع أنحاء المنطقة للقائهما. كانت ميلاني تعلّق على المشهد، مشيدة بحجم الإقبال وطول صفّ الانتظار. بدت كيمي مرهقة، متكئة إلى مرفقها.

بعد الحصول على توقيع على مفكّرتهم أو دفترهم، كان معظم الأطفال يطلبون قبلة أو صورة سيلفي.

كلّما كان طفل يقبّلها، كانت كيمي تمسح خدّها بكمّها، جاهدة لإخفاء اشمئزازها. وكان حزن هائل ينبعث من تلك الحركة.

في مرّة أخرى، فيما كانت العائلة بكاملها مدعوة على ما يبدو لقضاء عطلة نهاية أسبوع في «فنتازيا بارك»، وجدت كيمي نفسها محتجزة في حمّام غرفة الفندق، بعدما علق نظام إقفال الباب. تطلّب

الأمر تدخّل فنّيّ صيانة وشكّل إنقاذ الطفلة موضوعاً لعدّة ستوريز. وفي نهاية المطاف، لم يكن بالإمكان تقديم أي تبرير مقنع لما جرى. وبعد إخراج الطفلة، سألها الفنيّ في أيّ اتجاه حاولت أن تفتح القفل، فلم يكن بوسع كيمي الإجابة. وختمت أمّها «إنها متعبة».

قبل أيام قليلة من اختفاء كيمي، حفظت ميلاني مشهدا مروّعاً. كانت تبحث عن ابنتها في كلّ أرجاء الشقّة، حين وجدتها وحيدة في وسط استديو التصوير.

كانت كيمي جالسة على كرسي بمواجهة الكاميرا.

وكما في غالب الأحيان، اقتربت ميلاني منها وهي تصوّر المشهد حاملة هاتفها الجوّال بيدها.

«ماذا تفعلين هنا حبيبتي؟ تعرفين جيّداً أنّه ممنوع دخول الإستديو بدون الأهل، أليس كذلك؟».

لم تردّ الفتاة.

«هل أردتِ تصوير نفسك؟».

هزّت كيمي رأسها إيجاباً بعد وقت.

«ماذا كنت تريدين أن تصوّري، وحدك هكذا في الإستديو؟».

شهقت الفتاة قبل أن تجيب.

«أردت أن أقول وداعاً لمحبّي الاستراحة السعيدة».

«وداعا؟».

«أجل، وداعاً إلى الأبد».

لم تكن كيمي تنظر إلى العدسة، بل إلى والدتها.

كانت تترقّب جواباً، محدّقة بأمّها بعينين تملأهما الدموع فيما يرتجف ذقنها.

عندها، أدارت ميلاني الكاميرا صوبها وخاطبت مشتركيها: «حسنا، هل رأيتم ذلك؟ نفذنا بريشنا! كيمي أرادت أن تستودع المسرح الغنائيّ!».

ثمّ أضافت موجّهة طرفة عين متواطئة إلى الكاميرا، وهي لا تزال تنظر إلى العدسة وليس إلى ابنتها: «لكن يا حبيبتي أنت أصغر سنّاً بكثير من أن تقولي وداعا، تصوّري كل معجبي الاستراحة الذين يحبّونك وسوف يحزنون جدّاً!».

شعرت كلارا بكآبة فظيعة تطبق عليها. كانت تتنفّس بمشقّة، فأوقفت الفيديو مؤقتاً من جديد. بقي وجه ميلاني كلو عالقاً على شاشتها، متجمّداً في ابتسامة مقدّمة برامج، حوّله أحد فلاتر إنستغرام إلى ما يشبه وجه لعبة برموش طويلة وبشرة مخمليّة وحدقتين زرقاوين حالكتين. فمها أيضا بدا أكثر بريقاً ومنتفخاً قليلاً.

دحرجت كلارا كرسيها مبتعدةً عن الصورة.

«من هي تلك المرأة؟» سألت فجأة بصوت عالٍ.

لم يكن من الممكن إغفال الحاجة إلى تقدير الآخرين التي كانت ترشح من تلك المشاهد. ميلاني كلو تريد أن ينظر إليها الآخرون

ويتابعونها ويحبّونها. عائلتها كانت نتاجاً، إنجازاً، وطفلاها بمثابة امتداد لها. كانت تجد حتماً في سيل الرموز التعبيرية التي تتلقّاها كلّما نشرت صورة، الإطراء الذي تحصده على ملابسها أو تسريحة شعرها أو مكياجها، تعويضاً عن ثغرة أو ملل. القلوب واللايكات والتصفيق الافتراضي، كل ذلك بات اليوم محرّكها، السبب الذي تحيا من أجله. وكأنّها تجني عائدات استثمار عاطفي ووجدانيّ لم يعد بإمكانها الاستغناء عنها.

فتحت كلارا درج مكتبها بحثاً عن لوح من رقائق الحبوب أو كيس حلوى قد تكون تركته هناك. كانت تتضوّر جوعاً، إلّا أنه لم يكن بوسعها اتخاذ قرار بالعودة إلى منزلها. راحت تنقّب تحت أقلام الحبر والأوراق، فلم تعثر سوى على قطعة مسكة قديمة. قرّبت كرسيها وتفرّست من جديد في الوجه المسمّر على الشاشة.

الاحتمال الآخر هو أن تكون ميلاني كلو امرأة أعمال مخيفة. أدركت كيفيّة عمل الخوارزميّة، وتكامل وسائل الإعلام، وواجهة شبكات التواصل الاجتماعي التي لا غنى عنها. لم تتحوّل إلى جنيّة فحسب، بل إلى رئيسة مؤسّسة. كانت ترتّب جداول العمل والتصوير والمونتاج والإعلام، وتخطط قبل أكثر من ستّة أشهر لتنقّلات عائلتها. لم تكن تترّك أدنى تفصيل للصدفة. يجب أن يبقى سامي وكيمي تحت الأنظار كلّ يوم. عطلات نهاية الأسبوع والعطل المدرسية كانت تسمح بالاستجابة للدعوات إلى الفنادق ومطاعم الوجبات السريعة ومدن الملاهي. كلّها لحظات ستشكل

لاحقاً مادة لمقاطع فيديو جديدة. كان يتحتّم توزيع الحبّ على كلّ الذين يشاهدونهم. إرسال لهم «ضمّات من البوسات» وكومات من «قبلات النجوم»، وإعطاؤهم الإحساس بأنهم يقاسمونهم كلّ شيء. «التشارك» هو استثمار. تشارك الأسرار، العلامات التجاريّة، القصص الطريفة، تلك كانت وصفة النجاح. ومنذ أن انطلقت ميلاني على شبكات التواصل، لم تتوقّف العدّادات عن الارتفاع.

تنهّدت كلارا وشرعت في جمع أغراضها.

ماذا لو كانت تسلك طريقاً خاطئةً... كانت تتساءل من هي ميلاني كلو، لكن هذا السؤال لا معنى له. ميلاني كلو ليست استثناء. بل هي تماماً مثل فابريس بيرو والوالدين من زمرة الدباديب وأمّ فيليسيتي، مثل عشرات البالغين الذين أنشأوا شبكات باسم أطفالهم، ولا يرون أي مشكلة في عرض أولادهم على الملأ أو الإسراف في عرضهم. وهم ليسوا وحيدين في هذه الحالة.

يكفي النظر إلى منصّات التشارك ليتبيّن أن مفهوم الحميميّة بصورة عامّة تطوّر تطورّاً جذريّاً. الحدود بين الداخل والخارج سقطت منذ زمن طويل. ذلك الاستعراض للذات وللعائلة ولليوميّات، السعي إلى اللايكات، كلّ ذلك لم تخترعه ميلاني. إنّه اليوم طريقة عيش، طريقة إثبات الوجود في هذا العالم. ثلث الأطفال الذين يولدون لهم وجود رقميّ سابق لهم. في إنكلترا، تشارك أهل مع متابعيهم جنازة ابنهم بعد أيام قليلة على وفاته. وفي الولايات المتحدة، قتلت فتاة صديقها عرضاً أثناء تصوير فيديو

مثيرة بقصد أن تحرز انتشاراً واسعاً. وفي أصقاع العالم، تتقاسم مئات العائلات حياتها اليوميّة مع ملايين المشتركين.

تبادرت إلى ذهن كلارا فرضيّة ثالثة: تلك المرأة ليس ضحيّة ولا جلّاداً، إنّها امرأة عصرها. عصر من الطبيعي فيه أن يصوَّر الواحد قبل أن يولد حتّى. كم من الصور بالموجات فوق الصوتيّة تنشر كل أسبوع على إنستغرام أو فيسبوك؟ كم من صور أطفال وعائلات وصور سيلفي؟ ماذا لو أن الحياة الخاصّة لم تعد سوى مفهوم بالٍ تخطّاه الزمن، بل أسوأ من ذلك، مجرّد وهم؟ كانت كلارا تعرف ذلك أكثر من سواها.

لا حاجة ليظهر الواحد حتّى تتمَّ رؤيته وتعقّبه والتعرف عليه وتسجيله وأرشفته. المراقبة عبر الكاميرات وإمكانيّة تتبّع الاتّصالات والتنقلات والمدفوعات، تلك الآثار الرقميّة الغفيرة التي نتركها في كلّ مكان بدّلت طريقة تعاملنا مع الصورة والحميميّة. وكأنّ كلّ هؤلاء الأشخاص يقولون «ما نفع الاختباء إن كنّا مرئيّين إلى هذا الحدّ؟ وربّما هم على حقّ.

بمقدور أيّ كان اليوم إنشاء حساب على يوتيوب أو إنستغرام ومحاولة كسب جمهور أو مشاهدين. بوسع أي شخص استعراض نفسه ونشر مضامين غزيرة لإرضاء مشتركيه أو أصدقائه الافتراضيّين أو بعض الفضوليين المتلصّصين العابرين.

باستطاعة أيّ شخص اليوم أن يتصوّر أن حياته جديرة باهتمام الآخرين ويحصد الدليل على ذلك. أيّ شخص يمكنه اعتبار نفسه

شخصيّة مرموقة، واحداً من مشاهير العالم، والتصرّف على هذا الأساس...

الحقيقة أن يوتيوب وإنستغرام حقّقا حلم كلّ مراهقٍ: أن يكون محبوباً، أن يكون له متابعين، أن يكون له معجبين. وأي وقت مناسب لاغتنام هذه الفرصة.

ميلاني امرأة من عصرها. الأمر بهذه البساطة. وليكون لها وجود، عليها أن تراكم المشاهدات واللايكات والستوريز.

كانت كلارا تشعر أحياناً بحزن شديد، وكأنها خارج زمنها تماماً. لم يكن ذلك أمراً جديداً. لكنّ هذا الإحساس ازداد خلال السنوات الأخيرة، وبالرغم من أنه لم يكن مريراً، فهو بات يؤلمها. فاتتها عتبة، مرحلة، محطّة. هي التي تلقّت روايتي «١٩٨٤» و«فهرنهايت ٤٥١» هديّة يوم بلوغها الرابعة عشرة، هي التي شبّت بين بالغين لا يتوانون مرّة عن التنديد بانحرافات زمنهم (كيف كان والداها لينظرا إلى الزمن الذي تعيش فيه الآن؟)، هي القادمة من عالم يتحتّم فيه باستمرار التشكيك في كلّ شيء وتحليل كلّ شيء، شاهدت القطار يرحل من غير أن تتمكن من الصعود فيه. كان والداها على خطأ. ظنّا أن «الأخ الأكبر» سيتجسّد في قوّة خارجيّة شموليّة متسلّطة سيتحتّم التمرّد عليها. لكنّ «الأخ الأكبر» لم يُضطرّ إلى فرض نفسه، بل استُقبل بأذرع مشرّعة وقلوب متعطّشة إلى اللايكات، وقبِل كل واحد بأن يكون سجّان نفسه. حدود الحميميّة انزاحت. الشبكات تحجب صور الصدور والأرداف. لكن من أجل نقرة أو قلب أو

إبهام مرفوع، نعرض أطفالنا، عائلتنا، نروي حياتنا. كلّ واحد بات يدير استعراضه الخاص، والاستعراض أصبح عنصراً لا غنى عنه لتحقيق الذات.

لم يكن السؤال المطروح من هي ميلاني كلو. بل إنّ السؤال معرفة ما الذي يقبل العصر به ويشجّعه، أو يبجّله حتّى. والإقرار بأنّ أولئك الذين لم يعد بإمكانهم على غرارها التحرّك فيه بدون أن يتعجّبوا أو يستنكروا، إنّما هم غير مؤهّلين ومتخلّفون عن زمنهم، لا بل رجعيّون.

تمكّنت كلارا أخيراً من إطفاء الكمبيوتر. شعرت بعظام عنقها كأنّها مفتّتة. لملمت أغراضها على عجل، أطفأت أضواء المكتب وخرجت من الباستيون. في الخارج كان الهواء منعشاً. سلكت طريقها الاعتيادية.

من سواها كان سيشاهد هذه الفيديوهات وهذه الستوريز حتى الإنهاك؟ لا أحد.

لكن ماذا لو كان الجواب هنا؟ في ذلك التصادم بين عالمين. ذلك العالم الافتراضي الذي له قواعده وشخصيّاته المعبودة، وعالمها هي حيث صور الوفرة العجائبيّة والبهجة المصطنعة تلك لا تولّد سوى الحزن والقلق.

كانت تفكّر في الطفلة. طوال الوقت.

في حركة جسدها الطفيفة للتراجع إلى الخلف. في نظرتها حين

تدخل أمّها الغرفة حاملة بيدها هاتفها الجوّال. تلك النظرة التي تفتّش لثانية عن المخرج.

أيّاً كانت الصورة التي ستستبقيها كلارا في نهاية المطاف عن ميلاني كلو، كانت واثقة من أمر:

لن يكون بإمكان أي قانون وقفها.

بعد ستّة أيّام على خطف كيمي ديور، وصلت رسالة جديدة إلى مجمع «السمكة الزرقاء». أخطر الحارس على الفور الفرقة، وفي أقل من ساعة تمّ وضع اليد على الرسالة ونقلها إلى الباستيون.

كانت ميلاني وزوجها قد وصلا للتوّ إلى مركز الشرطة الجنائية بمواكبة محقّقَين. كانت ميلاني شاحبة أكثر من أيّ وقت مضى وبدت مترنّحة على قدميها. كان برونو يساند زوجته، وكان واجماً متوتّراً، أقل ودّاً من الأيام السابقة. كان هزل وبدت ملامحه انهارت.

بمواجهة جزعهما، نسيت كلارا التساؤلات التي ساورتها بالأمس. رأت مجدّدا في الزوجين ديور والدي طفلة صغيرة مفقودة. والدان منهكان ينهشهما القلق.

كما في المرّة السابقة، كان العنوان مكتوباً بقلم حبر جافّ بيد طفل والظرف أرسل من الدائرة العاشرة. عرض سيدريك على ميلاني الجلوس خشية أن تغيب عن الوعي، ثمّ وضع قفّازين مطاطيّين ومزّق الظرف بعناية. اكتشف صورة بولارويد جديدة

لكيمي، جالسة على كرسي مطبخ. كانت الصورة ملتقطة عن مسافة قريبة، والجدران البيضاء خلفها لن تكشف لهم أي تفاصيل إضافية. كانت تحدّق بالعدسة.

نظرة جديّة ثاقبة لا يمكن سبرها.

ثمّ بسط سيدريك بيرجيه الرسالة المرفقة بالصورة وقرأها بصوت عال.

«أشتري حريّة ابنتي».

هذا هو عنوان الفيديو التالي الذي ستسجّلينه.

قدّمي هبة بقيمة خمسمئة ألف يورو

لجميعة طفولة في خطر.

أعلني هذه الهبة على يوتيوب

وأبرزي الإثبات على التحويل المصرفي.

إن قمت بما أقوله

قبل انقضاء ٧٢ ساعة،

سيتم إطلاق سراح الطفلة.

ليس إنستغرام

من يتحكّم بنهارك. بل أنا.

كان ثمّة شيء لا يزال متبقّياً في قعر الظرف. أدخل قائد المجموعة

يده وأخرج سنّا حليبيّةً صغيرة. أخذت ميلاني ترتعد. انتشلت الصورة رافضة إفلاتها. استغرق الأمر بضع دقائق لإقناعها بتركها للشرطة الجنائيّة العلميّة حتّى تتمكّن من تحليلها ورفع أي آثار قد يكون الخاطف تركها عليها. لم يتمّ العثور على أي بصمات على الصورة السابقة، لكنّ الشرطة تمكّنت من تحديد نوع الآلة المستخدمة وعلامتها التجاريّة وسنة صنعها.

فيما كان سيدريك بيرجيه يرافق الوالدين في وقت لاحق إلى الطابق الأرضيّ، حاول طمأنتهما، شارحاً أن الفتاة على قيد الحياة وأن الخاطف قدّم طلباً. إنّها أنباء سارّة، سواء كانت جديّة، أو مجرّد خدعة للحصول على المال. سوف تنعقد مجموعة الأزمة بصورة عاجلة لتقرر التدابير الواجب اتخاذها على ضوء هذا التطوّر. وفي مطلق الأحوال، المحقّقون يواصلون عملهم، فيراقبون المنزل ليل نهار ويسيّرون دوريّات خاصة في الدائرة العاشرة ويحلّلون تسجيلات كاميرات المراقبة ويتثبّتون من كل الإفادات التي تجمع عبر الرقم الخاص المحدّد للقضيّة.

في الساعة الحادية عشرة، خرجت ميلاني مع برونو من الباستيون. سيكون النهار طويلاً. أفلتا من الصحافيّين بمرورهما عبر النفق. عندما وصلا إلى جادّة بيرتييه، اقترح برونو على ميلاني أن يمشيا قليلاً قبل أن يقبعا مجدّداً في غرفة الفندق، لكنّها لم تعد تمتلك القوّة لذلك.

كانت ساعة مضت على عودتهما إلى جناحهما، حين قرّرت

ميلاني أن تملأ المغطس لأخذ حمّام. كانت متجمّدة من البرد، ولم يكن بوسعها أن تتدفّأ.

بجانبها، كان برونو يذرع الغرفة، عاجزاً عن الجلوس.

لم يتبادلا منذ اليوم السابق سوى بضع كلمات. ساندها برونو حتّى مقرّ الفرقة الجنائيّة، وفي مكتب سيدريك بيرجيه. اتّكأت عليه كما تفعل منذ سنوات، لكنّه لم يضمّها بين ذراعيه. لم يمسك يدها، ولم يعانقها.

زوجها، زوجها الحبيب. زوجها المخلص الصادق إلى أقصى حدّ. زوجها الذي خانته.

من حيث كانت الآن، بإمكانها رؤيّة تشنّج ظهره وفخذيه. «عقدة من الأعصاب»، قالت لنفسها من غير أن تجرؤ على الاقتراب.

بالأمس، أخبرته كلّ شيء. لم يكن لديها خيار.

فبعدما استمع المحقّقون إلى غريغوار لاروندو، أخذ يتّصل بها باستمرار. كيف تمكّن من الحصول على رقمها؟ لم تكن تعرف. لحسن حظّها، لم يسمع برونو شيئاً في المرّة الأولى. ابتعدت ميلاني لتشرح له ما تعرفه وتطلعه على سير التحقيق والوسائل التي تمّ تخصيصها. طلبت بقسوة من غريغوار ألّا يتّصل بها من جديد. لكن بعد ثلاث ساعات، عاود الاتّصال. أدركت من نبرة صوته أنّه لن يتوقّف عند هذا الحدّ. أنّ شيئاً موصداً بإحكام كان يحتوي حتّى ذلك الحين على قلقه، تصدّع. كان يريد الاطّلاع على تفاصيل

التحقيق، المشاركة في عمليات البحث، لم يكن بوسعه البقاء مكتوف اليدين فيما ابنته في خطر. كان يفقد السيطرة.

عندها قرّرت ميلاني الأخذ بنصيحة كلارا روسّيل التي أكّدت لها أنّه من المستحيل ألّا يسمع برونو إطلاقاً بإفادة غريغوار لاروندو، وصمّمت على مفاتحة زوجها. روت له بدون الخوض في التفاصيل، ولكن بدون إغفال الجوهر، تلك الأمسية التي قضتها قبل حوالى عشر سنوات، وطلب غريغوار بعد أعوام من ذلك. استمع برونو إليها مطبقاً قبضتيه بدون أن يقاطعها. رأت عضلات فكّه تختلج، تماماً كما في ذلك اليوم حين تعارك في وسط الشارع مع رجل همّ بالبصق على ميلاني.

ثمّ نهض بدون أن يتفوّه بكلمة واختلى في الغرفة مغلقاً الباب. بقيت ميلاني طوال ذلك الوقت جالسة على أريكة الصالون، مسمّرة بلا حراك.

حين خرج برونو وعيناه حمراوان، تحدّث إليها بنبرة لم تعهدها. نبرة لا تسمح بالشك ولا بالاعتراض. فهو الوديع المسالم إلى أقصى حدّ، أصدر حكمه: كيمي ابنته، هو على يقين بذلك. حُسم الجدل. في وسط الكابوس الذي يعيشانه، لا بدّ من البقاء متّحدَين. لا يمكنهما إهدار أي طاقة في مشاجرات أو زلّات. لديهما معركة أهمّ بكثير ينبغي خوضها.

كان برونو ينظر الآن من النافذة. بوسعها سماع أنفاسه. كان يتنفّس بقوّة، بقوّة شديدة. بانتظار أن يمتلئ المغطس، أشعلت

ميلاني التلفزيون فظهرت إحدى القنوات الإخبارية التي تبثّ على مدار الساعة. كانت تهمّ بتوضيب بعض الأغراض حين سمعت صوت والدتها. اقتربت بحذر من الشاشة.

رأت والدتها وعلى وجهها تعابير قلق، وميكروفون ممدود تحت ذقنها.

«أجل، إنّها محنة فظيعة لابنتي وصهري. إنّهما صامدان بالطبع، لكنّنا جميعنا قلقون على الطفلة. لو كان لدينا على الأقل أيّ فكرة عن ظروف احتجازها. تعلمون جيّداً في أي حال يُعثر على الأطفال أحياناً... الشرطة في طريق مسدود، هذه هي الحقيقة. المتحرّشون جنسيّاً بالأطفال، تعلم سيّدي، إنّهم في كلّ مكان. لا يمكننا الامتناع عن التفكير في ذلك».

كانت الكاميرا تصوّرها عن مسافة قريبة، من زاوية سفليّة بعض الشيء. بدا وجهها أحمر قرمزيّاً.

«هل لديك أخبار عن ميلاني؟».

«هي صامدة. إنّهما ينتظران، ونحن أيضا. الأمر صعب... صعب جدّا...».

بحركة حادّة، وجّهت ميلاني جهاز التحكّم نحو التلفزيون وهوت في الكنبة. بقي برونو في مكانه بلا حراك. انهارت باكية. منذ أن اختفت طفلتها، بكت ميلاني، لكن كلّما كانت الشهقة تكاد تغلبها، تمكّنت من كبتها. أحسّت مراراً بأنها على حافّة هاوية لا

نهوض منها، على شفير سقوط أو انهيار، وفي كلّ مرّة تمكّنت من مقاومة الموجة، التيّار، تلك القوّة الغامضة التي تتربّص بها لجرّها إلى القعر، إلى الأعماق، حيث لا سند ولا عون، حيث لن يعود بوسعها النهوض من جديد. لا يمكن أن تسمح لنفسها بذلك. عليها الحفاظ على قواها للصمود. للاستمرار والبقاء.

لكن هذه المرّة، كان الهجوم أكثر شدّة. اختلج صدرها بغصّات لم تعرف بعنفها من قبل، وكأن كيانها برمّته يحاول التخلّص من جسم غريب أو من خليّة سامّة، وأطبق عليها ألم لا يُحتمل منعها من التنفّس.

انبثق من حنجرتها أنين قديم بعيد، أنين منبعث من طفولتها أو كلّ الطفولات. لم تعبّر يوماً عن أمر مروّع إلى هذا الحدّ. لم تشعر مرّة أنها وحيدة إلى هذا الحدّ. استسلمت وانزلقت أرضاً. بدا لها في تلك اللحظة أنّها تخرج من جسدها، ورأت نفسها هناك، متقوقعة على نفسها في غرفة الفندق تلك، فتاة صغيرة مسكينة متروكة، وغمرها أسى جارف، أسى على نفسها. هي لم تستحقّ ذلك.

بعد بضع دقائق، ابتعد برونو عن النافذة. اقترب منها وساعدها على النهوض وضمّها بين ذراعيه.

«إن لم أكن مخطئاً، يتمّ خطف طفلة عمرها ست سنوات في وضح النهار بيد مريض يقتلع أظافرها وأسنانها ليرسلها إلى والدتها، وبعد ست أيام لا نزال نراوح كأغبياء».

كان ليونيل تيري معروفا بحسّ الاختزال. في ظلّ الأجواء المخيّمة، كان من الخطير الخوض معه في التفاصيل.

تولّى سيدريك بيرجيه الكلام.

«أفادتنا ميلاني كلو بأن سنّي كيمي الحليبيتين السفليين كانتا تهتزّان قبل بضعة أيام من اختفائها. وأكّد لنا الدكتور مارتن أنّ السنّ التي عثرنا عليها في الظرف هي القاطعة الوسطيّة السفلى اليمنى، أو بتعبير أدقّ الرقم ٤١. من المحتمل تماماً أن تكون سقطت فحسب، كما تسقط عموما الأسنان الحليبيّة لدى الأطفال بهذا العمر».

«هكذا يكون العمل الاستخباراتي».

بادرت كلارا.

«قد لا يكون هذا مجرّد تفصيل بسيط. الخاطف أرسل سنّاً، لا يدّعي أنّه اقتلعها. هو يعطينا دليلاً على أنّه يحتجز الطفلة. في الصورة، كيمي ترتدي سروالاً قصيراً وقميصاً رياضيّاً بمقاسها، لكنّها ليست الملابس التي كانت ترتديها يوم اختفائها. وإن نظرنا عن كثب، وجدنا أن هذه الملابس ليست جديدة. إذاً كان الخاطف يملك ملابس بالمقاس المناسب، ملبوسة من قبل، أو أنّه اشتراها من محلّ للملابس المستعملة. مهما يكن، حرص على إعطاء الطفلة ثياباً نظيفة، وهو بحدّ ذاته ليس أمراً بلا مغزى».

كان ليونيل تيري منصفاً.

«بالفعل. وماذا عن تلك السيّارة اللعينة؟ لا شيء حتّى الآن؟».

أجاب سيدريك بيرجيه مجدّداً.

«قد تكون سيّارة توينغو أو كليو أو ربّما بيجو ٢٠٦، بحسب الشهود... لا يمكن القول إنها من طراز نادر. أودّ التذكير بأن أيّا من الأشخاص المخوّلين حاليّاً ركن سيّاراتهم في المرآب لا يملك رسميّاً سيّارة حمراء، وأن لا أحد منهم أعار جهازه الإلكتروني إلى شخص من الخارج. أمّا بالنسبة إلى المالكين السابقين أو المستأجرين الذين كانت لديهم إمكانيّة الدخول هذه، وكيل اتّحاد الملّاكين السابق الذي تمّت إقالته عاجز عن العثور على هذه المعلومة. فهم تخلّصوا من قسم من أرشيفهم، أو أنّه ضاع منهم».

خيّم صمت. تردّدت كلارا، ثمّ قالت بدورها:

«الخاطف شاهد التلفزيون بما يكفي حتّى يخطر له أن يضع قفّازين حين يبعث رسائله الخطيّة إلى الوالدة (وليس إلى الوالدين). رسائل تلمح إلى القناة التي تديرها هي على يوتيوب. الطلبات ترد عبر البريد، مكتوبة بخطّ اليد. في وقت يمكن لأيّ مهرّب صغير أن يشتري هاتفاً جوّالاً يرميه بعد استعماله وبطاقة سيم مسبقة الدفع، ثمّة في الأسلوب منحى بالياً بعض الشيء أجده مثيراً للاهتمام. كما أنّ الخاطف لا يطالب بفدية لنفسه، بل لقضية محقّة. يمكننا بالطبع إبداء شكوك، وهذا أمر ينبغي التثبّت منه. هو يطلب من ميلاني كلو أن تدفع نصف مليون لجمعيّة ذائعة الصيت منذ عشرين عاماً: طفولة في خطر. قد تكون هذه رسالة. رسالة تبدو لي أكثر جلاءً على ضوء تلميحها الصريح إلى الاستراحة السعيدة. فحين يكتب

الخاطف «ليس إنستغرام من يتحكّم بنهارك، بل أنا»، فمن المرجّح، بل أكثر من مرجّح، أنها إشارة إلى فيديوهات «إنستغرام يتحكّم بحياتنا» التي تلقى نجاحا هائلاً على القناة».

صمتت لحظة، متردّدة في مواصلة كلامها. شجّعها ليونيل تيري بإشارة.

«دعوني أوضح ما أعنيه. حوالى مرّة في الشهر، وعلى مدى نهار كامل، تطلق ميلاني كلو استطلاعات للرأي موجّهة إلى مشتركيها. هم الذين يقرّرون كلّ شيء: أي حبوب مقرمشة يتناولها سامي وكيمي عند الفطور، أي رسوم متحرّكة يشاهدان، أي قميصين يرتديان. تطرح السؤال في حسابها على إنستغرام، وخلال بضع دقائق تحصل على النتيجة. النهار بحدّ ذاته يكون موضوع فيديو جديد يُنشر على يوتيوب بعد إعداده وإضافة مؤثّرات بصريّة إليه. آخر هذه الفيديوهات حقّقت خمسة أو ستّة ملايين مشاهدة لكلّ منها. ميلاني كلو لم تبتكر شيئاً. لكن الواقع أن اليوم، ليس المعجبون من يسيطر على نهارها، بل خاطف ابنتها... وهو يطلب منها تحرير شيك دسم».

كان ليونيل تيري يستمع باهتمام بالغ. استعاد سيدريك بيرجيه الكلام.

«الجمعيّة هي مؤسسة، من الصعب التصوّر أنها قد تكون على ارتباط بالخاطف. رغم ذلك، سيتمّ الاستماع إلى الرئيس ومسؤول الخزنة والأمين العام هنا خلال النهار. بالطبع، الوالدان يريدان دفع

المبلغ. أقنعْتهما بالانتظار، سوف أقابل برونو ديور بعد قليل. يبدو أنه تولّى زمام الأمور بنفسه، وهو يفهم حججنا».

تنحنح ليونيل تيري.

«أتصوّر أن المبلغ بحوزتهما؟».

«أجل. يمكن توفير المال بسرعة».

فكّر ليونيل تيري لحظة قبل أن يختتم.

«حسناً، لنسلّم بأن هناك منحى غير محترف في المسألة برمّتها. لا بل قد تبدو أقرب إلى مقلب خبيث. يبقى أنّ الطفلة متوارية فعلاً منذ ستّة أيام بدون أن يكون من الممكن العثور عليها. أودّ بالتالي تذكيركم بأمر: عدم الاحتراف لا يستبعد الانحراف. والارتجال لا يتناقض مع الوحشية. إذاً لا نتهاون في شيء. لا نتزحزح طالما أننا لم نتثبّت بأن الجمعيّة نظيفة تماماً وستكون على استعداد لإعادة تسديد المبلغ إن طلب الأهل ذلك. بعدها، إذا اقتضى الأمر، نتظاهر بتخفيف الضغط. وإذا أُطلق سراح الطفلة، عندها سيتسنّى لنا التفكير في طريقة عرض إستراتيجيّتنا على الإعلام. لكن علينا قبل أي شيء أن نرغم الرجل على الخروج من مخبئه».

كان الليل حلّ للتوّ، وميلاني تعيد قراءة تعليقات الدعم والمحبّة التي تتلقّاها بصورة متواصلة على حسابها منذ أن نشرت أول فيديو وبعدما أكدت وسائل الإعلام اختفاء ابنتها. «أحبّاؤها» لا ينسونها. تعرف أنّهم هنا، بجانبها، وتجد في ذلك عزاءً كبيراً.

كانت عشرات الأمّهات يبدين استعدادهنّ لإعداد الطعام لها، أو الاهتمام بسامي، أو استضافتهم في منازلهنّ. وعشرات الأطفال يعبّرون عن قلقهم وحزنهم بأزهار وقلوب من كلّ الألوان ورموز تعبيريّة ظريفة.

نجحت في إنشاء جماعة. لم تكن هذه مجرّد كلمة فارغة، بل هو واقع. جماعة هي مركزها. في هذا العالم الشديد القسوة والعنف، كان ذلك إنجاز. كتبت كيم كارداشيان مرّة في حسابها على إنستغرام «هذا يعني لي الكثير»، وكانت على حقّ. منذ اليوم الأول، حين تتوجّه ميلاني إلى مشتركيها، تناديهم «أحبّائي». لأنها تريد أن تعبّر لهم عن حبّها. لأنهم أعزّاء على قلبها.

فهم وهبوها الكثير.

كلّ شيء.

كان «أحبّاؤها» كثيرين إلى حدّ لا يمكنها أن تميّزهم كلّ واحد على حدة. «أحبّاؤها» أشبه بعائلة هائلة لا وجه لها. عائلة طيّبة، موحّدة عبر الأجيال، فيها صغار وكبار. كانت تستلطف فكرة جمهور يتعيّن إرضاؤه، إفراحه، تحقيق رغباته. تحبّ تلك المكافأة الآنيّة الحارّة التي يقدّمونها لها باندفاع كلّما أطلّت عليهم. كانت بحاجة إلى اهتمامهم. إلى مديحهم. يجعلونها تشعر بأنها شخص فريد. شخص جدير بأن يكون مميّزاً عن الآخرين. ولا عار في ذلك.

كانت مشتاقة إلى ابنتها بحرقة. لم تكن تقوى على ذكرى جسدها

الصغير الملتصق بخصرها حين تلوذ بها، ذراعيها الصغيرتين الملتفّتين حول خصرها. طفلتها كيمي الجميلة. الجامحة والمستقلّة. لم تكن تشبه ميلاني في صغرها. لم تكن تشبه أي طفلة تعرفها ميلاني.

بالطبع، كانت تتنكّد أحياناً. أو تنتحب. كانت كيمي عكرة المزاج منذ بعض الوقت. تتلكّأ عن تصوير بعض الفيديوهات، ليس لأنها لا تحبّ ذلك، بل لأن بعض تلاميذ صفّها كانوا يسخرون منها. استدعت السيّدة شوفالييه ميلاني لمناقشة الأمر. سألتها المعلّمة عن التصوير، كيف يجري الأمر، في أي ساعة، وبأي وتيرة، أرادت أن تعرف كلّ شيء... كم من الوقت يخصَّص للاستراحة السعيدة كلّ أسبوع، وكم من الوقت يتبقّى لكيمي حتّى تلعب وتسأم. «تسأم؟ هي لا تعرف السأم أبداً!»، أجابت ميلاني باعتزاز. الاستراحة السعيدة هي حياتهم. هذا أمر لم يكن بوسع تلك المرأة فهمه. قالت السيّدة شوفالييه إنّ كيمي بدأت تعي الأمور، وتدرك خصوصا أنّ الفيديوهات يشاهدها عدد كبير من الأشخاص، أشخاص لا تعرفهم. وهذا ما يثير لديها قلقاً، على حدّ قول المعلّمة. كانت تجد كيمي متعبة، بل محبطة قليلاً. «هذه المرأة مجنونة»، فكّرت ميلاني. هذه المرأة لا تملك أدنى دليل على ما تدّعيه، تستند إلى انطباعات لا تكشف سوى أفكارها المسبقة. لكنّ المعلّمة تابعت. ادّعت بأن كيمي تسدّ أذنيها في الملعب ما إن يكلّمها طفل آخر عن الاستراحة السعيدة. بعض التلاميذ الأكبر سنّاً ينادونها «طفلة وسخة» أو «طفلة دبدوبة». وفي أحد الأيام، بكت كيمي لأن صبيّاً في صفّ

أعلى منها قال لها، مردّداً حتماً كلاماً مسيئاً صادراً عن أهله بحرفيّته، «والدتك، سوف يبلَّغ عنها إلى محكمة الأطفال».

استمعت ميلاني إلى المعلّمة بتهذيب خلال ذلك اللقاء، ثمّ أعادت تصويب الأمور: من غير الوارد أن يتعرّض ولداها لمثل هذه النميمة. هي سجّلتهما في مدرسة خاصة لتفادي هذا النوع من المتاعب، وبالتالي إن كان سامي أو كيمي يتعرّض للسخرية والاستهزاء بدافع الحسد الصرف، عندها من واجب هيئة التعليم والإدارة اتخاذ تدابير.

هذا كان جوابها للسيّدة شوفالييه، جواب لم يخل من الحزم.

في الأسابيع التالية، راحت كيمي تقاوم أكثر فأكثر تصوير الفيديوهات، إلى حدّ تساءلت ميلاني إن لم تكن المعلّمة حرّضت ابنتها. كانت كيمي تعاند كلّ شيء. تنسى نصّها، لا تستمع إلى التعليمات، تدّعي أنّها لا تفهم شيئاً. نقطة الخلاف الرئيسيّة كانت الملابس التي يتحتّم عليها أن ترتديها. كانت طفلة الستّ سنوات ترفض رفضاً قاطعاً وضع تنانير وفساتين وجوارب طويلة، ترفض في الواقع أي ملابس ذات دلالة أنثويّة واضحة. لم تعد تود رؤية اللون الزهريّ، ولا الدنتيل ولا الكشاكش. وكان ذلك يغضب ميلاني، خصوصا وأنّها وقّعت للتو عقداً ضخماً مع ديزني، عشيّة بدء عرض «ملكة الثلج ٢» في دور السينما. أمدّتهم العلامة التجاريّة بمجموعة كاملة من الأزياء التنكّريّة والألعاب والمنتجات الفرعيّة لعرضها على القناة وشبكات التواصل الاجتماعي. لم تقبل كيمي

أبداً أن ترتدي فستان ملكة الثلج ولا معطفها، فاضطرّت ميلاني إلى وضع التاج وقفّازي الساتان والقرطين بنفسها.

ناهيك عن اليوم الذي أوصدت فيه كيمي باب ذلك الحمّام في الفندق. لا يمكن أن تخطر فكرة خبيثة إلى هذا الحدّ لطفلة. لا بدّ أنّها آتية من مكان ما. كانت المعلّمة ناقمة عليها. ناقمة عليها هي شخصيّاً. تلك المرأة كانت تحسدها على نجاحها وملابسها وحياتها. كان هذا جليّاً. تلك التعابير على وجهها وهي تنظر إلى ميلاني حين تأتي لاصطحاب ابنتها من المدرسة. تلك الابتسامة الساخرة. المتعالية. وما دخلها هي؟

كادت ميلاني أن تطلب موعداً من مديرة المدرسة لتبلّغ عن المعلّمة، لكنّ برونو أقنعها بالعدول عن ذلك. فهذا قد يثير مشكلاً كبيراً، وميلاني لا تملك أي إثبات. التزمت برأي زوجها. برونو أقل انفعالاً منها، لا ينساق إلى مشاعره مثلها. تمكن من إخماد غضبها.

لم يكن بوسعها سوى أن تستذكر تلك اللحظات الشكسة، ذكريات تفطر قلبها. لكن يجدر بها عدم الاستسلام للأفكار السلبيّة، ولا لكلّ تلك الأقاويل التي حاولت النيل منهم. يجب أن تبقى قويّة، كما كانت على الدوام.

كانا برونو ينتظر الضوء الأخضر من الفرقة الجنائية ليحوّل المبلغ المطلوب إلى حساب الجمعيّة. المال لا يهمّ. كانت لتعطي ضعف ذلك لو اقتضى الأمر.

مع خفوت نور النهار، أزاحت ميلاني الستارة لتراقب الشارع. كان مشهد الناس يمشون، يتكلّمون، يعبرون ذهاباً وإياباً، يُدخل بعض السكينة إلى نفسها.

خطر لها فجأة أنّها لم تشكر «أحبّاءها» على رسائلهم العديدة. لم تردّ عليهم منذ بضعة أيّام. ولا مرّة واحدة. لا يمكنها أن تتركهم هكذا، بدون أي أخبار عنهم ولا أي كلمة.

التقطت هاتفها وكتبت: «شكراً لكم جميعاً على دعمكم وكل هذا الحبّ الذي تغمروننا به. أنتم نجومنا في الليل الحالك، آفاقنا في هذه المحنة».

أضافت حوالى عشرة رموز صلاة، يدان مضمومتان نحو السماء، ورمز الوجه بعينين على شكل نجمتين.

ثوانٍ معدودة، وظهرت أولى القلوب ورموز القبلات. وبعد بضع دقائق، وصل عدد اللايكات التي حصدتها إلى سبعمئة وثمانية عشر لايك.

ابتسمت.

تساءلت كلارا لفترة طويلة إن كان من الممكن للواحد أن يكون شرطيّاً ويعيش حياة عاديّة في آن. والجواب كان لا، هذا إن افترضت أنّ بإمكانها تصوّر حياة عاديّة. الواقع أنّها كانت تعيش حياة شرطيّة، في مبنى سكنيّ للشرطيّين، مع أصدقاء شرطيين، وأحاديث شرطيّين، وإشكاليّات شرطيّين. وفي مطلق الأحوال،

يتزوّجُ معظم الشّرطيين بعضهم بعضاً، لكنّ هذا لا ينطبق عليها، فهي تركت الشرطيّ يخرج من حياتها.

تلك كانت الخلاصة التي تتوصّل إليها في ليالي الكآبة، ليالي «الزرقة» كما كانت والدتها تشير إليها حين كانت طفلة، فتطلب منها على الدوام أن تحدّد تدرّج «الزرقة»، من الأزرق الباهت إلى الأزرق الداكن، كمن يقيّم معاناته على سلّم من عشر درجات، في ليالي «الزرقة» إذا حين لا تكون كلوي، صديقتها من أيّام الجامعة، متفرّغة للذهاب وتناول كأس معاً.

فيما تبقّى من أيّام، كانت كلارا تنظر إلى حياتها بمزيد من التهاون.

في ذلك المساء، كان بودّها لو تقول لنفسها إنّ الأمور تسير في اتّجاه جيّد. كيمي ديور على قيد الحياة، ولا يبدو أنّها ضحيّة سوء معاملة. «طفولة في خطر» معترف بها من عدد كبير من الشركاء من القطاعين الخاص والعام، وتتوافر فيها كلّ المواصفات المرجوة. خلال النهار، استُبعد ضلوع الجمعيّة أو أيّ من أعضائها في خطف كيمي ديور. تعهّد رئيسها بالالتزام بتعليمات الفرقة الجنائية، بما في ذلك إعادة تسديد المبلغ المالي إذا طُلب منه ذلك. أُجري التحويل في المساء، وتمكّن سيدريك بيرجيه من إقناع الزوجين ديور بالتريّث حتّى صباح اليوم التالي لنشر الدليل عليه.

لم يبدُ أيّ من عناصر الفرقة الجنائيّة مقتنعاً فعلاً بهذه القصّة. فمن يقدم على خطف طفل واحتجازه من أجل أن تُدفع الفدية

لصالح جمعيّة؟ لم تكن فكرة شخص منحرف، مشوّش، يضاعف التعليمات لإطالة اللذّة، فرضيّة مستبعدة.

أما كلارا، فلم يكن بوسعها التخلّي عن فكرة أن المطلوب بالمقام الأوّل كان وضع حدّ للنظام الذي أقامته ميلاني كلو.

الواقع أنّه منذ بضعة أيّام، لم يعد سامي وكيمي يبديان افتتاناً وهما يفتحان رزماً، لم يعودا يصيحان فرحاً وهما يختبران رقائق بطاطس أو مشروبات غازيّة، كفّا عن شراء أغراض عشوائيّة في السوبرماركت وطلب كميّات من الهمبرغر يعجزان عن أكلها حتّى خلال أسبوع بدون النظر إلى القائمة.

الواقع أن والدتهما لم تعد تروي حياتهما ساعة بساعة لآلاف المجهولين.

ثمّة من قال كفى. وتوقفت الآلة.

في الساعة التاسعة مساء، كانت كلارا قد شرعت للتوّ في كتابة رسالة إلى توما، حين تلقّت رسالة نصيّة من سيدريك تدعوها لتشغيل التلفاز. كانت شبكة فرانس ٢ تعيد بثّ تقرير مخصّص للأطفال نجوم يوتيوب. أشعلت الجهاز وجلست مستغرقة في الكنبة.

استنتجت من قامة الأطفال أن التقرير يعود إلى بضع سنوات. كان يتحدّث عن عدّة قنوات، لكن القسم الأكبر منه كان مخصّصاً للاستراحة السعيدة. كانت كيمي في الرابعة على الأرجح، وسامي في السادسة. تبعتهما الصحافيّة مع المصوّر داخل مركز تجاريّ كبير

حيث كان مئات الأطفال في انتظارهما. بدت كيمي مثل لعبة صغيرة رائعة في ملابسها الورديّة، وكانت تتقدّم بجانب شقيقها، حريصة على ضبط مشيتها على وقع خطاه. لم يكن سامي يدعها تغيب عن نظره، مثل حارس صغير. أظهرت المشاهد وصولهما إلى موقع اللقاء على وقع تصفيق حادّ، ثمّ جلسة التوقيع وصور السيلفي التي استغرقت عدّة ساعات. وطوال هذا الوقت، كانت ميلاني تراقب كلّ ما يجري وتنظّم الحدث بكامله، فتشرف على صفّ الانتظار وترتّب الأولويّات، مبدية اهتماماً بالأصغر سنّاً وحرصاً على عدم تخطّي أيّ كان الوقت المسموح به.

قبل أن تغادر، وافقت على إجراء مقابلة قصيرة. أجل، بالطبع، هي مسرورة لنجاحهما، وتشكر خصوصاً محبّي الاستراحة لحماسهم ووفائهم. سألتها الصحافيّة إن كانت تتفهّم صدمة البعض، بما في ذلك شباب يافعين، لرؤية أطفال يُعرضون بهذه الطريقة للعيان. كانت ميلاني تهزّ رأسها بأسف مبدية عدم فهمها ذلك، ثمّ أجابت بصوت عذب هادئ. هي تعرف جيّداً كأمّ ما تقتضيه مصلحة طفليها وما لا تقتضيه. في مطلق الأحوال، هما ولديها هي، مشدّدة على الضمير «هي». وولداها «هي» في غاية السعادة هكذا. ثمّ التفتت الصحافيّة إليهما سائلة عن انطباعاتهما. تكلّمت كيمي ببطء، مثل لعبة يتمّ التحكّم بها عن بعد بدأت بطارياتها تضعف، فشرحت أنّها تجد من الرائع إفراح محبّي الاستراحة و«رؤية السعادة في عيونهم». أما سامي، فأكد بمزيد من الثقة أنّ هذا حلمه وأنّه يريد

أن يجعل منه مهنته لاحقاً. أضافت ميلاني مشرقة «هذا هو رأيهما، ماذا عساي أضيف؟».

ثمّ ختمت وعلى وجهها ابتسامة عريضة مطَمْئنة «تعلمون، عندنا نحن، الأطفال ملوك».

في صباح اليوم الثامن بعد اختفاء كيمي ديور، كانت كلارا من أوائل الوافدين إلى مكاتب الباستيون. فهي استيقظت في الساعة الخامسة ولم تتمكن من معاودة النوم. تملّكها تململ غريب دفعها خارج السرير.

عبرت البوّابة الأمنيّة ثمّ تقدّمت صوب المصعد. أشار إليها عنصر الاستقبال من خلف الزجاج أن تقترب.

«ثمّة سيّدة وصلت للتوّ، تريد أن ترى أحد من قسمكم».

التفتت كلارا صوب قاعات الانتظار التي تكون فارغة عادة في مثل تلك الساعة. وجدت في الصالة رقم أربعة امرأة بعمرها مدّثرة بمعطف واقٍ من المطر لونه فاتح. اقتربت منها.

ثمّ اتّجهت عيناها صوب الطفلة الجالسة بجانبها.

رفعت الفتاة رأسها والتقت نظراتهما.

تسارع نبضها فجأة وأحسّت بقلبها يطرق بقوة في صدرها.

من كثرة ما تأمّلتها في الأيام الماضية، كانت تشعر بأنّها تعرفها.

## الفرقة الجنائية - ٢٠١٩

# خطف الطفلة كيمي ديور واحتجازها

الموضوع:

محضر جلسة الاستماع إلى إليز فافار.

أجرتها في ١٨ نوفمبر ٢٠١٩ كلارا روسّيل، الضابطة في الشرطة القضائية في الفرقة الجنائية في باريس، وسيدريك بيرجيه، كابتن الشرطة في الفرقة الجنائية في باريس.

عن الوقائع:

حضرت إليز فافار في ١٨/ ١١/ ٢٠١٩ في الساعة ٨. ٠٥ إلى مكاتب الفرقة الجنائية برفقة الطفلة كيمي ديور التي اختفت في ١٠/ ١١/ ٢٠١٩. بدون انتظار جلسة الاستماع، شرحت للضابطة في الشرطة القضائية كلارا روسّيل أنها هي التي ارتكبت وقائع الخطف والاحتجاز بحق كيمي ديور، وأن الطفلة قضت الأيام السبعة الأخيرة في منزلها.

**عن هويتها:**

اسمي إليز، إيرين فافار.

ولدتُ في ١٠/ ٠٩/ ١٩٨٥ في سورين.

أقيم في الرقم ٢٠٩ شارع لافاييت في باريس، الدائرة العاشرة.

إنّني مطلّقة وأمّ لصبيّ عمره ستّ سنوات ولد عام ٢٠١٣.

وظيفتي سكرتيرة طبيّة لكنّني لم أعد أعمل منذ عام.

**(مقتطفات)**

انتقلت للإقامة في مجمّع «السمكة الزرقاء» مع نوربير س. بعد قليل على زواجنا. كان يعمل لحساب شركة أمنيّة، كان يهتمّ بالتوظيف وبإدارة الفرق. التقيت ميلاني كلو حين كان ابني إليان عمره بضعة أشهر. ولَدنا في الأسبوع ذاته، وكنت ألتقيها مرّات كثيرة في المجمّع تدفع العربة أو تحمل قفّة الطفلة. كان هذا طفلها الثاني. كانت ميلاني تعرف المدينة جيّداً، وأعطتني الكثير من النصائح، عن طبيب الأطفال وتسجيل ابني في الحضانة... بعد ولادة إليان، عدت إلى عملي بدوام جزئيّ كسكرتيرة في أحد مراكز الطبّ النفسي في أنتوني. أصبحنا صديقتين. كنا نذهب معاً إلى المنتزه، أو نلتقي في المدينة للتسوّق. كانت ميلاني في غاية اللطافة. كانت تبدو لي أحياناً حزينة قليلاً، وخطر لي مرّات أنها سئمة لأنّها لا تعمل. كانت كيمي تتّفق جيّداً مع ابني منذ سنّ صغيرة. كانت تحبّ اللعب بالسيّارات

وحلبة السباق الكهربائيّة ومجسّمات الجنود. لطالما كانت أقرب إلى «حسن صبي»، وهو ما لم يكن يعجب والدتها كثيراً. تقابلنا بشكل متواتر على مدى عدّة أشهر، كنت أهتمّ بطفليها حين كانت ميلاني منشغلة بأمر ما. وكان إليان يحب كثيراً الذهاب إلى منزلهم (...)

في العام ٢٠١٥، تركني زوجي. ذهب للعيش في مرسيليا لاغتنام فرصة مهنيّة. أعتقد بالأحرى أنه أدرك قبلي بكثير أن إليان يعاني من مشكلة. في الفترة ذاتها تقريبا، بدأت ميلاني نشاطها مع كيمي على يوتيوب. لم تخبرني بالأمر، علمت من الجيران، حين بدأت الأمور تسير على ما يرام. بات هذا المحور الأول للأحاديث في المجمّع. في تلك الفترة، لم أكن أفقه الكثير بالمعلوماتيّة، ولم يكن ما يجري على الإنترنت يهمّني. أخذت ميلاني تنهمك كثيراً في تصوير فيديوهاتها وإعدادها، وكانت تطلب منّي أحياناً أن أهتمّ بولديها لأنّ عليها أن تلتقي وكالات أو علامات تجاريّة في باريس. لم يكن الأمر يزعجني. الطفلة كانت تتكلّم بطلاقة، كانت يقظة إلى حدّ ملفت. كيمي وإليان كانا بالعمر ذاته، ولاحظت بوضوح أنّهما لا ينموان بالوتيرة ذاتها. لم أقلق في بادئ الأمر لأن العديد من الأطفال كانوا يتعاقبون على المركز حيث كنت أعمل، وأرى كم هم مختلفون عن بعضهم بعض. كنت أعمل ثلاثة أيّام في الأسبوع، وكانت والدتي تحرس إليان. في النهاية، طلبت من الطبيبة النفسيّة للأطفال في مركز الطب النفسي إن كان بإمكانها الكشف عليه. كان عمر ابني سنتين ونصف. شرحَت لي بكثير من المراعاة أن إليان يعاني من تأخّرٍ ملحوظ، ويجب أن يخضع

لفحوص إضافيّة مكملّة. كان ابني معوّقا، تلك هي الكلمة التي تحتّم عليّ أن أتعلّم التعايش معها. حين أخبرتُ ميلاني، أبدت تعاطفاً حقيقيّاً. حاولت طمأنتي، قالت لي ألّا أفقد الأمل أبداً. يمكن للطبّ أن يتطوّر وإليان طفل في غاية الرقّة للغاية وسهل المراس، وهذا بحدّ ذاته مهمّ جداً. هذا صحيح. ابني مصدر سعادة كبيرة. لكن شيئاً فشيئاً، لم يعد إليان وكيمي يلعبان معا. كان هناك على الدوام سبب وجيه. ابنتها متعبة، أو عليها تصوير فيديو جديد، أو اصطحابها عند مصفّف الشعر، أو قياس ملابس جديدة... في تلك الفترة، حقّقت الاستراحة السعيدة انطلاقة كبيرة. كانت ميلاني منهمكة. أعتقد أنّها باتت في ذلك الوقت في عالم آخر. كانت تعطيني ألعاباً بين الحين والآخر، بدأوا يملكون كومات منها، وحتّى ملابس، لكنّها كانت دائماً على عجلة من أمرها... كنا نصادف بعضنا، لا غير. جرح ذلك مشاعري، أقرّ بالأمر. ظننت أنّنا صديقتان. حين بلغ إليان الثالثة، وجدت له مدرسة متخصّصة. وبعد بضعة أشهر، تركتُ المجمّع لأقترب أكثر من المكان الذي كان يستقبله. لم أبق على تواصل مع العديد من الناس. الإعاقة تخيف، تبعد الآخرين. هناك فقط السيّدة سابوران التي أزورها مرّة أو مرّتين في السنة لاحتساء الشاي. هي متقاعدة وكانت على الدوام في غاية اللّطف معنا. (...)

في العاشر من نوفمبر، كنت مدعوّة عند السيّدة سابوران لتناول الشاي، قلت لها إنّني سأحضر مع إليان. أحيانا نقوم بعكس ذلك، فتأتي هي عندي، لكن بما أنّه ليس لديها سيّارة، فالأمر أكثر

صعوبة. أحبّ قضاء بعض الوقت في «السمكة الزرقاء». أشعر رغم كلّ شيء بحنين إلى تلك الفترة، حين كان إليان عمره بضعة أشهر فقط وكان كلّ شيء يبدو في غاية البساطة.

حين أزور السيّدة سابوران، أركن السيّارة دائما في المرآب. نسيت أن أعيد الجهاز الإلكتروني حين غادرت، وفي النهاية احتفظت به. هناك تجويفة قرب مدخل حجرة النفايات، يمكن حشر سيّارة صغيرة فيها من غير أن تزعج أيّاً كان يودّ الدخول أو الخروج. لست وحدي من يوقف سيّارته هناك ساعة أو ساعتين، ولم يطرح ذلك يوماً أيّ مشكلة. (...)

كنت أركن السيّارة حين رأيت كيمي تخرج من الحجرة. كان إليان غفا خلال الرحلة. عرفتني الطفلة على الفور. فتحْتُ النافذة لأرى ماذا تفعل هناك، فسألتني إن كان بإمكانها الاختباء في السيّارة. قلت نعم وخرجْتُ أفتح لها الباب الخلفيّ. كانت فرحة جداً لعثورها على مخبأ ممتاز كهذا. انسلّت بين الكرسيّ والمقعد بدون أن تحدث أيّ صوت، فهي لاحظت أن إليان نائم. سألتني إن كان بإمكاني أن أغطّيها بثوب لأخفيها بشكل أفضل. هي لم تتغيّر، لطالما كانت مفعمة بالحيويّة. ناولتها معطفي وتولّت بنفسها وضعه عليها بحيث يغطّيها كليّاً. مضت بضع ثوانٍ، كانت متقوقعة تماماً على نفسها، وكان من المستحيل رؤيتها من الخارج. (...)

لا، سبق أن قلت لكما. لم أذهب إلى هناك من أجل ذلك. لم أكن رأيت الستوريز التي تقول فيها ميلاني إن الطفلين في الخارج. كنت

ذاهبة لزيارة السيّدة ساروان، وجرت الأمور تماماً كما أرويها لكما. لم أفكّر في شيء. (...)

لا يمكنني أن أحدّد كم من الوقت استغرق الأمر. لم أعد أذكر. دقيقتان ربّما. بعد ذلك، أدرت المفتاح. انطلقت السيّارة وقلت لكيمي: «سنختبئ بشكل محكم أكثر، سوف ترين. لا تتحرّكي من مكانك». انطلقت بالسيّارة إلى الخلف، أدرتها ثم خرجت. لم أُسرِع. كان رأسي فارغاً تماماً. سمعتنا تقهقه ضاحكة خلفي، مبتهجة بالمقلب الذي دبّرته لشقيقها وأصدقائها. تردّدت للحظة وأنا أخرج من المرآب. لم أدرِ أين أذهب.

لم أقل لنفسي «إنّني أجرّ الطفلة معي» ولا «ماذا تفعلين؟». لا. كان الأمر غريباً جدّاً. كان ذهني فارغا، وفي الوقت نفسه بدا لي أنّني أمتثل لأمر ما. في نهاية المطاف، سلكت الطريق ذاتها كالعادة ومضيت. أذكر الحديث الذي دار بيننا في السيّارة. سألتني كيم إن كانت معلّمة إليان لطيفة، وإن كان لديه الكثير من الرفاق في مدرسته. استيقظ إليان خلال الطريق واحتفى بها بكثير من البهجة! فرحت جدّا لأنّه عرفها. ركنت السيّارة في شارع قريب من المنزل. لم أحاول إخفاء كيمي، دخلنا بهدوء. لم ألتقِ أيّا من الجيران. اتّصلت بالسيّدة سابوران لاعتذر عن عدم قدومي، تحجّجت بأمر طرأ في اللحظة الأخيرة.

لاحقا خلال الأمسية، قلت لكيمي إنّني اتّصلت بوالدتها وإنّها طلبت منّي أن أُبقيها عندي لبعض الوقت لأنّها مضطرة للذهاب

إلى فاندي. لم أكن أريد أن تقلق. بدا وكأنّها تجد ذلك طبيعيّا، سألتني فقط إن كانت ميلاني غاضبة منها بسبب الفيديو الذي لم تتمكّن من تصويره. طمأنتها بأنّ والدتها تقبّلها بشدة وتفكر بها كثيرا. (...)

في الأيّام الأولى، نامت مطوّلاً. كانت تستيقظ في وقت متأخر في الصباح، وتنام أحياناً بعد الظهر. تساءلت إن لم تكن مريضة، لكنّها لم تكن تعاني أيّ أعراض. لم يخرج الطفلان على مدى أسبوع، لعبا كل أنواع الألعاب. إليان مولع بالرسم، وكيمي أيضاً. رسما جداريّة رائعة فيها أسماك وأخطبوطات وأعشاب بحريّة من كلّ الألوان. اتّصلْتُ مرّتين أو ثلاثاً بالبقالة عند أسفل المبنى لتقديم طلبيّة، ونزلت لجلب الأكياس. لم أترك الولدين بمفردهما سوى دقائق معدودة، تذرّعت بأنّ إليان مريض. الناس في الحيّ يعرفوننا. (...)

قبل ذلك ببضعة أسابيع، أُغلق الباب على إصبع إليان. اسودّ الظفر وانقلع أثناء وجود كيمي هناك. علمت في أحد الأيام من مشاهدة مسلسل بوليسيّ، أنّ الأظافر لا تحتوي على حمض نووي. ما يكشف الحمض النووي هو طبقة الخلايا الرقيقة التي تغطيها، أو آثار الدم عليها. نقعت ظفر إليان طوال ليلة كاملة في محلول الكلور وفركته. ثمّ وضعته في ظرف مع صورة البولارويد. حتّى ذلك الحين، لم أكن قد فكّرت في أيّ شيء. انطلاقاً من هناك، لا أدري. رحت أنزلق... كنت أشعر بخطر كبير، لكن لم يكن بوسعي التوقّف. (...)

الرسالتان، أجل، أنا كتبتها. طلبت من كيمي فقط أن تنسخ العنوان على الظرف، وأقنعتها بأنّنا سنرسل رسماً إلى والديها. الأمر غير منطقيّ. لا يمكنني تفسيره. لا أدري إن كنت أريد إلحاق الأذى بميلاني. ربّما. ما كنت أريده فعلاً هو إرغامها على القيام بشيء لم تكن ترغب إطلاقاً فيه. أردتها أن تعي معنى ذلك.

الاثنتان، وضعتها في الصندوق عند زاوية شارعي. حرصت على عدم تشغيل التلفاز أو الراديو إطلاقاً بحضور الطفلين. (...)

أجل، أشاهد فيديوهات الاستراحة السعيدة وحساب ميلاني كلو على إنستغرام. في البداية، كنت أريد فقط تفقّد الطفلين، الاطّلاع على أخبارهما وأخبار ميلاني. بعد ذلك، وقعت في الفخّ. هذا الشيء يستحوذ على المرء ويفزعه في آن. لم أكن أرغب في القيام بذلك، وفي الوقت نفسه لم أن أتمالك نفسي. من الصعب تفسير الأمر. في الأسابيع الأخيرة، كنت أرى بوضوح أن كيمي سئمت فعلاً، أنها لم تعد تقوى. لم أعد أرى غير ذلك. كانت تتهرّب من الكاميرا، وحين تنظر إليها، أخالها تستنجد بي. تطلب منيّ أن آتي لإخراجها من هناك. حصل لي ذلك مراراً. قلت لنفسي إنّني أتوهّم. لكن في كلّ مرّة، ترك ذلك في نفسي انطباعاً رهيباً ظلّ يلاحقني طوال النهار. كان يتهيّأ لي أنّني مثل هؤلاء الأشخاص الذين يحوّلون أنظارهم ويواصلون طريقهم في حين يتعرّض طفل لمعاملة وحشيّة أمام عيونهم. أنا كنت ألمس يأسها، وبالتالي كنت مذنبة لأنّني لا أفعل شيئا. (...)

حين بدا لي أنّها مرتاحة واستعادت قواها، لم أعد أعرف ما يمكن أن أفعل. كنت أترقّب إشارة... رمزاً... بحثت على الإنترنت. جمعيّة «طفولة في خطر» تهتمّ بكلّ أنواع سوء المعاملة، حتى الخفيّة منها. هذا ما هو مكتوب على صفحتها الرئيسيّة. هذا كلّ ما في الأمر. لا دافع غير ذلك. بعثت الرسالة الثانية. لم يخطر لي للحظة أن المسألة ستنجح. (...)

لا أعتقد أن كيمي شعرت بأنّها محتجزة. طالبت بشقيقها أو والديها، لكنّني شعرت في كلّ مرّة أنّني نجحت في طمأنتها. إلّا مساء أمس. مساء أمس، فهمَت أنّ شيئاً غير طبيعيّ يجري. بدأَت تشعر بالخوف. كان ذلك... مثل صدمة كهربائيّة. أدركت فجأة أن كيمي في منزلي منذ أسبوع وأنّ... أنّني... أنّ لا أحد غيري يعرف ذلك... وكأنّني استعدت رشدي، كأنّني... أعود من واقع موازٍ. تملّكني الذعر.

لذا هذا الصباح، أوصلت إليان عند والدتي مع حقيبة تحتوي على كلّ أغراضه تقريباً. سألَتْني ما يجري، غادرْتُ بدون أن أجيبها. كنت أخشى أن أنهار. صعدت في سيّارتي مجدّداً وجئت إلى هنا. إنّني متعبة جدّاً. (...)

أردت أن أساعد كيمي. أن أمنحها فترة سلام وحريّة. كان... حصل كلّ شيء كما قلت. لم أفكّر في الأمر. هذا الصباح، أدركت أن كلّ هذا لن يجدي نفعاً. لن يغيّر شيئاً. لا أدري إن كان بوسعكم فهم الأمر. الواقع، عندما أنظر إلى هذه المشاهد، أخشى على الطفلين.

# ٢٠٣١

كنّا نحدس بأنه خلال دورة حياة، ستظهر أمور يصعب تصوّرها، سيعتادها الناس مثلما اعتادوا خلال فترة قصيرة من الزمن الهاتف الجوّال والكمبيوتر والآيبود ونظام التموضع العالمي.

آني إرنو «السنوات».

سانتياغو فالدو طبيب ومحلّل نفسي، «صنف في طور الانقراض» مثلما يعرّف بنفسه، أمضى زمناً طويلاً مدافعاً عن الاتّجاه الفرويديّ. يقضي نصف وقت عمله في المستشفى، ويقسم النصف الثاني بين عيادته الخاصة وكتابة مقالات جامعيّة أو دراسات موجّهة إلى الجمهور العامّ. عُرف بأعماله حول تأثير الثورة الرقميّة على اضطرابات القلق، ومن أبرز مؤلّفاته كتابان مرجعيّان هما «في حال التعرّض المطوّل» و«عنف الشبكات». تحرّر منذ بضع سنوات من أي تبعيّة لنظريّة ويواصل أبحاثاً تأخذ بإسهام علوم الأعصاب بدون التنكّر لمكتسبات التحليل النفسيّ.

في ذلك اليوم من يونيو ٢٠٣١، ارتجّت ساعة سانتياغو فالدو فيما كان يستعدّ للعودة إلى منزله، وظهر عليها رقم مجهول. تردّد، ثمّ قبِل الاتّصال. انبعث الصوت من مكبّر الصوت الموصول بالإنترنت: تثبّت شابّ من أنّه اتّصل بالرقم الصحيح. ثمّ قال بنبرة خالية من أي انفعال، وكأنّه غير معنيّ بما يعلنه «اسمي سامي ديور، وأنا بحاجة إلى مساعدة».

ردّد سانتياغو فالدو لنفسه «سامي ديور»، هذا الاسم يحرّك ذكرى مبهمة لم يتمكّن من تمييزها بوضوح في الحال، خصوصاً وأنّ ذاكرته التي بدأت تضعف حتماً، تربط الاسم بشخصية أنثويّة.

«هل وجّهك أحد إليّ؟».

«أعطتني رقمك طبيبة متدرّبة في مستشفى سانت آن».

«هل كنت تعالَج في المستشفى؟».

«لا، لكنّني قابلتها في قسم الطوارئ، ونصحتني بالاتصال بك».

الصوت فتيّ. ونبرته لا تزال تبدو له زائفة بشكل غريب، بدا الشابّ وكأنّه يتلو أو يقرأ نصّاً ماثلاً أمام عينيه، إلى حدّ تساءل سانتياغو إن لم يكن ذلك مقلباً. بياناته متوافرة على الإنترنت، وحصل له من قبل أن وقع ضحيّة مقالب سمجة.

اعتذر قائلا «لا أقبل مرضى جدد في الوقت الحاضر، لكن بإمكاني إعطاؤك اسم طبيب آخر».

بدا الفتى وكأنّه أصيب بالذعر، وانزلق صوته إلى الطبقات الحادّة.

«لا، لا، أنت، يجب أن تكون أنت! أرجوك...».

هذه المرّة، ألقى سانتياغو فالدو نظرة إلى جدوله الزمني الإلكتروني المبرمج ليفتح تلقائيّاً على شاشة حاسوبه كلّما تلقّى اتّصالا على رقمه المهني.

«حسنا، أقترح عليك أن تحضر إلى عيادتي غداً في الساعة الثامنة مساء، وسنستعرض الوضع. بعد هذا اللقاء، أحيلك إلى زميل أو زميلة. الأهم هو أن تحصل على مساعدة، أليس كذلك؟».

«لكن لا يمكنني الخروج».

«ألا تخرج من منزلك؟».

«لا. لم أعد أستطيع ذلك. إطلاقاً».

«لأيّ سبب؟».

«إنّها في كلّ مكان... في الشارع، في المحلّات، في سيّارات الأجرة. في كلّ مكان».

«عمّن تكلّمني، سيّد ديور؟».

«عن الكاميرات. إنها مخبّأة، لكنّني أراها. تصوّرني، طوال الوقت، مهما فعلت. بدأوا بقرصنة كلّ أنظمة كاميرات المراقبة قرب منزلي، والآن لديهم أنظمتهم الخاصة، مخبّأة في كلّ الأماكن التي أذهب إليها. وحين لا يعثرون عليّ، يرسلون طائرات مسيّرة».

كان سانتياغو يسمع أنفاسه. حزر أنّ الفتى يتنفّس من فمه. ربّما ذلك مؤشر إلى أنّه باشر علاجاً.

«و... لأيّ سبب يصوّرونك؟».

«إنهم يبيعون الصور».

«فهمت. وبرأيك، كم من الوقت مضى على هذا النحو؟».

«لا أدري. في البداية، كانوا يرسلون أشخاصاً مع كاميرات خفيّة. لم أرصدهم على الفور. استمرّ الأمر لبعض الوقت. وحين تنبّهت إلى الأمر، اضطرّوا إلى تطوير وسائل أخرى، خفيّة أكثر».

«بالتالي، توقّفتَ عن الخروج؟».

«نعم».

حائراً ما بين الرغبة في إنهاء الاتّصال إذ بدت له خيوط القصّة خرقاء بعض الشيء، والخشية من التغاضي عن يأس حقيقيّ، ترك سانتياغو فالدو الصمت يخيّم مجدّدا للحظة.

أنصت إلى أنفاس الشابّ القلقة، ثمّ واصل الحديث.

«كيف تتدبّر أمرك لتأمين الطعام؟».

«أطلب عبر الإنترنت. أطلب من عامل التوصيل أن يضع الأكياس أمام الباب، وأفتح بعدما يغادر».

«كم عمرك سيّد ديور؟».

«عشرون عاماً».

«هل ثمة أحد من حولك؟ أهل، أشقاء، شقيقات، أصدقاء؟».

«لا. أو بالأحرى، هناك والدتي، لكن... لا».

«كم من الوقت مضى من غير أن تخرج؟».

«لا أدري... ثلاثة أشهر. ربّما أربعة».

«قضيت أربعة أشهر من دون أن تخطو خطوة خارج منزلك؟».

«نعم».

«ولم يأت أحد لرؤيتك؟».

نفد صبر الشاب فجأة.

«أنت لا تفهم! عليّ أن أحذر الجميع، الباعة، سيّارات الأجرة، أصدقائي. ليس هناك مكان واحد أكون فيه بأمان! زرعوا كاميرات في عيون أقربائي لتصويري!».

«سيّد ديور، من الممكن تماماً أن يأتي طبيب أو ممرّض لاصطحابك ومرافقتك إلى المستشفى. هناك ستكون بأمان. يمكننا منع الزيارات واتّخاذ تدابير لتكون في أمان».

«لا، لا، لا! سيكونون هناك! سيرسلون أحداً!».

يسمع سانتياغو الخوف الآن في صوته. لا بل الرعب.

«هم؟ من تعني؟».

تردّد سامي ديور ثانية قبل أن يجيب.

«هذا ما يجب أن أكتشفه. يجب أن أعرف أين تُبثّ هذه الصور. إلى من يبيعونها، هل تفهمني؟ الأمر المؤكّد هو أنّهم يبيعونها بثمن باهظ. باهظ جدّاً...».

«سامي، هل يمكنني أن أناديك سامي؟».

«نعم».

«هل تعرف ما هي مهنتي؟».

«نعم».

«إن اتّصلت بي، فربّما لأنّك أنت نفسك غير واثق تماماً بأن هؤلاء الأشخاص هم هنا فعلاً لتصويرك؟».

«بلى، أعرف أنهم هنا. أتّصل بك لأنّ الطبيبة المتدرّبة في مستشفى سانت آن قالت لي إنّك متخصّص في المجال الرقمي وشبكات التواصل. وبالتالي، قلت لنفسي إن بإمكانك مساعدتي على اكتشاف من يختبئ خلف كلّ هذا».

«سامي، أنا طبيب نفسيّ. إنّني متخصّص بالفعل في الأمراض المرتبطة بتطوّر الشبكات الاجتماعية والواقع الافتراضي والذكاء الاصطناعي. لكنّني طبيب. أقترح عليك إذاً أمراً: سوف آتي لرؤيتك في منزلك للتثبّت من أنّك تعيش في ظروف مناسبة وأنّك لست في خطر. وبعد ذلك، نقرر معاً ما ينبغي القيام به لمساعدتك. موافق؟».

رقّ قلبه عندما لمس انفراج الفتى.

«أجل دكتور، شكراً. لكن أرجوك لا تقل لأيّ كان إنك آتٍ».

لم يخطر لسانتياغو فالدو أن يسجّل المكالمة. ندم على ذلك، إذ ودّ لو يستمع إلى الحديث مجدّداً. يحبّ العمل على تحليل خطاب مرضاه بعد الحديث معهم، يدرس ترابط أفكارهم ونبرة صوتهم. يستبين مرجعيّاتهم. هي بمعظمها اليوم ألعاب فيديو ومسلسلات. يسألهم بصورة عامة إن كان بإمكانه الاحتفاظ بأثر للجلسة. لكن يصدف أحياناً أن يلتفّ على حرصه هذا ويسجّل الحديث من دون علمهم، ولو أنّ ذلك مخالف لأخلاقيّات المهنة.

بات الوقت متأخّراً. عليه أن يعود إلى منزله في ساعة مقبولة ليتناول العشاء مع رفيقته ويقرأ مسودّة الأطروحة حول مرونة الدماغ التي أرسلتها له إحدى طالباته وهي تعتمد مقاربة تثير اهتمامه إلى أقصى حدّ.

فيما هو يستعدّ لمغادرة مكتبه، نادى مساعده الشخصي الذي لقّبه «جاكو كاكو» تكريما لجاك لاكان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«قل لي جاكو...».

أجابه الصوت الاصطناعي على الفور.

«نعم سانتياغو، كيف يمكنني مساعدتك؟».

كما في كلّ مرّة، تلك النبرة الودود المتزلّفة بعض الشيء تثير عصبيّته. بعد مرور كلّ هذا الوقت، كان يجدر بهم عرض خيارات مختلفة... ودّ لو يجيبه «اذهب إلى الجحيم!»، ولو أنّه يقرّ راضياً

بمزايا المساعد الصوتيّ، خصوصا عندما تكون يداه منهمكتين بمهمّة أخرى، وفي هذه الحالة تحديداً توضيب الملفّات العديدة المكدّسة على مكتبه، أو حين يقوم بعدّة أمور في آن، وهي علّة شائعة لم يعد حتّى يحاول مقاومتها. مهما يكن، امتنع عن نهره. مضت فترة أراد خلالها اختبار حدود هذه الأداة، فكان له قسطه من الأحاديث العبثيّة والعقيمة مع جاكو، وهو يعرف تماماً أنّ مساعده يرفض الردّ على الشتائم.

«من هو سامي ديور؟».

انطلق الكمبيوتر، وفي أقلّ من ثانيتين، ظهرت على الشاشة نتائج بحثه. تلا جاكو بصوته الرقيق الفهيم الجواب الذي اعتبره الأنسب للسؤال:

سامي ديور يوتيوبر فرنسي. ولد عام ٢٠١١ واشتهر بفضل قناة الاستراحة السعيدة التي أنشأتها والدته ميلاني كلو. بين ٢٠١٦ و٢٠٢٣، نشرت القناة أكثر من ١٥٠٠ فيديو على منصّة يوتيوب. قدّرت وسائل إعلام مختلفة عائدات العائلة بعشرين مليون يورو.

في ٢٠١٩، خُطفت كيمي، شقيقة سامي، بيد إليز فافار فيما كانت في السادسة من العمر. بعد سبعة أيام من عمليّات بحث مكثّفة، سلّمت الخاطفة نفسها من تلقاء ذاتها إلى الفرقة الجنائية برفقة الطفلة.

بين ٢٠١٩ و٢٠٢٠، انتقلت الاستراحة السعيدة من خمسة إلى سبعة ملايين مشترك.

استباقاً للقانون المزمع إقراره حول الاستغلال التجاري للأطفال اليوتيوبرز، أنشأت عائلة ديور قنوات جديدة باسم كلّ من طفليها. لقيت القناة «سام السعيد» المخصّصة لسامي ديور نجاحاً واسعاً على الفور. وعلى إنستغرام، تخطّى عدد المشتركين في حساب سام الرسمي خلال بضعة أشهر مليون مشترك.

في ١٩ أكتوبر ٢٠٢٠، أقر البرلمان نهائياً القانون الذي يضبط نشاط الأطفال المؤثّرين. غير أن «الاستراحة السعيدة» و«سامي السعيد» واصلتا نشاطهما بدون تغيير الوتيرة.

تخصّص سامي على قناته الشخصيّة في اختبار ألعاب الفيديو.

في ٢٠٢٣، كشف تحقيق أجرته صحيفة «لوموند» الإستراتيجيّات والحيل المالية التي اتّبعها أهالي أطفال مؤثّرين للالتفاف على متطلّبات القانون.

في ٢٠٢٩، في سنّ الثامنة عشرة، اختفى سامي بدون أيّ تفسير. توقّف عن نشر مضامين جديدة على قناته على يوتيوب والشبكات الاجتماعية المرتبطة بها. واعتباراً من ذلك التاريخ، لم يعد يظهر أيضاً على أي من فيديوهات والدته. حاول عدة صحافيّين كشف الأسباب خلف هذا التوقف المفاجئ، بدون أن يفلحوا.

غير أن جميع فيديوهات «الاستراحة السعيدة» و«سام السعيد» لا تزال متوافرة على يوتيوب ولا تزال تحقق مشاهدات وتولّد عائدات».

«شكرا جاكو»، قال سانتياغو.

«لا شكر على واجب، سانتياغو. على الرحب والسعة».

«طبعاً...».

وضّب سانتياغو بعض الملفّات مردّداً الاسم: ديور... آه أجل ... بالطبع... تلك القضيّة تصدّرت الأخبار. وبالمناسبة، طُلب من إحدى زميلاته في المستشفى تقييم إليز فافار، خاطفة الطفلة. لم تكن المرأة الشابّة على حدّ ما يذكر تعاني من أي اضطرابات نفسيّة. بعد عدّة اختبارات تقييم، وبالرغم من بعض مؤشّرات تبدّد الشخصيّة، اعتُبرت مسؤولة جنائيّاً عن أفعالها. الواقع أنّها قضت ما لا يقلّ عن سنتين في السجن بدون إلزامها بالخضوع لعلاج.

عاودته تفاصيل القضيّة شيئاً فشيئاً وهو يطفئ الأضواء في عيادته: كانت المرأة الشابّة تريد إنقاذ الطفلة. كانت أشبه بدون كيخوته في ملابس نسائيّة يقاتل طواحين مال. ثارت نقاشات حول الأطفال المؤثّرين ومسؤولية أهلهم احتلّت على مدى عدّة أسابيع حيّزاً كبيراً من المشهد الإعلامي. شاءت صدفة الجدول الزمنيّ أن يتمّ التصويت على القانون بعد وقت قليل على عمليّة الخطف. ثمّ كما يحصل على الدوام، تراجع الاهتمام.

صفق سانتياغو باب مكتبه. أُغلق نظام القفل الآلي خلفه فيما سُمعت رنّة حادّة معلنة وصول المصعد. رفع رأسه صوب جهاز التعرّف على الوجه، وفُتح باب الحجرة أمامه.

كلارا روسّيل في الخامسة والأربعين من العمر. لا تزال تعيش وحيدة ولم تنجب طفلاً. في ظلّ المفارقة السائدة ما بين نفاد الموارد وتضاعف الأجهزة الموصولة بالإنترنت، لم تتبدّل حياتها كثيراً ظاهريّاً. لكن رغم ذلك، يبدو لها أنها باشرت تحوّلاً بطيئاً وضروريّاً. بوجه وحشيّة القضايا التي تحقّق فيها، وحشيّة تؤكّدها الوقائع في كلّ مرّة، تتسلّح بمسافة عاطفيّة اكتسبتها بمشقّة وتطلّبت منها انضباطاً في غاية الصرامة. تبلور نمط حياتها الزاهد: هي تشرب بكلّ سرور بضعة كؤوس، لكنّها تأكل القليل، لا تملك الكثير من المقتنيات، باستثناء بعض الحلي التي كانت لوالدتها، وبينها ساعة «ليب» قديمة لا تفارقها. تطمح إلى شكل من الخفّة، بل حتّى التقشّف، ولا تخشى الانطواء، وكأنّها بذلك تتفلّت من العنف والأسى. هكذا تحمي نفسها. أو على الأقل هذا ما تظنّ.

علاقاتها تقتصر على قلّة من الأشخاص لا يتخطّى عددهم أصابع يد واحدة. هناك كلوي، صديقتها التي أصبحت خبيرة قانونيّة، أمّ لولدين صغيرين مولعين بكلارا التي تهتمّ بهما بانتظام. ثمّ هناك جيرانها الأربعة، زوجان من الشرطيين، تعرفهم منذ خمسة عشر عاماً ويدعونها إلى العشاء كلّ أسبوع تقريباً. إنّها الصديقة العزباء التي يحبّون ممازحتها حول غراميّاتها أو حياتها العاطفيّة، صديقة مسمّرة بنظرهم فيما يشبه سنّ مراهقة أبديّة، ويعتبرها أولادهم واحدة منهم.

يتهيّأ لها أكثر من أيّ وقت مضى أنّها في خدمة قضيّة عظمى

تحرص على عدم تعريفها باسم. لا إله ولا سيّد[1]، بل سبيل. ولا شكّ أن سبيلها هي منغمسة في الدم. إن كانت تشرد أحياناً في تأمّلات حالمة مصبوغة بالحنين، فهي لا تستسلم إطلاقاً للندم. إنّها حيث ينبغي أن تكون تماماً.

في الباستيون، لا تزال تشغل منصب مأمورة الضابطة القضائيّة، إنّها الآن في فرقة لاسير. عملاً بتقاليد الشرطة، تحمل الفرق أسماء قادتها، وسيدريك بيرجيه غادر الفرقة الجنائية قبل بضع سنوات لتسلّم منصب قائد شعبة في فرقة حماية القصّر، الفرقة التي بدأ فيها مساره في السلك. بقي حفل رحيله محفوظاً في سجلّ الفرقة، ليس بسبب عدد الزجاجات الفارغة التي عُثر عليها في اليوم التالي فحسب، بل إن الكلام الذي خصّ به كلارا في خطاب وداعه دخل أسطورة القسم. نادراً ما شهدت الشرطة القضائية إعلان حبّ مهنيّ بهذا الجمال. بعد رحيل سيدريك، عُرض على كلارا منصب مساعدة قائد الفرقة، لكنّها رفضت. الإجراءات هي التي تثير اهتمامها، إجراءات تزداد حجماً وتعقيداً باطّراد. تحبّ أن تدرّب الأصغر سنّاً، وليس من النادر أن يقصدها مأمورو الضابطة القضائية من المجموعات الأخرى طالبين نصيحة.

خارج معاينات مسارح الجرائم وعمليات التشريح التي يتحتّم عليها حضورها، تقضي القسم الأكبر من وقتها خلف مكتبها، تحرّر مستندات وأوامر ضبط، تجرد أختاماً وتحاليل، تجري عمليّات

(١) Ni Dieu ni maître شعار رفعه الفوضويّون اعتبارا من أواخر القرن التاسع عشر.

استجواب أو تراجع محاضرها. وفي قلب الإجراءات، يبقى المحضر محور تركيزها. الحرص على إزالة أيّ التباس أو تقريب، وصياغة سرد أقرب ما يمكن إلى الوقائع، هذا ما يشغلها بالمقاوم الأوّل. وهو ما تريد نقله لغيرها.

بين الحين والآخر، حين تسأم من كميّة الأوراق الرسميّة التي تبقى هائلة رغم الرقمنة الشاملة للمستندات والمعطيات وظهور برمجيّات جديدة بانتظام، عندها تخرج للترويح عن نفسها.

قبل بضع سنوات، بينما كانت تشارك بدون تعزيزات في عمليّة توقيف خالية من المخاطر على ما كان يُعتقد، وقعت كلارا مع اثنين من زملائها في كمين. بقيت مشلولة الحركة عدّة دقائق، فيما ذراع مجهولة تضغط على عنقها وسلاح مصوّب على صدغها. تذكر أنّها أحسّت بدقّات قلبها تتباطأ، وبجسدها يتركّز بكامله حول وظائفها الحيويّة، كأنّها تحت تأثير تقلّص هائل في دفق دمها. بدت الأصوات، الكلمات، الحركات، كل ما يجري من حولها، وكأنه منبثق من عالم كتيم ناءٍ لم يعد بوسع سرعته أن تطالها. لم تشعر بالخوف. أصيب أحد زميليها في ساقه، والآخر في كتفه. أما هي، فنجت بعدّة كدمات على عنقها والتواء في رقبتها. نجح المشتبه بهما في الفرار وتم اعتراضهما بعد يومين في موقف استراحة محاذٍ لطريق عام.

عند عودتها بعد محطة قصيرة في المستشفى، بحثت كلارا في داخلها عن أثر هذه اللحظة التي بقيت عالقة في الزمن، خارج الواقع ومحفورة في جسدها في آن. ثمّة رجلان مسلّحان فتحا النار

أمامها، أحدهما كان يصوّب سلاحه عليها، لكنّها لم تشعر بأي خوف. لم تكن تعتزّ بذلك إطلاقاً. لم يكن الأمر طبيعيّا. في ذلك المساء، خطرت لها فكرة بلون «الزرقة» الحالكة: غياب الخوف يكشف عن غياب الحبّ.

لم يعد والداها يخطران في بالها كما من قبل. مؤشر إلى العمر بلا شكّ، أو مرور الزمن. الذكريات التي احتفظت بها عنهما تبدو لها مغطّاة بطبقة رقيقة دبقة، مثل تلك الصور التي تصفرّ لطول احتكاكها بالهواء. هما من زمن آخر، زمن يشار إليه بما قبل الرقميّ، يبدو لها غابراً مثل عصر ما قبل التاريخ الذي كانت تدرسه بشغف في المدرسة الابتدائيّة.

في هذا العالم حيث تترك أدنى حركة، أدنى تنقّل، أدنى حديث بصمة، تودّ هي لو لا يبقى لها أي أثر. تعرف أكثر من سواها كم أن الهاتف الذكيّ، أيّا كان الشكل الذي يتّخذه، وهو اليوم بأشكال عديدة، والمساعد الصوتيّ وأتمتة المنازل وشبكات التواصل، إنما هي جواسيس بلا ذمّة ومصادر لا تنضب من المعلومات سواء للأعمال التجارية أو للشرطة. تقوم التحقيقات في قسمها الأكبر اليوم في الفرقة الجنائية وسواها على التعقب بشتّى الوسائل، كاميرات المراقبة، وأنظمة التعرّف على الوجه، وتتبّع التنقّلات الآني أو بمفعول رجعي، والتدقيق في الاتصالات والفواتير والأقراص الصلبة وسجلّ البحث على الكمبيوتر، وتحليل السلوك. لم يعد أي تفصيل يفلت من المراقبة.

وكلّما أمعنت كلارا روسّيل في استخدام هذه الأدوات في سياق عملها، ازدادت إصراراً على الاختفاء.

إن كان المجتمع الحالي منقسماً كما يُقال إلى شطرين، فهي من جانب المعاندين. أولئك الذين يرفضون أن يتمّ تعقّب أثرهم مثل فراخ محشورة في مزارع، وتصنيفهم بعلامات مثل رزم معجّنات، أولئك الذين تخلّوا بقدر ما أمكنهم عن كل ما يسمح بتبيان أذواقهم وأصدقائهم وجدولهم الزمنيّ ونشاطاتهم، الذين لم يعودوا ينتمون إلى أي شبكة ولا أي جماعة، ويفضلون فتح كتب وصحف بدل تصفّح غوغل. خارج الشبكة. خيار أقليّة، غير أنه في اتّساع. خيار يصعب الالتزام به، إنّما فعل إيمان مشترك: الأفضل هو عدوّ الجيّد. فهي ليست ساذجة. تعلم أنّه من المستحيل اليوم الاختفاء تماماً عن شاشات الرادار. فهي مضطرّة لمجرّد التواصل مع زملائها، لاستخدام نظام رسائل فوريّة تبقى بياناته المشفّرة على ما يُفترض، محفوظة لدى الشركة المسوّقة له وتكون في متناول أيّ قرصان لديه حدّ أدنى من الحذاقة. غير أن الحدّ من آثارها، تقليص الهالة التي تبعثها من حولها، محو الخيط الرقميّ الذي تتركه خلفها، هذه هي معارك ترفض التخلّي عنها.

في حياتها اليوميّة، تحدّ من بصماتها. فهي لا تملك سيّارة، تتنقل مشياً أو على درّاجة هوائيّة، ولا تستخدم أي منتجات بلاستيكيّة، لا تستقلّ الطائرة، ولا تأكل اللحوم إلّا حين تكون مدعوّة. بصورة عامّة، تستهلك القليل، تشتري ملابسها من مخازن البضائع

المستعملة، تدوّر نفاياتها وتعيد استخدام كلّ ما أمكنها. لم يتحقّق «عالم ما بعد» الذي تحدّثوا عنه عند تفشّي جائحة كوفيد عام ٢٠٢٠. وكما توقّع كاتب شهير آنذاك، بقي العالم على حاله إنّما أسوأ، أكثر تعامياً من أيّ وقت مضى عن دماره الذاتيّ.

تتابع كلارا عن كثب في أوقات فراغها حركة دوليّة لمكافحة اختلال المناخ والانهيار البيئي. انضمّت أحياناً إلى بعض تظاهراتهم وشاركت خلال جمعيّات محليّة في المناقشات حول سبل تحرّكهم. هي تؤيّد تعبئة مدنيّة تضامنيّة تتبنّى عمليّات تدخّل غير عنيفة، ولا تعارض كليّاً شكلاً من العصيان المدنيّ. أدهشت الجميع خلال تلك الجمعيّات، بمجاهرتها بأنها شرطيّة: هي لا تخشى الجدل ولا المواجهة.

تزوّج توما طبيبة شرعيّة، وهو أب لطفلين. أحياناً تتلقّى منه رسائل مكتوبة بخطّ اليد على قصاصات ورق، إشارات بائدة من زمن خلا، تخترق جدار الوقت والبعد، يبدأها على الدوام بعبارة «جميلتي كلارا، كيف حالك؟».

هي بخير. أقلّه هذا ما تجيب. والواقع أنّها لا تُظهر أي مؤشّر لافت إلى إحباط أو كآبة، رغم أنّها اكتشفت في نفسها قبل وقت قصير انجذاباً مشؤوماً إلى الفراغ. خطرت لها مرّتين فكرة سقوطها، في المرّة الأولى على حافة صخور إيتروتا[١]، والمرّة الثانية من شرفة شقّة ضحيّة في الطابق العاشر. ربّما كان احتمالاً أو نداء أو ربّما ذكرى منبثقة من طفولتها، لا تعرف بالضبط.

---

(١) Etretat بلدة تقع على سواحل شمال فرنسا معروفة بصخورها الشاهقة.

تودّ لو استطاعت أن تعيش ولو مرّة «قصة حبّ عظيمة»، تحبّ هذه العبارة على ابتذالها حين تسمع زملاءها الشباب يقولونها، غير أنّ هذا كان ليتطلّب شكلاً من الاستسلام لم تقدر عليه يوماً. كان يجدر بها ربّما أن تتمدّد على أريكة طبيب نفسيّ لتفهم الأسباب خلف ذلك، لكنّها اختارت البقاء واقفة مهما حصل. بأبعد ما تعود بها الذاكرة، لطالما كانت في هذه الحالة من التوتّر، الترقّب، بل حتّى الريبة، حالة تبدو لها اليوم ملازمة لتفاعلات خلاياها. لا يسعها إلّا أن تفكّر في الضربة التالية التي ستتلقّاها: السقوط أو الخيانة.

تتبنّى أكثر من أي وقت مضى شعار الفرقة الجنائية التي اتّخذت رمزاً منذ إنشائها نبتة الشوك: من يلمس الشوك يذوق لسعته.

في ذلك اليوم من مايو ٢٠٣١، فيما كان الصيف بدأ قبل ستّة أسابيع من موعده وتخطت درجات الحرارة مرّة جديدة المستويات القياسية المسجلة في العام السابق، وصلت كلارا في الوقت المحدّد تماماً لحضور الإحاطة التي يعقدها رئيس مجموعتها كل يوم في الساعة ذاتها حول قهوة معروفة على أنّها الأفضل في المبنى ويبقى مصدرها طيّ الكتمان. كانت الأوضاع هادئة.في الآونة الأخيرة، لكنّ مجموعتها تبدأ في المساء ذاته مناوبتها لأسبوع. وسيعود لها حتّى الإثنين المقبل أن تتعامل مع أيّ حادث يقع.

ما إن خرجت من هذا الاجتماع الصباحيّ عائدة إلى المكتب الذي تشغله الآن وحدها، حتّى تلقّت كلارا رسالة نصيّة على ساعتها: وصل الشخص الذي هي على موعد معه في الساعة العاشرة. انطلق

جرس إنذار، إذ لم يكن الموعد مسجّلاً على أجندة الجهاز. أخذت تتمتم لاعنة البرنامج الإلكتروني الجديد الذي يخرج عن السيطرة عند أدنى تفصيل بحجّة التعرّف على أي شخص يدخل المكاتب، إلى حدّ جعل زملاءها في شعبة مكافحة الإرهاب يلقّبونه «النّكد». والواقع أن «النكد» لا يتحلّى بكثير من برودة الأعصاب، وهو دائماً على وشك إطلاق الدرجة القرمزيّة من خطّة «فيجيبيرات»[1].

جلست كلارا وأعادت تشغيل حاسوبها ببضع كلمات.

لم يكن الموعد مدرجاً على جدول أعمالها. وبالتالي، فإنّ البرنامج يعتبر أنّ الدخيل شخص خطير وسيّء النيّة، خصوصا وأن نظام التعرّف على الوجه لم يسمح بمعرفة هويّته. من حسن الحظّ أنّه لم يكن مُدرجاً على قائمة أجهزة الشرطة. بعد بضع ثوانٍ، ظهر وجه فتاة على شاشتها مرفق بعبارة «غير مطابق». طلب منها صوت مسبق التسجيل أن تعرّف فوراً عن الشخص أو تطلق إنذار الدرجة الأولى. ضاقت ذرعاً ولجأت إلى وسيلة قديمة مفيدة لا يمكن إنكار جدواها، فاتّصلت بمقسم الهاتف: لا داعيَ لإرسال المروحيّات، هي في طريقها إلى الطابق السفليّ... فيما كانت تنتظر المصعد، نظرت مجدّداً إلى وجه الفتاة الذي لا يزال يظهر بصورة متقطّعة على ساعتها. وجه لا تعرفه، هي واثقة من ذلك، غير أنه يبدو لها أليفاً بصورة غريبة.

---

(١) Vigipirate نظام إنذار أمني فرنسي لمكافحة الإرهاب ينصّ على تدابير وإجراءات تتناسب مع مستوى الخطر. كان في ما مضى يتضمّن أربع درجات، أقصاها الدرجة القرمزيّة، قبل أن يتمّ التخلّي عن هذه التصنيفات.

دخلت حجرة المصعد وضغطت على زرّ الطابق الأرضيّ.

فيما كان المصعد يهبط بها، راح دماغها يربط بين عدّة صور. لم يكن لديها أدنى شكّ: تحت عدستي كاميراتَي قاعة الاستقبال رقم أربعة، جالسة على الكرسيّ ذاته كما قبل اثنتي عشرة سنة، كانت كيمي ديور في انتظارها.

وفيّة لروتينها الصباحيّ، تستيقظ ميلاني كلو كلّ يوم في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة. قبل أن تعدّ لنفسها كوباً من عصير الفاكهة الطازجة، مستخدمة عصّارة «جونا»، الأفضل أداء في السوق، والتي توفّر لها علامتها التجارية كلّ سنة أحدث نموذج لقاء تنويه إيجابي على إحدى شبكاتها، تفتح باب الشرفة الزجاجيّ وتتأمّل البحر. تقول لنفسها باعتزاز «إنّنا ننعم بمشهد استثنائيّ». إنّها جملة تحبّ أن تردّدها بصوت عال، بقدر ما تردّد «إنها قطعة فردوس على الأرض». بوسعها أن تتغنّى ساعات ببيتها المعلّق على مرتفعات ساناري، وبالحديقة الغنّاء المزهرة المحيطة به، والتي تكلّفها صيانتها ثروة، غير أنها من بين الديكورات التي تحصد أكبر قدر من الاستحسان بين محبّيها. قرّروا قبل سنوات مغادرة شاتني مالابري. وسّعوا المبنى الأصلي، وكان مزرعة نموذجيّة من طراز منطقة البروفانس، استناداً إلى مخطّطات رسمها كيليان كيز، مهندس معماريّ شابّ بات نجم قطاع العقارات بفضل «منازل نجوم»، أحد آخر برامج تلفزيون الواقع، بثته إحدى القنوات الأرضيّة.

في تلك الفترة، تمّ اختيار ميلاني وبرونو من بين حوالى عشرة

مشاهير ليتقاسموا مع المشاهدين تلك المغامرة الشيّقة. حطمت الحلقات الثلاث المخصّصة لتحويل منزلهما والتي بُثّت بعد ظهر الأحد، رقماً قياسيّاً تاريخياً من حيث عدد المشاهدين. بالطبع، أصبح كيليان كيز صديقاً، وغادر الزوجان المنطقة الباريسيّة بدون أيّ أسف. فالضغط الملازم للشهرة لم يعد يحتمل.

هذا لا يعني أنّهما لم يكونا أقلّ شهرة هنا، في جنوب فرنسا، لكن الفرق أن بإمكانهما عزل نفسيهما على أراضيهما، في حديقتهما، في «وكر حبّهما الصغير»، كما تحبّ أن تردّد على شبكاتها، بعيداً عن الاختلاط الذي كان يفرضه مجمّع «السمكة الزرقاء»، حيث بدا لها وكأنّ الجيران تحالفوا ضدّهم لنشر افتراءات ونميمة. سرت في تلك الفترة أبشع الشائعات، وقلّما وجدا من يساندهما.

يبقى خطف كيمي ظلّاً، ثغرة في البناء الرائع الذي شيّدته. لحظة فظيعة تودّ لو تمحوها من ذاكرتها، ومن ذاكرتهم جميعاً، لحظة تردّدت أصداؤها لوقت طويل بعد عودتها. هي على يقين اليوم بأن كلّ الأمور السلبيّة التي حصلت لهم لاحقاً نبعت من هناك، من جنون تلك المرأة. تلك المرأة لطّخت حياتهم. تلك المرأة هي وصمة لا تمّحى في تاريخ العائلة المثاليّ. في نهاية المطاف، ما عاشوه في تلك الفترة، وفي السنوات التي تلت، التبعات الرهيبة التي عانت منها طفلتها، وهم جميعاً، لا تودّ حتّى التفكير به. إنها حقبة تجهد لمحوها وترفض التطرّق إليها. فمن أجل المضي قدماً، لا بدّ أحياناً من التصرّف وكأنّ الأمور لم تحصل بالأساس.

اليوم، حتى لو أن ولديها لم يعودا يعيشان معها، ثمّة أكثر من ثلاثة ملايين شخص يتبعون ميلاني، إذا ما احتسبت صفحتيها الرئيسيّتين: «نيو ميلاني»، حسابها على إنستغرام الذي بدّلت اسمه رغم أن الموقع يتراجع بوضوح وبات متقادماً، وهي تحيي عليه مجموعة من المتابعين الأوفياء، و«مع ميلاني» الذي أنشأته قبل سنتين على «باك هوم». ويضاف إليهما حسابها على تطبيق «كوكونينغ»، وصفحتها على «ستاي سايف»، شبكة التواصل الاجتماعي الجديدة التي تشهد صعوداً كبيراً وتوفّر لها جمهوراً أوسع تتقاسم معه وصفاتها وفلسفتها وروتينها اليوميّة وبالطبع حالاتها النفسيّة.

من جهة أخرى، وحرصاً منها على مواكبة آخر ما يجري ومتابعة أي جديد، كانت ميلاني من الأوليات اللواتي فتحن شبكتهنّ الخاصة لتلفزيون الواقع المنزلي، تحت عنوان «عند ميل»، المتوافرة حاليّاً على منصّة «شير ذي بيست» المدفوعة. يمكن للمشتركين بفضل هذا المفهوم قضاء أيام كاملة مع «مشاهيرهم» المفضّلين. تحقّق ميلاني نجاحاً هائلاً في هذا القطاع الواعد جدّاً. لا بدّ من القول إنّها تعطي بلا حساب. تصطحب محبّيها معها أينما تذهب وتعدهم بأنّ لا شيء سيفوتهم: موعد عند الطبيب، جلسة عند مصفّف الشعر، غداء مع زميلة مدوّنة فيديو أو مؤثّرة، «تتشارك» كلّ شيء. «التشارك» هو ما تعيش من أجله، أكثر من أي وقت مضى.

تتوجّه إليها باستمرار عدّة علامات تجاريّة لمستحضرات تجميل وملابس من أجل أن تروّج لمنتجاتها على شبكاتها من خلال

عروض حسومات تدع «أحبّائها» يستفيدون منها. والعمولات التي تتقاضاها لقاء هذه الخدمات هي بمستوى شعبيتها التي لم تضعف يوماً وقدرتها على إصدار توصيات تلقى آذاناً صاغية. فحماستها ونصائحها وما تبوح به عن حياتها الخاصّة، تكون على الدوام مثمرة. على صعيد آخر، ومنذ ظهورها في برنامج «بيوت نجوم»، اختارتها علامة تجاريّة شهيرة للأثاث المنزلي والديكور لتكون وجهها الإعلاني، وهي تجدّد عقدها معها كلّ سنة. إن كانت عائداتها السنويّة لا تصل إلى المبالغ الطائلة التي جنتها أيّام عزّ «الاستراحة السعيدة»، فإن شهرتها تضمن لها في المقابل دخلاً مريحاً للغاية. هذه نقطة ترفض التحدّث عنها بمزيد من الدقّة.

بقي برونو أوفى سندٍ لها. ظلّ الرجل الموثوق النزيه الذي تزوّجته في ٢٠١١، قبل أكثر من عشرين عاما.

خافت مرّة واحدة، خلال محاكمة إليز فافار، أن تضعف عزيمته. بمواجهة موجة الافتراءات الجديدة تلك، أخذت شكوك تساور زوجها، زوجها الصلب المتين. بدا فجأة وكأنّه لم يعد واثقاً من أيّ شيء. «ماذا لو كنّا مخطئين؟» همس لها ذات مساء، قبل أن يطفئ الضوء. هو الذي لطالما كان منيعاً على الحسد والمحتويات الحاقدة، ها أنّه راح يقلق حيال ما يُقال عن عائلته على شبكات التواصل الاجتماعي. هو الذي أظهر على الدوام ثقة كبرى بها وبرأيها. هو الذي لطالما سار في الاتجاه الذي تشير هي إليه.

انتابته لحظة ضعف. أو إحباط. راودته كوابيس.

ذات مساء، بعدما عادا للتوّ من المحكمة، أخذ برونو يبكي. كان يردّد ذارعاً الصالون «يجب أن نوقف كلّ شيء، يجب أن نوقف كلّ شيء، أرجوك». لم تره يوما في مثل هذه الحالة. في تلك الليلة، تساءلت ميلاني ما كان يعنيه بـ«كلّ شيء». هل كان يتكلّم عن المحاكمة، أو بصورة عامّة عن كلّ ما بنوه؟

استعاد زوجها السيطرة على نفسه منذ اليوم التالي. لم يتطرّقا إلى الموضوع مجدّداً منذ ذلك الحين، وحرصت على عدم إثارة المسألة. مرّة جديدة، أثبت لها زوجها ولاءه.

«أجل، فكّرت، يجب تخطّي العقبات وعدم النظر إلى الخلف». في مطلق الأحوال، هذا ما تنصح به محبّيها، فيما تتلألأ نجوم صغيرة حول وجهها وينبعث نور دافئ يغلّفها مثل هالة. «نحن بحاجة ماسّة إلى بعضٍ من الشِعر»، هكذا تختتم أحياناً كثيرة، محدّقة في الكاميرا.

لأسباب لا تفهمها، بداعي أن ذلك يولّد صعوبات نفسيّة لدى بعض الأشخاص إذ يقحمهم في سعيٍ لنيل التقدير والتأييد يمكن أن يصل بهم إلى الانهيار، لم يعد من الممكن منح «لايكات» على إنستغرام. لكن لحسن الحظّ، ابتكر موقع «باك هوم» نظام تأييد مرضياً بالقدر نفسه، يمكن لمتابعيها من خلاله أن يرسلوا لها «نعم، موافق» أو «نعم، أنا أيضاً!»، ويكتبوا تعليقات لا تتعدّى خمسين حرفاً، تغربلها المنصّة بفضل نظام تعرّف على الدلالة، فتحذفُ تلقائيّا كلّ ما هو سلبيّ أو مهين.

لا تزال ميلاني تتلقّى يوميّا كمّاً من الحبّ يغمرها ويفرحها. لا

شكّ أنّ هذا سبب سعادتها الكبيرة. فهي سعيدة فعلاً، أجل، رغم أن ولديها غادرا. هما بالغان الآن. هذه سنّة الحياة. «كلّ الأمّهات الحاضنات في العالم يجب أن يتهيّأن لرؤية أولادهنّ يغادرون»، تلك كانت إحدى فيديوهاتها الأكثر رواجاً. صوّرت ميلاني بعينين دامعتين وصوت يرتجف بعض الشيء غرفتي كيمي وسامي، الخزائن الفارغة والسريرين الموضّبين من غير أن ينام فيهما أحد. في ذلك النهار، كان الحزن يملأ قلب الأمّ الحاضنة. المشتركون يعشقون حين تكشف لهم ما يجول في بالها أو تبوح لهم بمشاعرها. يريدون أن يعرفوا كلّ شيء عنها، وكلّ شيء يفتنهم.

في حين تختار منافساتها عناوين إنجليزيّة قصيرة، تميّزت ميلاني على العكس بعناوين شاعريّة بالفرنسيّة، لا تخشى أن تكون طويلة. شجّعها هذا النجاح الأوّل، فألحقته بـ«النساء ما فوق الأربعين لديهنّ أسرار يخبّئنها جيّداً»، فيديو خصّصته للجمال والشباب الداخليّين، و«أم ليوم، أم للأبد. الأطفال يبقون في قلوبنا».

على إثر هذه الفيديوهات، هاجمها «كلين آب!»، موقع «تنكيل» يدّعي تسليط الضوء على تناقضات نجوم الإنترنت. بذريعة أنّها لا تزال تستخدم فلاتر لتمليس بشرتها وإضفاء نضارة إليها لمخاطبة مجموعة متابعيها، حملوا عليها لقلة الانسجام بين أفعالها وأقوالها. هؤلاء الناس لا يفقهون شيئاً. لا يعرفون شيئاً عن السحر، الخرافة، التناغم. ردّت عليهم «العالم بحاجة إلى عذوبة وبرق وألوان هادئة»، وقرّرت على الفور أن هذا سيكون عنوان الفيديو المقبل الذي ستنشره.

هي جُرحت بالفعل، لكن أكثر من جرح مشاعرها كان التلميحات المتكرّرة والعارية عن الأساس حول علاقتها الحاليّة مع ولديها. أكّد الموقع أن كيمي وسامي قطعا الروابط معها. الناس على استعداد لتلفيق أي شيء لمجرّد جني النقرات، إنها ظاهرة غير جديدة، لكنها اتّخذت أبعاداً أكبر بكثير. تحلم ميلاني بعالم ورديّ وأزرق، لا عنف فيه ولا حسد، عالم بإمكان كلّ شخص فيه تحقيق أحلامه والمجاهرة بأذواقه وإبداء تفاؤله، بدون أن يكون عرضة للانتقادات والسخرية.

وتتساءل أحياناً إن لم يكن يترتّب عليها هي أن تخلقه.

منذ بعض الوقت، لم يعد سام وكيم يخبرانها الكثير عنهما. لم يقطعا الروابط، طبعاً لا، لكنّها غالباً ما تجد صعوبة في الاتصال بهما. لا يمكنها تقاسم هذا مع مشتركيها. أوّلاً لأنّها تخشى النميمة، ثمّ لأنهم سيصابون بخيبة أمل حتماً إن علموا أنه بعد كلّ ما فعلت من أجلهما، ابتعد ولداها عنها. كانت أمّ في غاية التفاني، دائمة الحضور. عملت بكدّ لضمان مستقبلهما. بفضل «الاستراحة السعيدة»، تلك الإمبراطوريّة التي شيّدتها من لا شيء، لم يصبح سام وكيم نجمين حقيقيّين فحسب، بل يملك كلّ منهما اليوم شقّة في باريس. ويعيش الاثنان من أموال الحساب الذي فتحته في «صندوق الودائع والأمانات»(١) وتمكّنا من الحصول عليه عند بلوغهما سنّ الرشد، طبقاً لأحكام القانون. للأسف، لا يعمل أيّ

(١) Caisse des dépôts et consignations مؤسّسة ماليّة عامّة فرنسيّة تقوم بنشاطات ذات مصلحة عامة.

منهما بنصائحها، وكأن هذا المال يحرق أيديهما، وكأنّهما اتّفقا على تبديده.

غادرا. هكذا تجري الأمور. «كلّ الأمّهات الحاضنات في العالم يجب أن يتهيّأن لرؤية أولادهنّ يغادرون». أجل، هذه سنّة الحياة.

تتّصل بسامي مرّة في الأسبوع على الأقل. يجيبها ابنها في غالب الأحيان، لكنّه يتكلّم خافضاً صوته ويغلق الخط بعد ثوانٍ. إنّه غريب الأطوار. لا تعرف شيئاً عمّا يفعل، عمّا يعيش. يبدو لها على الدوام على عجلة من أمره. يقول إنّه سيشرح لها لاحقاً. لم يعد سامي يخبرهم شيئاً. وهذا يشغل بال برونو.

برونو مهموم جدّاً في هذه الفترة. يقلق على الولدين، على الكثير من المسائل الصغيرة غير المهمّة والتي تتخذ أبعاداً مبالغاً بها. تساوره تساؤلات، يستعيد قصصاً من الماضي، يشتري كتباً إلكترونيّة عن علم النفس. إنّها أزمة سنّ الأربعين. أحياناً تتساءل إن لم يكن هذا السلوك الغريب بدأ حين علما من خلال الإذاعة بوفاة غريغوار لاروندو. غريغ انتحر. إنه أمر حزين جدّاً، بالطبع. مضت سنوات من غير أن تردها أخبار عنه. توقّف عن الاتّصال بها بعد عودة كيم. في ٢٠٢٤، حاول العودة إلى التلفزيون في الموسم الأول والأخير من «قدامى كوه لانتا»، غير أنه أخفق وفشل البرنامج فشلا مدوّياً.

ليلة ورود هذا النبأ المؤسف، خطر لميلاني أن زوجها يشعر حتماً بارتياح كبير. نظرا إلى بعضهما بصمت. بدا برونو في غاية التأثر.

قالت لنفسها إن المسألة تحرّك فيه ذكريات أليمة. لكنّه منذ تلك الفترة يقلق على كلّ شيء، أو ربّما هذه مجرّد صدفة.

هي تعتقد أنّ سامي يمرّ بنوبة تمرّد مراهقة متأخرة. هذا ما يحصل للأولاد المدلّلين. فعلى عكس كيمي التي ذاقوا معها كلّ أشكال العذاب بسبب تلك المرأة، سامي لم يدخل يوماً في صدام معها. عمل على الدوام على أتمّ وجه في المدرسة وتدبّر أمره دائماً بشكل ممتاز.

تحبّ ميلاني أن تستذكره صبيّاً صغيراً، صبيّاً في غاية الرقّة والرزانة، دائم الحماسة، دائم الابتسامة، قادراً على تكرار المشهد ذاته خمس أو ستّ مرّات بدون تذمّر. الحقيقة أن سامي كان على الدوام موافقاً على أيّ اقتراح. التحديات، المقالب، الرحلات. خلافاً لشقيقته، لم يكن يتلكأ، لم يكن يشكّك في أي شيء. لطالما كان لسامي جمهوره الخاصّ من المعجبين. حين كان طفلاً، كان يعبد فتح علب الألعاب. لكن عندما كبر، أبدى شغفاً بالمقالب حين أصبحت رائجة. كان يبتكر بنفسه سيناريوهات جديدة. وعندما أنشأ شبكته الخاصّة التي كرّسها لألعاب الفيديو، لقي نجاحاً هائلاً. نجح في تطوير جماعته الخاصّة. كان متابعوه مولعون بابتسامته، بعينيه الخضراوين، وبمظهر الدبدوب اللطيف ذاك الذي استمدّه من والده. كان سامي الشقيق الأكبر المثالي وأفضل صديق. الفتيات كنّ يحلمن بلقائه، الفتيان يتمنّون أن يشبهونه.

ما الذي حصل حتّى توقّف هكذا فجأة، بين ليلة وضحايا،

بدون إعطاء أي تبرير، بدون توجيه أي رسالة إلى محبّيه؟ لم تعرف يوماً الجواب.

تجلس كيمي ديور تحت إعلان للوقاية من سرقة الهويّة الرقميّة، بانتظار وصول كلارا.

ما إن لمحتها المرأة الشابّة، حتّى نهضت وتقدّمت صوبها. إنها طويلة القامة، شامخة الرأس، شعرها المجعّد ينسدل على كتفيها. «تبدو أشبه بسويديّة»، قالت كلارا لنفسها، فيما تذكّرت فجأة قصّة غريغوار لاروندو، شعره الأشقر الذي بقي إلى الأبد في الظلّ.

عرّفت كيمي ديور عن نفسها ومدّت يدها لكلارا. جالت بعينيها القلقتين في أرجاء الصالة، ولم تجد كلارا أي صعوبة في إقامة الرابط بين الشابّة الواقفة أمامها والفتاة الصغيرة التي قضت ساعات تراقبها قبل أكثر من عشر سنوات.

«لا أدري إن كنتِ تذكرينني...».

«بالطبع كيمي. كيف يمكنني أن أخدمك؟».

«أودّ الاطّلاع على ملفّي. على جلسات الاستماع إليّ. أودّ معرفة ما قلت. كلّ ما قلت. ما رويته حين أعادتني إليز فافار. أظنّ أن هذا كان دورك، التثبّت من كلّ شيء وحفظ كلّ شيء في الأرشيف. أتصوّر أنه لا يزال هناك أثر».

عرضت عليها كلارا الصعود إلى مكتبها لبحث المسألة بهدوء. عند عبور البوابة الأمنيّة، بدت كيمي متردّدة.

اغتنمت كلارا المناسبة لتعتذر منها.

«عذراً، أكلّمك بحميميّة، هذا لأنّني عرفتك حين كنت طفلة».

«لست الوحيدة. الكلّ يكلّمني بحميميّة».

راحت كيمي تراقب كلارا في المصعد بدون أن تتفوّه بكلمة.

خرجتا من الحجرة وتبعتها الشابّة.

سمعت خلفها حذاءيها دوك مارتنز يطرقان الأرض باعثين صوتاً كتيماً. هي واثقة من أمر، وهو أن كيمي ديور لم تنته من تسوية حساباتها.

عند الوصول إلى المكتب، نظرت كيمي من حولها مجدّداً، وكأنّها تستكشف المكان لمعرفة أين تخطو. الواقع أنّه لم يكن هناك الكثير من المؤشّرات. لا نبتات ولا صور، فقط كميّة من الملفّات الجارية مكدّسة في كومة واحدة في توازن شبه مستقرّ، وحوالى عشر صور دامية حرصت كلارا على حجبها عن نظرها.

«كيف عثرت على اسمي؟».

«في أوراق والدتي، منذ وقت طويل. وجهك هو الوحيد الذي أذكره. كلّ ما تبقّى مبهم. علماء النفس، الأطبّاء، الشرطيّون الآخرون، محوت كلّ شيء... باستثنائك أنت. اقتربتِ منّي وأذكر أنّك قرفصت لتكلّميني. عند سماع نبرة صوتك، قلت لنفسي «ليس الأمر في غاية الخطورة». كنت خائفة على إليز. أعتقد أنّني أدركت رغم هدوئها ورقّتها، أنها قد تواجه متاعب كبرى. تعلمين،

لم أرها إطلاقا بعد ذلك الحين. بقيتِ معي طوال ما قبل الظهيرة. أعرف أنّ مقتطفات جلسة الاستماع إليّ أُبرزت خلال جلسات المحاكمة، لكنّني لم أتمكّن من الحصول على هذه الوثائق، ولا على أيّ من عناصر الملفّ. والداي لم يقبلا بإطلاعي على أيّ شيء».

«تودّين معرفة أمر محدّد؟».

«كلّ شيء».

عند استحضار تلك الحقبة، شرد ذهن كلارا لحظة وعاودها ذلك الطعم المرير الذي تركته لها القضيّة.

«وردت أمور كثيرة في الصحافة، تعلمين...».

قاطعتها الفتاة.

«لا يمكنني التعايش مع فكرة أن تلك المرأة، الوحيدة التي أدركت ما كنّا نعيشه، الوحيدة التي حاولت وضع حدّ له، قضت عامين في السجن بسببي».

«لم يكن ذلك بسببك أنت، كيمي. إليز فافار قضت عامين في السجن لأنها خالفت القانون. خطفتكِ واحتجزتكِ عدّة أيّام. ثبُت فيما بعد أنها لم تستخدم الإكراه الجسدي وأنها لم تكن مدفوعة بأيّ نوايا إجراميّة. سلّمت نفسها من تلقاء نفسها، والقضاة أخذوا ذلك في الاعتبار. لا داعي إطلاقا لتلومي نفسك، أؤكّد لك ذلك، بل على العكس، ساهمت شهادتك في تخفيف عقوبتها. كانت تواجه عقوبة أشدّ بكثير».

«أنت واثقة من ذلك؟».

«أجل. على حدّ ما أذكر، كانت روايتاكما متطابقتين تماما، وهذا صبّ لصالحها».

«قرأتُ الصحف. رواية الخطف ورواية «احتجازي» كما قالوا ... لكن ما أجده مذهلاً، أن لا أحد تساءل إن لم أشعر بالارتياح لقضاء بضعة أيّام في مأمن. بدون أن يتمّ تصويري من الصباح إلى المساء، وبدون أن تُروى حياتي ساعة بساعة لكلّ صفّي ومدرستي ومئات آلاف الأشخاص الذين لا أعرفهم إطلاقاً».

أثار الغضب اختلاجات طفيفة تحت صفحة وجهها الملساء.

«بلى كيمي. طُرحت هذه المسألة خلال المحاكمة، ولا سيّما لأنّ إليز فافار فسّرت عدداً من المؤشّرات الصادرة عنك على أنها مؤشّرات تعب، بل حتّى يأس و...».

«لكنهم أعادوني إلى المنزل».

«صحيح».

«أتعرفين ما حصل بعد ذلك؟».

اكتفت كلارا بهزّ رأسها نفياً، خشية أن تقطع مجرى كلام الفتاة.

«انتظرَت والدتي. انتظرت حتّى هدأت الأمور. ريثما يحوّل الإعلام اهتمامه إلى مسألة أخرى. تركَت عيد الميلاد يمضي، ثمّ الشتاء بكامله. عشنا لبضعة أسابيع، لبضعة أشهر، ما يشبه فترة

مرحليّة. كان أمراً غريباً، أتعلمين، أن يكون لدينا وقت. وقت لنشعر بالملل، وقت لنتساءل ماذا عسانا نفعل، وقت حتى لا نفعل شيئاً إطلاقاً. كانت وطأة ذلك سيّئة على والدتي. كانت تشعر بخوف رهيب من أن ينساها الجميع. أن تصبح غير مرئية يعني أن تختفي. قرابة شهر مارس على ما أظنّ، عرضَتْ عليها «تحدّي نعم». لمجرّد اللهو. ليس لنلهو فيما بيننا، في حميميّة حياتنا مثل معظم العائلات، لا. أن نلهو ونصوّر. أن نكسب المال ونحن نلهو. قبل الخطف، حصدت آخر فيديو من هذا النوع نشرناها عشرين مليون مشاهدة. الأطفال الذين يشاهدوننا كانوا مولعين بذلك. تصوّري، على مدى نهار كامل، أن يروا والدين يقولان نعم لكلّ شيء؟ هذا حلم أي طفل. ناهيك عن عودة الطفلة المسكينة المخطوفة. هذا سيناريو من ذهب، والرواج مضمون. وعلى كلّ حال، ما إن نشرت الفيديو حتّى حطّمت كلّ أرقامنا القياسيّة».

توقفت لحظة، كأنّما لتدع كلارا تتصوّر الوقائع، ثمّ تابعت.

«عندها عاودنا الكرّة. في بادئ الأمر، ستوري قصيرة بين الحين والآخر. لمجرّد طمأنة المحبّين. «أجل أحبّائي، كيمي بحال ممتازة، وهي ترسل لكم ضمّة من البوسات. أليس كذلك بيستي الصغيرة، ترسلين لهمّ ضمّة من البوسات الحارّة؟»».

تقلّد كيمي تماماً صوت والدتها، خنّته، تلك البهجة المتكلّفة التي تتلاعب بها بمهارة. تبتسم كلارا، لكنّ الفتاة لا تريد هذه الابتسامة.

«تسارعت الوتيرة. محاكمة إليز فافار لن تجري قبل عدّة أشهر، ووسائل الإعلام نسيتنا وطوت الصفحة. لكنّ المعجبين لم ينسونا. المعجبون كانوا متلهّفين لفيديو. هل تعتقدين أنّه كان بوسعي أن أقول لوالدتي «اخرجي من غرفتي أنت وهاتفك اللعين وأحباؤك الملاعين الذين يستمني بعضهم على مشهد هذه الصور الجميلة التي تتشاركينها مع العالم بأسره»؟ لا، من الواضح أن طفلة لا تتكلّم بهذه الطريقة. لا تخطر لها هذه الأفكار. لكنّني اليوم في الثامنة عشرة، وأتكلّم هكذا. نصف الذين ألتقيهم يظنون أنّهم يعرفونني أكثر ممّا أعرف نفسي. وإن غفلوا عنّي بالصدفة، يكفي أن يقوموا بأربع نقرات ليعثروا عليّ بسروالي الداخليّ أو بتوتو الباليه، أو ألتهم رقائق بطاطا مباشرة عن الطاولة بدون استخدام يديّ، مثل حيوان».

طغت القسوة على وجه كيمي.

«هل تظنّين فعلاً أن طفلاً عمره سنتين أو أربع سنوات أو عشر سنوات، يمكن فعلاً أن يكون «يريد» ذلك؟ أنّه يدرك ما يفعل؟».

لم تعد كلارا تتحرّك إطلاقاً. عيناها لا تفارقان الفتاة.

«من منكم واصل مشاهدة الاستراحة السعيدة بعد عودتي إلى المنزل؟ من شاهد مسابقتنا الرائعة «اِلعقْ أو اقضمْ»، ولعبتنا العظيمة «معركة ورق الحمّام» خلال فترة الحجر المنزلي؟ من رأى سامي مكبّلاً إلى قضبان سريره في إخراج أحمق عرّضه لأسوأ أنواع السخرية؟ من تجرّأ على التحدّث عن إذلال؟».

لا تنتظر كيمي ديور جواباً.

«أتصوّر أنه كان لديكم مسائل أهمّ تستدعي اهتمامكم. الحقيقة أنّ الشبكة كانت في ذلك الحين قد كسبت للتوّ مليون مشترك إضافيّ. عندها، شيئاً فشيئاً، عادت الأمور إلى مجراها. أجل، بعد بضعة أشهر، التصوير، مدن الملاهي، جلسات التوقيع، عاد كلّ شيء كما كان».

بالكاد التقطت كيمي أنفاسها.

«كيف يمكن كسب أصدقاء حين لا نشاطرهم أي شيء من حياتهم، وهم يشاهدون حياتنا من خلال شاشة؟ كنّا وحيدَين. كنّا على حدة. محطّ إعجاب أو بغض، عبادة أو شتيمة. «ثمة المجد»، كما كانت تقول... وليس هذا أسوأ ما في الأمر. الأسوأ هو أنّنا لم نكن بمأمن في أي مكان. لم نكن خارج متناولها في أي مكان».

توقفت الفتاة هذه المرّة. كان شريان أزرق رقيق ينبض على صدغيها، يختلج فيه غضبها الجارف.

عرضت عليها كلارا كوب ماء، فقبلت الفتاة. خرجت من المكتب، مبتعدة قليلاً لتنفّس الصعداء. عند رؤية انفعال الفتاة، استرجعت الذهول الذي سيطر عليها أمام مشاهد «الاستراحة السعيدة»، وذلك الشعور العنيف بالانفصام وعدم التأقلم الذي اجتاحها في ذلك الحين.

شعور يتبيّن لها إذا ما فكّرت في الأمر، أنه لم يفارقها يوماً.

صحيح أنّها نسيت كيمي ديور. أو بالأحرى انتقلت إلى مسألة أخرى. جثث، بشكل أساسيّ. أجساد لا تزال فاترة أو بردت تماماً، أجساد تحمل آثار تعذيب أو عظام مبعثرة عُثر عليها في أعماق غابة. أنجزت عملها. عمل فائق الدقّة يتطلّب منها كامل حدّتها الذهنيّة وتركيزها.

لكنّ كيمي على حقّ. لم تواصل مشاهدة «الاستراحة السريعة». عند التصويت على القانون، قالت لنفسها إن المشكلة لقيت تسوية. وعلى غرار الجميع، أغمضت عينيها.

عادت كلارا إلى القاعة حاملة كوبا.

كانت كيمي قد نهضت في غيابها ووقفت تنظر من النافذة.

شربت الشابّة الكوب دفعة واحدة ثم جلست من جديد. هي أتت لتتكلّم، ولم تنته بعد.

«في سنّ الثامنة أو التاسعة، بدأت أعاني من تشنّج عصبيّ لاإراديّ. طرفة عين خارجة عن السيطرة يمكن رؤيتها في مقاطع الفيديو، حين أكون بمواجهة الكاميرا. بعدما جالت بي على عدّة اختصاصيّين أوصوا بالراحة والصبر لأنّ معظم هذه التشنّجات لدى الأطفال مرحليّة، قرّرت والدتي أن سامي سيواصل فيديوهات فتح الهدايا وحده. أمّا أنا، فسوف أشارك في صيغ أخرى، تكون مشكلتي فيها أقلّ وضوحاً. قام سامي وحده بفتح الرزم وبيض كيندر لبعض الوقت. كانت تلك الفترة التي صوّرنا فيها تقريباً كلّ

فيديوهات «تحدي ٢٤ ساعة» التي كانت تلاقي رواجاً كبيراً على الشبكات العائليّة الأخرى: ٢٤ ساعة في علبة كرتون، ٢٤ ساعة في الدوش، ٢٤ ساعة في قصر مطّاطيّ، ٢٤ ساعة في كوخ القماش... كنا نلهو ونمرح كالمجانين...»

لا تجرؤ كلارا على النظر إلى ساعتها. لديها موعد وهي واثقة من أنّها تأخّرت كثيراً عنه، لكن عليها أن تدع الشابّة تمضي حتّى النهاية.

«ماذا حصل بعد ذلك؟».

«حين زال التشنّج العصبي، بدأت تظهر طفرة على وجهي. وخلال أسابيع قليلة، ظهر الإكزيما وامتدّ. على يديّ، على عنقي، على بطني، بشرة مخيفة أشبه بجلد تمساح. حاولت والدتي إخفاءها بالمكياج، لكنّ أيّ مستحضرات تجميل كانت تزيد حدّة الأعراض. عندها أصبح سامي تدريجيّاً بطل الاستراحة السعيدة، وتواريت أنا عن القناة. قرابة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، بدأتُ أدخّن الحشيش وضاجعت نصف فتيان المدرسة المجاورة. ذهبت الإكزيما، لكنّني لم أعد أمتّ بصلة إلى الفتاة الصغيرة النموذجيّة التي كانت والدتي تحبّ استعراضها. زيّ الأميرة بات ممزّقاً إرباً ومزاجي لم يعد يتوافق إطلاقاً مع الديكور. أصبحتُ مراهقة مثل سائر المراهقات تقريباً، وقحة ومتمرّدة على أهلها. كنت أقول إنّني أريد العيش عند إليز لمجرّد أن أغيظهم، حتّى لو كنت على يقين بصدور أمر بحقّها يمنعها من الاقتراب منّي. بعد شجارات متكرّرة، وخلافاً

لرأي والدتي، وافق أبي على إرسالي إلى مدرسة داخليّة. هناك صبغت شعري بلون أسود حالك وقرّرت أن اسمي كارين. حذّرت المدير والأساتذة، قلت إنها مسألة موت أو حياة. حين كان أحد يسألني إن كنت كيمي ديور، كنت أجيب بأنها ابنة عمّي وبأنها معتوهة حقيقيّة. فهِم التلاميذ سريعاً ألّا يصرّوا على المسألة. واصلت بعض الفتيات الاستهزاء بي، سواء بوَشْوَشات أو على الشبكات الاجتماعيّة، لم أكن آبه. كانت بشرتي ملساء وكنت أتنفّس. الاستراحة السعيدة توقّفت. بالطبع، احتفظت والدتي بحسابها على إنستغرام لكل محبّي الاستراحة الذين يودّون الاطّلاع على أخبار العائلة. وظلّت تروي حياتها الخياليّة، تنمّقها بالفلاتر وزخّات البرَق. ثمّ كان هناك سامي. كان لديه قناته الخاصّة التي كانت تحقق نجاحاً متزايداً. حين غادرتُ، أصبحَتْ مدرّبته، مصمّمة أزيائه، مديرته الماليّة. سامي لم يُعد النظر في أي شيء في أيّ وقت. قالت له إنّه يعيش حياة استثنائيّة، رائعة، وصدّقها».

استرجعت كلارا للحظة صورة صبيّ الثماني سنوات الذي التقته في منزلهم، صبيّ حادّ الذهن قلق، وحاولت تصوّره شابّاً بالغاً.

«وسامي، هل هو بخير؟».

صمتت كيمي لحظة قبل أن تجيب.

«لا أدري. لا أدري أين هو، ولا ما يفعل. حين كنت في المدرسة الداخليّة، قلّما كنا نتقابل. حين كنت أعود في عطلة نهاية الأسبوع،

كنا نلتقي، لكنّنا لم نكن نتكلّم معاً. من المحزن أن أقول ذلك، لكنّنا لم نكن في المعسكر ذاته. أنا أعلنت الحرب، وأقنعت نفسي بأنه يعقد صفقة مع العدوّ. كان يصوّر كلّ هذه الفيديوهات على قناتة، دائما تحت سيطرة والدتي، ومع حلولها فيها ضيفة شرف. كان بنظري مجرّد خائن متعاون. تباعدنا. حصل على اتفاقات شراكة ضخمة مع علامات تجاريّة، قام بكميّة من المشاريع مع مؤثّرين آخرين، كانت أموره تسير بشكل ممتاز. انتقل للعيش في باريس ليكون في قلب الحدث. كانت والدتي تتابع نشاطه عن كثب، تعيد قراءة عقوده، تقدّم له النصائح. حتّى عن مسافة، بقيت حاضرة. حين وصلتُ إلى باريس، اتّصلت بسامي. أعطاني موعداً للالتقاء في مقهى. أدركت على الفور أن الأمور انقطعت. العلاقة بيننا. بات من الصعب للغاية التكلّم معه. قلت لنفسي إنّه ناقم عليّ لأنّني هجرت السفينة، لم أتضامن معه. تهيّأ لي حتّى أنّه يرتاب منّي. رغم أنّنا كنا قريبين للغاية. لا يمكنك أن تفهمي. كان شقيقي الأكبر. كنت أعبده، كنت معجبة به. أحزنني الأمر كثيراً. ظننت أنّه بعيداً عن أهلنا ستتمكن من التلاقي، من استعادة ذلك التواطؤ بيننا. لكن ما حصل هو عكس ذلك، وخسرته إلى الأبد».

التقطت أنفاسها ثمّ واصلت خافضة صوتها بنبرة واجمة.

«قبل عام تقريبا، أوقف كلّ شيء. في ذروة شهرته، هكذا، بين ليلة وضحاها. لم يعد موجوداً على أي شبكة تواصل، ألغى كلّ حساباته. لم يعد هناك سوى فيديوهات الاستراحة السعيدة،

لأن والدتي لا تزال تدير القناة. انتقل سامي إلى عنوان آخر، بدّل رقم هاتفه، أجهل أين هو. لا أحد يعرف. لم أعد أرى والديّ أيضاً. أراسل والدي بين الحين والآخر، رسالة إلكترونيّة قصيرة لأخبره عنّي. يجيبني خلال نصف ساعة، يقول إنه قلق عليّ، يريد أن يعرف كيف حالي، يسألني متى آتي. أحياناً، بعد كلّ هذه السنوات، يتهيّأ لي أن والدي بدأت تساوره شكوك. أستشِفّ من كلمة، من ذكرى، بين السطور، ندمه أو حسرته. لم أعد إلى الجنوب منذ فترة طويلة».

توقّفت كيمي ونظرت من حولها، وكأنها تستغرب أن تكون لا تزال هنا. ثمّ تابعت بصوت وهن فجأة.

«تعرفين، الواقع أن والدتي حصلت على ما تريده. فهي «ميلاني دريم»، والدة كيم وسام، وستبقى هكذا إلى الأبد، لجيل كامل... لكن سامي، لا أدري إن كان سعيدا».

الصمت الذي تلا كلامها كان مشحونا وكثيفاً بقدر سردها.

خيّم الحزن على وجهها. تحت بشرتها، كان الانفعال يسري في شحنات كهربائيّة ضئيلة تحتويها بصعوبة.

نظرت كلارا إلى ساعتها. كان يجدر بها في الوقت الحاضر أن تكون وصلت منذ أمدٍ إلى معهد الطبّ الشرعي لحضور تشريح جثة فتى عثر عليه بالأمس وسط مشهد سيناريو انتحار غير مقنع. لا بدّ لها هذه المرّة من إنهاء المقابلة.

«أنا آسفة كيمي، عليّ أن أغادر... سأرى ماذا بوسعي أن أفعل. لا يمكنني أن أعدك بشيء، لكنّني سأعاود الاتّصال بك».

وجم وجه الفتاة.

نظرت إلى الورقة والقلم اللذين كانت كلارا تمدّهما لها وكأنّهما استُخرجا للتو من موقع تنقيب عن آثار، ثمّ فهمت أن عليها أن تترك عنوانها ورقمها الهاتفيّ.

حين انغلق باب المصعد على قامة كيمي ديور الطويلة، قالت كلارا بصوت منخفض جملة واضحة بوضوح تلك الجمل التي لا تزال توقظها أحياناً في وسط الليل:

«شقيقها هو من جاءت تبحث عنه».

عند خروجها من الباستيون، مشت كيمي باتّجاه محطّة المترو. إن حالفها الحظّ قليلاً، سوف تجد درّاجة كهربائيّة عند مركز التوزيع. نجحت في مقابلة كلارا روسّيل، لكنّها ليست واثقة بأنّها تمكّنت من إقناعها. لم يكن لديها وقت كافٍ. ودّت لو تخبرها كلّ شيء، منذ ذلك اليوم الذي أعادتها فيه إليز فافار إلى ذلك المبنى الزجاجي ذي الأروقة على شكل متاهة، حتّى يوم بلوغها الثامنة عشرة، حين قرّرت العودة إليه. غالباً ما تساءلت لماذا تذكر تلك المرأة، في حين محت ذاكرتها كل الوجوه الأخرى، كل أولئك البالغين الذين كانوا يتكلّمون بصوت هادئ وبكثير من المراعاة، الذين كشفوا على جسدها وطرحوا عليها أسئلة. عند رؤيتها هذا الصباح، رقيقة

هزيلة، وفي الوقت نفسه تبعث جاذباً مغناطيسيّاً، خطر لها أن السبب ربّما هو قامتها الشبيهة بقامة طفل.

ودّت لو تبقى طوال النهار في ذلك المكتب. ودّت لو تتخلّص من أوزار غضبها وإحساسها بالذنب وكدرها. أن تتخلّى بين تلك الجدران عن سنوات من الفرح المتكلّف والضيق العصيّ عن الوصف.

لم تحسن إيجاد الكلمات المناسبة.

حين تبحث عن اللحظات الطيّبة في طفولتها، سامي هو الذي يخطر لها على الدوام. هو الذي تعود إليه. شقيقها الأكبر.

حين كان ينسلّ إلى غرفتها بعدما يخلدان إلى السرير ليتمنّى لها «بصدق» ليلة هنيئة.

حين كان يروي لها قصص سكوتش، ذلك الصبيّ الصغير الخفيّ الذي اخترعه.

حين كان يدافع عنها لأنها نسيت نصّها أو ترفض ارتداء توتو ورديّ. في بعض الأيّام، كان الوحيد القادر على إقناعها بوضع الزيّ الذي ترفض ارتداءه.

حين كان يترك لها الحصة الكبرى من التورتة أو من الحلوى.

وتلك الألعاب الخاصّة بهما وحدهما: عدم السير على خطوط الرصيف، تعداد السيّارات الكهربائيّة، إخفاء دودو وسخة في مكان لا يمكن العثور عليها لتنجو من الغسّالة.

في أحد الأيّام، خلال فترة إصابتها بالتشنّج العصبيّ، دخل سامي في عراك بالأيدي لأن صبيّاً في المدرسة سخر منها أمام عدد من التلاميذ.

نجحا لوقت طويل في الحفاظ على عالمهما، خارج حقل الكاميرا، وعلى لغتهما الخاصّة. عالم الشقيق والشقيقة ذاك الصغير بنسخة مشفّرة، لم يكن والداهما يدريان به. لكن شيئاً فشيئاً قضمت الاستراحة السعيدة ألعابهما، مساحتهما الحيويّة، فارضة أسلوبها وكلماتها ولوازمها الترويجيّة المكرّرة مئات المرّات. الاستراحة السعيدة انتصرت.

استجاب سامي على الدوام لرغبات والدتهما، بدون أن يقاومها مرّة. كان الابن المثاليّ، ابن أمّه المدلّل. دوماً موافقاً، دوماً متأهّباً. كان يعمل بكدّ، لا يشتكي. وكلّما تملّصت كيمي، ازداد انصياعاً. كلّما أمعنت في تمرّدها، ضاعف أدلّة الولاء. لأنّها كانت تقول لا، كان هو يقول نعم. ولأنّه كان يقول نعم، كان بإمكانها أن تقول لا.

طوال تلك السنوات، كابد الإهانات والتهكّم والكنيات. موجات من الكراهية والسخرية. لم يردّ يوماً. وكأن لا شيء يمكن أن يبعث فيه الشكّ. كان يشرح لمن يودّ الاستماع إليه أنّه يبني مستقبله. أنّه سيشتهر وسيكسب الكثير من المال.

نقمَتْ على شقيقها لأنّه كان الابن النموذجيّ. كرهته لأنّه كان مطيعاً. لم تقدّر حقّ التقدير ما كان يأخذ على عاتقه. ما كان يعوّض عنه.

اليوم فهمت ذلك.

بتركه مجال التمرّد لها، إنّما منحها إمكانيّة الفرار.

اكتسب سانتياغو فالدو مؤخّراً برنامجاً للتعرّف الصوتيّ، لا بدّ له من الإقرار بأدائه المذهل. فالميكروفون قوي إلى حدّ يمكنه أن يذرع مكتبه وهو يملي مقاله. بمجرّد كلمة، يمكنه فتح أرشيف أو وثائق متمّمة أثناء الإملاء، أو البحث عن اقتباسات أو رسوم تصويريّة. يشير له البرنامج إلى أي تكرار أو خطأ محتمل في الصرف أو النحو، ويقترح عليه حتّى حلولاً.

يكتب سانتياغو منذ عدّة أيّام مقالاً حول تطوّر مفهوم «التزام المنزل»، وهو اتّجاه سائد وضع مفهومه عالم اجتماع أميركيّ.

مع تلاوته الجمل واحدةً تلو الأخرى، يراها تظهر على الصفحة البيضاء كأنّها بأعجوبة، خالية من أيّ خطأ نحويّ أو مطبعيّ.

وإن أراد إجراء تصحيح، يكفي أن يلفظ عبارة «عودة إلى الوراء» مع ذكر عدد الأحرف أو الكلمات المعنيّة.

راح يمشي في القاعة ذهاباً وإياباً، محاولاً صياغة خاتمته.

«بات بإمكاننا عيش حيوات أخرى غير حياتنا ونحن جالسين في أريكتنا. يكفي أن نشترك في منصّة مدفوعة، أن نختار الصيغة التي تناسبنا، وتكون انغماسيّة بالقدر الذي تتيحه الأجهزة المتوافرة لنا، وأن نستسلم للإرشادات. إنّها سوق تشهد نموّاً سريعاً. إن كان الواقع الافتراضي، من حيث عرضه عيش حيوات بالوكالة،

يلاقي نجاحا مؤكّداً (لقاء بضعة يوروهات، يمكن قضاء أربع وعشرين ساعة في فيلّا عائمة على ركائز فوق الماء في جزر المالديف مع نقل للألوان ممتاز من حيث واقعيّته)، فإنّ «القصّة الحقيقيّة» المعروفة أيضا بـ«تلفزيون الواقع من المنزل» تحتلّ حصّة متزايدة من السوق.

يعرض موقع «تقاسم الأفضل» حاليّا على قائمته أكثر من ألفي حياة سواء لمشاهير أو مجهولين، من نساء رجال، عزّاب أو في علاقة، من كلّ الأجناس والتوجّهات الجنسيّة، عائلات كبيرة أو صغيرة، متقاعدين. وتسمح عروض بتعرفة أفضليّة بعيش حياتان أو ثلاث في آن.

العديد من الناس...».

توقّف لإجراء تصحيح.

«عودة إلى الوراء: ثلاث كلمات».

فكّر لحظة، ثمّ عاود الإملاء.

«ثمّة عدد متزايد من البالغين الشباب الذين لم يعودوا يخرجون من منازلهم. يعملون عن بعد، أو لا يعملون إطلاقا، توقّفوا عن الذهاب إلى المسرح والسينما وحتّى إلى السوبرماركت. يستهلكون موادّ (غذائية، تجميليّة، منزليّة، ثقافيّة..) تسلّم إلى منازلهم ويتواصلون من خلال واجهة مستخدم أو ألعاب فيديو تزداد تطوّراً وتعقيداً. لقاء هذا الثمن، يشعرون بالأمان».

توقّف. قال لنفسه إنه سيُنهي عرضه لاحقاً. عليه أخذ بعض المسافة، إيجاد خاتمة أشدّ وقعاً.

الأمراض التي يدرسها سانتياغو، والمرتبطة بتعرّض مفرط مبكّر لشبكات التواصل الاجتماعي، تظهر في سنّ المراهقة، أو بشكل أكثر تواتراً عند الانتقال إلى سنّ الرشد. ومن أعراضها الرئيسيّة الإدمان. وهو بشكل أساسيّ سلوكيّ (ألعاب، إنترنت)، غير أنه ينتقل أيضاً إلى المواد المؤثّرة عقليّاً (كحول، مخدّرات). قد تظهر اضطرابات الإدمان حين يشعر الشخص أن جمهوره أو مساحته الإعلامية في تقلّص (ما يحصل عندها هو أنه بعد حرمانه من جرعته من المكافآت، مثل عدد المشاهدات والتعليقات ومختلف مؤشّرات التأييد، كأنّما يعوّض عن هذا النقص بمادة أخرى باتت متاحة أكثر له)، غير أنها تظهر أيضاً في ذروة الشهرة، للتخفيف من القلق الذي تثيره والعزلة التي تتسبّب بها في بعض الحالات.

من جهة أخرى، ثمة اضطرابات نفسيّة أخرى جرى تشخيصها حتى الآن في القارّة الأميركية، بات يبلّغ عن أعراضها الآن في أوروبا وهي موضع أبحاث جديدة برز سانتياغو كأحد روّادها، محاطاً بحوالي عشرين زميلا من جامعيّين وأطبّاء في المستشفيات.

بعد مكالمتين هاتفيّتين مع سامي ديور، بات شبه واثق من أنّه يعاني من الأعراض النموذجيّة الرئيسية لما يُعرف بمتلازمة «ترومان شو» التي رصدت لأوّل مرّة في لوس أنجلس في العقد الأوّل من

الألفيّة. أُفيد بصورة متزامنة عن بعض الحالات في أوروبا، بدون أن تكون موضع منشورات أكاديميّة.

بعدما كانت المتلازمة تعتبر في الماضي مؤشراً إلى اضطرابات نفسيّة غير مشخّصة (بارانويا، فصام، قطبيّة ثنائيّة)، باتت اليوم تُدرس على أنّها مرض بحدّ ذاته. وهي تستمدّ اسمها من فيلم بيتر وير الذي عُرض عام ١٩٩٨ ويلخّص جاكو لو كاكو حبكته كالتالي:

«يروي ترومان شو قصّة فتى يكتشف عشيّة بلوغه الثلاثين أنه يصوَّر منذ يوم ولادته ويعيش محاطاً بممثّلين. زوجته وأعزّ صديق له يضعان سمّاعة أذن ويتقاضيان أجراً لقاء دوريهما بجانبه، وحياته برمّتها يرتّبها المبتكر المجنون الذي يدير البرنامج. ترومان بوربانك هو من غير أن يدري بطل برنامج ضخم من تلفزيون الواقع، بطل يحظى بشهره عالميّة وجمهور مولع به. يقع في غرام ممثّلة ثانويّة، فيقرر الفرار إلى العالم الحقيقيّ».

يعمل سانتياغو منذ وقت طويل على هذا الموضوع. المرضى المصابون بمتلازمة «ترومان شو» مقتنعون بأنّهم يصوَّرون على مدار الساعة، وأن كلّ لحظة من حياتهم تُبثّ في مكان ما: حلقة برنامج من تلفزيون الواقع الافتراضي، على منصّة تشارك، في أعماق الشبكة المظلمة... محيطهم بكامله متواطئ في هذه المكيدة. الأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة يلعبون كلّهم أدواراً أوكلت إليهم مسبقاً، فيختبرونهم أو يساهمون في إخفاء الحقيقة عنهم.

القلق البالغ، السابق للأعراض في غالب الأحيان، الذي يشعر

به هؤلاء المرضى يلقى تفسيراً منطقيّاً في فكرة مؤامرة معمّمة. إنّهم على قناعة بأن الاهتمام العام ينصبّ عليهم وأن جمهوراً خفيّاً يراقبهم، وبذلك يسمحون لهذا القلق باكتساب شرعيّة.

في حالة سامي ديور، الاضطراب ليس مجرّد تصوّر ذهنيّ، بل يستمدّ جذوره في ذكريات محدّدة من الطفولة شكّلت على ما يبدو صدمة.

في الأشكال الأكثر حدّة من المرض، يعتقد المصاب أن تكنولوجيّات متطوّرة أو قيد الاختبار تتحكّم بذهنه وبجسده. محاطاً بأجهزة متّصلة بالإنترنت، يرى نفسه هو ذاته جهازاً يسيّره عن بعد مرجع أعلى خفيّ وخبيث. قد يصل الأمر بالمريض إلى حدّ سماع أصوات يظنّ أنّ أنظمة بثّ مختلفة تبعثها مباشرة في دماغه، فيما تبدو له ذكرياته صوراً غرزت في ذهنه بدون علمه. وفي هذه الحالة، يكون واثقاً من أنّ أيّا من أعضاء جسده لا يمكنه الإفلات من هذه السيطرة.

خلال السنوات الخمس الماضية، تمّ تشخيص عشر إصابات بمتلازمة «ترومان شو» في فرنسا، جميعها لدى مرضى ولدوا بعد ٢٠٠٥، وكانوا على تماس منذ صغرهم بمنصّات التشارك أو شبكات التواصل الاجتماعي. غير أن تبعات ذلك التعرّض المبكر تبقى في الوقت الحاضر مجرّد فرضيّة عمل.

تعود كلارا إلى منزلها مشياً. تمشي بسرعة ثابتة، لا تعرف وسيلة أفضل للتخلّص من التوتّر. شيئاً فشيئاً تتحلحل عقدة الأعصاب

في أعلى معدتها ويتبدّد الشعور بالضغط النفسيّ. تتنبّه إلى الصمت. صمت لا يصدّق، غير معتاد في المدينة. بعد معركة نيابية طويلة، دخل القانون الذي يحظر المركبات العاملة بالبنزين في دوائر باريس العشرين حيّز التنفيذ للتوّ. خطر لها أنّه حسّ مختلف بالمساحة والفضاء، يذكّرها بأيّام الشتاء حين كانت طفلة صغيرة، أيّام كان الثلج لا يزال يتساقط.

على وقع ترنّح جسدها الرتيب، تتعاقب الخواطر وتجري. يبدو لها من الأسهل عليها مقاربتها في هذا الشكل المتحرّك والإحاطة بها أو حتّى الالتفاف حولها. فهي تتبع الاندفاعة ذاتها التي تقذفها إلى الأمام، وبهذه الوتيرة نفسها تتوارى أو تتجلى.

تفكّر في كيمي ديور وطلبها الغريب.

تفكّر في جثّة الشاب «المنتحَر».

تفكّر في الفستان الأرجوانيّ الذي يمكنها ارتداؤه هذا المساء وحمرة الشفاه التي تناسبه.

تفكّر في عرض سيدريك آخر مرّة تناولا الغداء معاً في الكافيتيريا. يودّ أن تنضمّ إليه في فرقة حماية القصّر. ثمة منصب رئيس مجموعة سيصبح شاغراً قريباً في فريقه. حاولت مواجهته بسلسلة من الحجج، فهي لم تعمل في الميدان منذ وقت طويل، ولا أطفال لها... لكنّه قاطعها من غير أن ينتظر: هو بحاجة إليها.

بينما كلارا تعبر المنتزه، تجاوزها رجل.

استدار ملتفتاً إليها وتفرّس فيها بلا خجل، ثمّ واصل طريقه خائب الأمل على ما يبدو. هي تعرف أنها احتفظت من الخلف بتلك القامة الفتيّة اليافعة التي تلفت النظر. أما من الوجه، فهي تلك المرأة بوجهها المتعب بلا مكياج. تبتسم.

عندما تصل على مقربة من مبناها، تسرّع الخطى. تحبّ ذلك الإحساس بدوار طفيف الناجم عن تغيير وتيرة مشيتها، حين تتمكن من الحفاظ عليه طوال الكيلومتر الأخير.

حين تصل أمام ردهة مسكنها، ينفتح الباب آليا. بعد الساعة السابعة مساء، يكون الحارس في مقصورته. تحيّيه بإشارة من خلال الكاميرا وتبتسم له. لديهما سرّهما الصغير. ذات مساء حين كانت كلارا عائدة ثملة جدّاً من عشاء، توقّفت للتحدّث معه. لم تكن لديها أي رغبة في النوم. دار الحديث بينهما عن أمور شتّى، حادث حصل قبل بضعة أيّام، نوبة الإرهاق المفاجئة في الرابعة صباحا أثناء العمل ليلاً، الشتاء الذي لم يعد فعلاً شتاءً. ثم بترابط أفكار غامض، سألها إن كانت تحسن لعب البوكر. انشرح وجهه فجأة ودعاها تدخل مقصورته وكأنّه يدعوها إلى قصر. أخرج من درجٍ رزمةً من ورق اللعب وبطحة ويسكي. استمرت اللعبة طوال الليل. وعند الفجر، ربح في نهاية المطاف ورافقها إلى شقّتها «بشهامة واحترام».

منذ ذلك اليوم، يلتقيان مرّة في الشهر على أقل تقدير. هو يتقن بمهارة أساليب الخداع، وهي تتفوّق عليه في الإستراتيجيّة. يتهندمان ويتأنّقان للمناسبة، هي في فستان مع كعب عال، وهو في

قميص فاتح اللون مع حذاء أسود. لا يلعبان البوكر فحسب، هي على يقين بذلك، بل يخوضان لعبة مغازلة. هو أصغر منها سنّاً بكثير ووسيم جداً. قد تنزلق الأمور بينهما. لكنّهما في كلّ مرّة يتوقّفان عند الحافة، كلّ منهما على شفير مقلبه. كلاهما صلب. كلاهما اختبر الكثير في الحياة. ربّما لأنهما يعرفان أنّهما سيخسران الكثير. ولأن لا شيء أكثر حلاوة من تلك الجلسة التي تطول وتمتد من غير أن تشبه أي جلسة أخرى، تلك الأمسية من الوعود والرغبة، وذلك الرابط الفريد المميَّز الذي يُنسج عبر البوكر والمجازفة.

هذا المساء، سترتدي فستانها الأحمر، وقرابة منتصف الليل، ستنزل الأدراج.

في الطابق العشرين من برج كيوبس، على حدود الحي الصيني، ضغط سانتياغو فالو على جرس الشقة رقم ٢٠٢٢. بعدما أصرّ مرّة أخيرة عبثاً على الشاب حتّى يحضر إلى عيادته، أكّد له أنه سيذهب إليه بنفسه.

قتمت العين السحريّة للحظة، ثمّ فتح سامي ديور الباب. وقف بضعة ثوانٍ مسمّراً بمواجهة الطبيب النفسي، وكأنّه متردّد في السماح له بالدخول. يرتدي سروالاً رياضيّاً بالياً وقميص تي شيرت أبيض مهلهلاً أيضا، لكنّ حذاءه الرياضيّ الناصع لم يتخطّ يوما على ما يبدو عتبة مدخل شقّته. بعدما راقب أحدهما الآخر لحظة، دعاه أخيراً للدخول. وقبل أن يغلق الباب، مدّ رأسه لإلقاء نظرة من جانبي الممرّ، في حركة توحي بمحاكاة ساخرة لأفلام التجسّس،

على ما قال سانتياغو لنفسه، مدركاً أن الفتى لا يتقصّد أيّ تهكّم من خلال تلك المغالاة.

يقتصر الأثاث على ما هو ضروريّ حصراً، كنبة وطاولة وكرسيان، والجدران عارية تماماً. «رهاب اكتناز طفيف»، حكم سانتياغو بصمت. استخلص من نظرة واحدة إلى الغرفة أنّها تتبع الحاجة ذاتها إلى التجرّد. كان أي شخص ليُراهن على أن المكان غير مأهول.

دعاه سامي ديور للجلوس على كرسيّ وجلس بمواجهته، واضعاً مرفقيه على فخذيه وضامّاً يديه. رسم ظهره قوساً طويلاً بدا قادراً على الانحناء أكثر. «طأطأ رأسه»، فكّر الطبيب النفسيّ.

تفحّصه الشابّ بانتباه مرتاب. فهم سانتياغو أنه يتثبّت من أنّه لا يحمل أي معدّات تسجيل أو تصوير.

ملامحه متعبة، عيناه محاطتان بدائرتين داكنتين، ووجهه أشبه بقناع متصلّب، قناع الذين بات النوم معركة يخوضونها. رغم ملابسه الفضفاضة، أو ربّما بسببها، يمكن تبيُّن هزاله. استند الطبيب النفسيّ إلى ظهر الكرسي، متّخذا وضعيّة الإنصات، وتركه يبادر إلى الكلام.

استمرّ الصمت بضع ثوانٍ، ثمّ تكلّم سامي أخيراً.

«لا أدري كيف أهرب، دكتور».

هزّ سانتياغو رأسه، مدركاً أنه يكاد يطابق الصورة الهزليّة

للطبيب النفسي، لكنّه لم يجد حتّى الآن وسيلة أفضل لتشجيع مريض على المواصلة بدون توجيه تفكيره بنفسه.

«لا يمكنني الاستمرار على هذا النحو. مطارد بدون توقّف. في كلّ مكان. لم أعد أحتمل... هل تعلم أنّهم يصوّرونني منذ أن كان عمري ستّ سنوات؟».مكتبة .. سُر مَن قرأ

اعتبر سانتياغو أن هذا سؤال حقيقيّ لا يمكنه التملّص منه.

«أجل. أقصد أعرف أنك صوّرت مقاطع فيديو كثيرة مع عائلتك لمنصّات مختلفة، ولا سيّما يوتيوب وإنستغرام».

بدا الارتياح على سامي إذ لن يضطرّ إلى سرد القصّة من البداية.

«المشكلة أنّها خرجت عن السيطرة».

توقّف، مقلّباً النظر بحثا عن نقطة ارتكاز، وكأنّه يتساءل كيف يواصل. من الواضح أنّه يصارع ارتباكاً كبيراً.

«والدتي...»

لاحظ سانتياغو ارتعاشة يديه الطفيفة، فتساءل مرّة جديدة إن لم يكن يخضع لعلاج ربّما، ثمّ ابتسم له لتشجيعه على مواصلة الكلام.

«هي التي كانت تدير كلّ شيء. لوقت طويل. لم تعد اليوم تسيطر على أي شيء. اليوم حياتي برمّتها يُعاد بثّها مباشرة، لا أدري أين ولا من يقوم بذلك. ثمّة احتمال كبير بأن تكون تُبثّ على منصّة

مدفوعة. لا أدري أيّ واحدة، ولا كيف يتواصل هؤلاء الأشخاص مع مشتركيهم. مهما فعلت، أينما ذهبت، يصوّرونني. لجأت إلى هنا، إلى منزلي، لأنّه المكان الوحيد الذي لم ينجحوا في وضع فخّ فيه. تحقّقت من كلّ شيء: قطع الأثاث، الجدران، الأغراض القليلة التي اضطررت إلى الاحتفاظ بها. لكنّني لست واثقاً من أنّه لا يتمّ تصويرنا في هذا الوقت بالذات، بينما أكلّمك. ربّما أنت واحد منهم... كلّ الذين خالطّهم مؤخرا كانوا مجهّزين بكاميرات شبكيّة. كلّهم. لا يمكنني أن أكون واثقاً تماماً من نزاهتك، لكن في مطلق الأحوال، في الوضع الذي وصلت إليه، لا خيار لديّ».

رأى سانتياغو أن الوقت حان للخروج عن صمته.

«يمكنك أن تثق بي كليّا سامي. لا أنتمي إلى أي تنظيم، ولا أحمل أيّ معدّات، فضلا عن أنّني ملزم بالسريّة الطبيّة. هل هذا واضح تماماً لك؟».

بدوره، اكتفى سامي بهزّ رأسه إيجاباً.

«كلّمتني على الهاتف عن طبيبة شابّة في سانت آن كنت على اتّصال بها... هل قابلتها في المستشفى؟».

«هذا بسبب المخبز».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أجل...».

«هم أيضاً لديهم كاميرات. من المفترض أنّها كاميرات مراقبة للحماية، لكن ليس هناك اليوم أيّ نظام يقاوم القرصنة. الأمر نفسه

ينطبق على وسائل النقل، البلديّات. يعتقد الناس أن بإمكان اللجنة الوطنية للمعلوماتيّة والحريّات حمايتهم، لكن الواقع أنّه لا يسعها أيّ شيء. تخطّتها الأمور منذ وقت طويل. كلّ الشركات تُسلب منها صورها، هذا إن لم تقدم بنفسها على بيعها... قبل شهرين، نزلت لشراء كرواسان. فور دخولي إلى المحلّ، رأيت الكاميرا تستدير صوبي بعينها التي انفتحت دفعة واحدة، متأهّبة لابتلاعي. لا أدري ماذا حصل. فقدت صوابي. أذكر فقط الصراخ. كنت أقول لنفسي «من الذي يصرخ هكذا؟» كان الأمر لا يُطاق. علمت لاحقا أنّني أنا من كان يصرخ. حضر رجال الإطفاء ونقلوني إلى المستشفى. شرحت كلّ شيء للطبيبة المتدرّبة. قالت لي إن عليّ البقاء قليلا ريثما أرتاح. لكنّني رفضت. إنّهم قادرون على تخديري وبيع الصور».

«كنتَ تعتقد أنّها متواطئة؟».

«لا، هي لا، لا أعتقد ذلك. إنها فقط من الذين لا يريدون رؤية الحقيقة. لا يريدون أن يعرفوا ما الفائدة من كلّ ذلك. لأنّه بين الموظّفين، يمكن لأيّ واحد أن يكون متواطئاً. عدت إذاً إلى منزلي. ولم أخرج منذ ذلك الحين».

«هل وصفَت لك أدوية؟».

«مضادّات للقلق، لكنّني لم أتناولها. أخشى أن تخدّر يقظتي، أليس كذلك؟».

«سوف تريني الوصفة ونناقش المسألة».

أدرك سانتياغو أنّ المبادرة له الآن. أن يُظهر قدرته على الإصغاء إلى ما يقوله مريضه، من غير أن يشجّعه على المضيّ في هذيانه.

«سامي، أودّ أن نعود إلى مسألتين أو ثلاث مسائل إن سمحت، لنفهم ما يحصل لك اليوم. تمّ تصويرك طوال طفولتك لقناة يوتيوب التي كانت والدتك تهتمّ بها. ثمّ أنشأت قناتك الخاصّة التي كانت تسير بصورة جيّدة جدّاً. أعتقد أنّك كنت تختبر ألعاب فيديو وتعطي نصائح لمن يريد أن يصبح مؤثّرا، صحّ؟».

«أجل، أجل، من ضمن أمور أخرى».

«وقبل بضع سنوات أوقفت كلّ شيء بين ليلة وضحاها».

«أجل».

«هل تريد أن تروي لي؟».

«كنت في المدرسة التكميليّة أو الثانويّة، كان الكلّ يريد أن يصبح يوتيوبر. معظم التلاميذ كانوا يحلمون بأن يعيشوا حياتي. أن يلتقطوا صورة سيلفي معي، أن أدعوهم إلى منزلي... بالطبع، كان هناك على الدوام آخرون يسخرون منّي. دعابات صغيرة لاذعة، وكأنّهم لا يقولون شيئاً. «إذا سامي، هل ما زال لديك ورق حمّام؟» أو «من يسيطر على حياتك سامي، إنستغرام أو أمّك؟»، أو كذلك «سامي سيدفع، فهو محصّن بالمال». أدركت سريعاً أنّني لن أكون يوماً مثلهم. كان ذلك الثمن المرتّب. لكن على شبكات التواصل، كانت كراهية خالصة. تلقّيت حتّى تهديدات بالقتل.

حسناً، صمدت. لم يكن هذا ما جعلني أتوقّف. هذا ما يحبّ الناس أن يرووه. الناس بودّهم أن يصدّقوا أنّني أصبت بانهيار بسبب الحاقدين، أو لأنّ ميشو لطالما كان لديه متابعين أكثر منّي. هذا غير صحيح».

«ما الذي جرى؟».

«العام الماضي، التقيت فتاة كانت تتناول قهوتها في الصباح في الحانة ذاتها حيث كنت جالساً. كانت جميلة جدّاً، ولاحظت أنها تنظر إليّ. بدأنا نتحدّث، على الكونتوار أولاً، ثمّ تواعدنا. كانت تلك أوّل مرّة أشعر بأنّني بأمان مع أحد. كانت تعرف من أنا، لكن لم يبدُ أنّها تعلّق أهميّة كبرى على الأمر. كنت أتلقّى على إنستغرام رسائل خاصّة من العديد من المعجبين: صور، إعلانات غرام، عروض جنسيّة. لم أغتنم أيّاً منها. كنت أريد أن أعيش لقاء حقيقيّاً. ذات مساء، بعد تناول بضع كؤوس من البيرة، عرَضَتْ عليّ الذهاب إلى شقّتها».

تكسّر صوته، تنحنح ثمّ تابع.

«كانت تسكن إستديو فسيحاً. حين دخلْتُ، أول ما رأيته كان الأكواب، لأنّها كانت تمتلك المجموعة كاملة، معروضة على رفّ... أكواب الاستراحة السعيدة. مع صورتي وصورة كيمي بكلّ الأعمار تقريباً. وصورة والدتي. كانت تملك كذلك الأجندات والملصقات وأقلام الحبر ومحفظات الأقلام، مجموعة كاملة من الأغراض معروضة كأنّها في متحف».

توقّف، وقد غلبته مشاعره. انتظر سانتياغو لحظة قبل أن يحثه على مواصلة الكلام.

«ما كان ردّ فعلك؟».

«أخذت أبكي. كنت عاجزاً عن التفوّه بكلمة واحدة. كانت تعتقد حتماً انّ هذه ستكون مفاجأة سارّة، أنّني سأفرح باكتشاف كلّ ذلك. دعني أقول لك، هذا المشهد قتلني. خرجْتُ من عندها ولم أعد بعدها إلى ذلك المقهى، ولم أقابلها من جديد».

استقام على كرسيه.

«على مدى أسبوع أو أسبوعين، كنت منهاراً إلى درجة أنّني لزمت السرير. لا منشورات على إنستغرام، لا فيديو على يوتيوب ولا على تيك توك. هنا بدأت المسألة. أنا واثق من ذلك. ظنّوا أنّني سأتخلّى عن كلّ شيء. كنت بحاجة إلى استراحة، هذا كلّ ما في الأمر، لكنّهم أصيبوا بالذعر. أجروا اتّصالات مع بعض الأشخاص وأخذوا يتعقّبونني. بعد فترة، تنبّهت إلى أن جيراني وحارستي وبعض أصدقائي حتّى جرى تجنيدهم».

راح سانتياغو يراقب الفتى الذي يتراءى قلقه بجلاء متزايد.

«عندها ألغيتَ كلّ حساباتك؟».

«نعم. لكن لا يمكن التوقف هكذا، بكلّ بساطة. حين يكون الناس بحاجة إلى رؤيتك، إلى معرفة أين أنت، وماذا تفعل، حين يحتاجون إلى نصائحك، إلى فكاهتك، حين يعوّل الآلاف عليك،

على حياتك، على مزاجك، ويكونون على استعداد لدفع ثمن لذلك، لا يحقّ لك أن تختفي».

توقّف سامي ليستعيد أنفاسه مستخدماً تمريناً يهدف على ما يبدو إلى تهدئة توتّره. أغمض عينيه. ملأ رئتيه عّدة مرّات، ثمّ أفرغهما ببطء. بقي سانتياغو صامتا. بعد أخذ أربعة أنفاس عميقة، أكمل الشابّ وكأنّ شيئاً لم يكن.

«ما زال هناك أموال طائلة يمكن جنيها. وإذا لم أغتنم الفرصة بنفسي، فسيغتنمها آخرون عوضاً عنّي».

«من؟».

«لا أدري، قلت لك من قبل. كلّ ما أعرفه، أنّهم منظمون تنظيماً جيّداً وأنّهم في كلّ مكان. مستحيل أن أختبئ. فعّلوا كلّ شبكاتهم، أجهزة الاستشعار الشبكيّة واللمسيّة والحراريّة، الطائرات المسيّرة وكلّ ترسانة التنصّت».

«وشقيقتك، أين هي الآن؟».

«بحسب آخر ما وردني، هي في باريس، لكنّني لم أعد أراها».

«هل تعتقد أنها هي أيضا جزء من هذا... من هذه... المنظمة؟».

«لا، أنا واثق من ذلك».

«كيف تفسّر هذا البعد؟».

«لا تحبّني».

«وأنت، هل تحبّها؟».

فوجئ سامي بالسؤال. ملأت الدموع عينيه فجأة، فأخفى وجهه خلف يديه مثل طفل.

خصّصَت كلارا قسماً من نهارها للبحث عن معلومات حول تبعات قضية ديور ومختلف أطرافها. تمكّنت خلال بضع ساعات وبفضل تعاون زملائها من معرفة أمور كثيرة. أجرت اتّصالات، صوّرت صفحات، جمعت وثائق، باختصار ما يكفي لتشكيل ملفّ صغير سيثير اهتمام كيمي بلا شكّ.

كل مساء، ما إن تدخل شقّتها، تبدأ بخلع ملابسها وكأنّها تتخلّص من جلد ميت. سواء قضت النهار في مكتبها أو في الخارج، ترمي الملابس في سلّة الغسيل.

تتساءل أحياناً ما هي نسبة الذين يبدّلون ملابسهم مثلها عند العودة إلى منازلهم. الذين يرتدون بنطالاً رياضيّاً قديماً، سروالاً لاصقاً، ينتعلون خفّين، ينسلّون في كنزة فضفاضة أو سترة رياضيّة مهلهلة. كم من النساء يخترن عوضاً عن ذلك مبذلاً أو قميص نوم قصيراً من الدنتيل أو روباً داخليّاً من الحرير. كم هم الذين ينزعون عدساتهم اللاصقة ليضعوا نظّاراتهم. كم من الأشخاص يفصلون هكذا بين كيانهم في الخارج وكيانهم في الداخل.

الملابس التي ترتديها في منزلها تتوقّف على مزاجها. تحبّ الفساتين الطويلة والسراويل القطنيّة.

اتّصل بها سيدريك هذا الصباح ليذكّرها بعرضه. هو ينوّع الزوايا لمقاربتها. يقول أموراً على غرار «عليك الارتقاء درجة» أو «لديّ قضايا ستثير حماستك» أو «فكّري في تطوّرك المهنيّ».

قال لها أيضاً «هذا منصب مفصّل لك».

أو بادرها بأسلوب مباشر «حان الوقت لتخرجي من مكتبك».

هو وحده ربّما يقدّر مدى شكوكها. فالمسألة لا تقتصر على قسم بعينه أو مهمّة، بل الخيار أهمّ من ذلك بكثير.

هو وحده ربّما يعرف أنها توقّفت مجدّداً عن النموّ.

يبدو لها منذ بعض الوقت أنها تعيش في المقلب الآخر من العالم، في طيّة مستحيلة، على هامش تلك الشبكات «الاجتماعيّة» كما يزعمون، المتخمة بمشاعر الحبّ الكاذبة والكراهية الصادقة، على هامش شبكة الأوهام تلك المشبعة بصور السلفي والجمل المقتضبة الفجّة، على هامش كلّ ما يسري بسرعة الصوت.

هي تلك المرأة التي تجرجر نفسها محاولة اللحاق بركب مدينة لم تعد تحبّها، حيث الكلّ يسرع عائداً إلى منزله لتسجيل طلبيّات والاستهلاك على الإنترنت، أو الانصياع لمسار الخوارزميّات الآمر الناهي. هي تلك المرأة المحمومة التي يحرمها تيقّظها المسرف من النوم، تلك المرأة المسكونة بكآبة لا تقرّ بها، امرأة لم تعد قادرة على مجاراة التوجّه العام.

أتراها لأنّها لم ترَ والديها يشيخان، تشعر بنفسها اليوم بعيدة كلّ

البعد عن كلّ شيء، خارج عصرها تماماً رغم أنّها لم تتجاوز الخامسة والأربعين؟

إن فكّرت في الأمر، تبيّن لها أنها غير متمسّكة كثيراً بتلك الحياة المنحنية فوق شاشة، تحاور ذكاء اصطناعيّاً، حياة لا يُطلب منها فيها أن ترفع رأسها إلّا لتطيع متطلّبات التعرّف على الوجه. لا تريد الجلوس كالآخرين غارقة في أريكتها، وهاتفها ملتصق بإصبعها، بمعصمها، براحتها، بحثا عن إثارة، مترصّدة على شاشتها المأساة والاعتداء وبطل النهار، قبل أن يطويهم النسيان في الغد.

العالم يتخطّاها ولا سيطرة لها على أي شيء. العالم مجنون لكن لا حيلة لها.

ربّما هذا الإحساس بالعجز هو ما لم يعد يُحتمل. هذا الإحساس بأنّها لم تختبر عضلاتها، شجاعتها، صمودها، بأنّها لم تعد تذهب إلى الجبهة. هذا الإحساس بأنّها تركت نفسها تنزلق على طول منحدر وتشعر اليوم بأنها متعبة إلى حدّ لا يمكنها تسلّقه من جديد.

ربّما سيدريك على حقّ. ربّما حان الوقت للانتقال. لإيجاد طريقة أخرى للعب دورها.

«هل تراودك أفكار انتحار؟» سألها طبيب العمل قبل بضعة أيّام خلال زيارتها السنويّة.

«لا، ليس بشكل واضح»، أجابت.

«وبشكل غير واضح؟».

غير واضح... هي تتفادى الاقتراب من النوافذ المفتوحة.

لكن لم يكن هذا جوابها له.

كلّ مساء، حين تعود إلى منزلها، تشعر بأنها تعود إلى ملاذها. تعلم أن هذا ليس أمراً جيّداً. تعلم أن الداخل، الأريكة والستائر المغلقة ورخاوة شقّتها الدافئة، هذا الداخل امتياز وفخّ في آن.

هذا المساء، فور عودتها، اختارت على ساعتها رقم كيمي ديور.

قبلت الفتاة الاتّصال فور الرنّة الأولى.

حين أجابت، تبدّد أي تردّد.

في اليوم التالي، عبرت كلارا نهر السين. النور المخيّم باهر إلى حدّ غريب لهذا الوقت من العصر، نور أبيض ناصع وكأنّ كشّافات نصبت لإضاءة النهْر، هذا ما خطر لها وهي تتفرّس في السماء.

ماشية بخطى سريعة واضعة يدها فوق عينيها لحمايتهما، تذكّرت من دون أيّ سبب واضح عمّها ديديه. تقول الرواية العائليّة التي لا تخلو من الفولكلور إنّه توفّي يوم قبّل رونو شرطيّاً[1]. تفكّر في ابنة عمّها إلفيرا التي رحلت للعيش في الكاريبي، وابن عمّها ماريو الذي أصبح خبيراً اقتصاديّاً. تفكّر في أصدقاء انقطعت عنهم لعجزها عن تخصيص وقت لهم.

---

(١) Renaud رونو مؤلّف ومغنّ شعبيّ فرنسّي، من أشهر أغنياته «قبلت شرطيّا» عن التظاهرات التي جرت في ١٠ و١١ يناير ٢٠١٥ احتجاجاً على اعتداءات جهاديّة وقعت قبل أيّام واستهدف أعنفها صحيفة شارلي إيبدو الهزليّة في باريس.

هي على موعد مع كيمي ديور.

تجلسان الواحدة قبالة الأخرى في مقهى على جادّة راسباي اختارته كلارا من أجل صالته الخلفيّة الداكنة التي قلّما يرتادها زبائن.

إنّها المرّة الثانية التي تواجه فيها كلارا رزانة الفتاة الواجمة، نظرتها المتهرّبة المتقلّبة، غضبها المكتوم الجاهز للانفجار.

بدأت تشرح لها أنّه لا يحقّ لها إطلاعها على هذه العناصر لأنّ كيمي كانت قاصراً عند حصول الوقائع. من المفترض في الظروف العاديّة أن ترفع كيمي التماساً إلى لجنة الاطّلاع على الوثائق الإداريّة، وفق آليّة على قدر من التعقيد يمكن أن تستغرق بعض الوقت. الواقع أنّه لا يحقّ لكلارا أيضا أن تستخدم موارد الشرطة القضائية للعثور على بيانات شخص لأغراض خاصة.

قتمت عينا كيمي في ثانية، انكمشت شفتاها وتسارع تنفّسها فيما أخذت تهزّ ساقيها بعصبيّة تحت الطاولة.

قالت كلارا لنفسها «لا قدرة لها على إخفاء مشاعرها»، واضعةً حدّاً فوراً لهذه المقدّمة.

«لكن حسناً... أحيانا في بعض الحالات، نغضّ الطرف».

كانت الفتاة تترصّد كلامها.

«عثرْتُ على محضري جلستي الاستماع اللتين أجرتهما معك فرقة حماية القصّر، وكذلك محاضر جلسات الاستماع إلى إليز فافار، ثمّة عدّة محاضر، سوف ترين. وجدت أثرها أيضاً. عند خروجها من

السجن، استعادت حضانة ابنها الذي كان في عهدة والدتها أثناء احتجازها الاحترازي. انتقلت للعيش في مورفان حيث التقت زوجها الذي يعمل مربّياً متخصّصا. كان يعمل ولا يزال في المؤسّسة الخاصة بالأطفال المعوّقين التي كانت تستقبل إليان. تزوّجا واتخذت اسمه. لديهما فتاة صغيرة عمرها اليوم خمس سنوات. وجدَتْ إليز عملاً بدوام جزئيّ في عيادة طبيّة».

ارتسمت ابتسامة عابرة على وجه كيمي، بدت مرتاحة لتلقي هذه الأنباء.

«وضعْتُ لكِ أيضا بعض محاضر خلاصة أو ضمّ التحقيقات حرّرْتُها في تلك الفترة، تتضمن الخطوط العريضة للتحقيق. ثمّ لديّ أمر آخر لكِ».

انحنت كيمي نحوها باهتمام متزايد. انتظرت كلارا لحظة قبل أن تكمل.

«وجدت أثر سامي. لم يكن الأمر بسيطاً لأنّه حريص فعلاً على الاختفاء. لم يعد يرى أيّا كان منذ أشهر، باستثناء طبيب نفسيّ قصده مرّتين في منزله. لست واثقة من أنّه بحال جيّدة. بل أعتقد حتّى أنه بحاجة إلى مساعدة».

انتشلت كيمي الأوراق ودسّتها في حقيبتها. جال نظرها لبضع ثوان تائهاً في الصالة قبل أن تركّز عينيها مجدّدا على كلارا.

شكرتها هامسة بصوت بالكاد يُسمع. ثمّ نهضت وخرجت.

لم يكن الغضب كامناً هنا على الدوام. بدأ يوم أرادت كيمي أن تعرف. يوم بدأت تنقّب وتفتّش. يوم عثرت على مقالات الصحف الكبرى في تلك الفترة عن محاكمة إليز فافار. يوم اكتشفت في محاضر الجلسات التي كتبتها صحافيّة شهيرة تغطّي الجرائم والمسائل القضائية، أنّ والدتها لم تنظر مرّة إلى إليز طوال المحاكمة. خلال كلّ تلك الأيّام، وبحسب ما روى عدّة شهود، بحثت إليز عن عيني صديقتها القديمة من دون أن تلتقيهما مرّة. حتّى عندما طلبت منها بصوت متهدّج أن تغفر لها.

قرأت هذا التفصيل قبل بضعة أشهر، وعندها استيقظ الغضب. قبل ذلك، كان صامتاً. أو كان يتّخذ أشكالاً مختلفة، سريّة وخفيّة.

في ذلك المساء، أنهت كيمي قراءة الملفّ الذي سلمتها إيّاه كلارا روسّيل.

اكتشفت ما قالته وهي طفلة. الطريقة التي روت بها مرّتين الأيّام الثمانية التي قضتها عند إليز. انجلى همّ عن قلبها. كلّ شيء مدوّن في المحاضر. اللحظات التي تردّدت فيها، أو صمتت فيها. محبّتها الجليّة للمرأة الشابّة. تصف فيها مرحلة من الوقت بلا صراعات ولا خوف. ثمّ تروي تلك الأمسية الأخيرة التي تحدّثت عنها إليز في جلسة الاستماع الأولى إليها، تلك الأمسية حين أدركت أن ثمّة أمراً مريباً.

غمرها التأثر عند رؤية صورة الجداريّة التي رسمتها مع إليان محفوظة داخل ظرف بلاستيكيّ. انحسر الغضب للحظة.

في محضر الخلاصة الذي ضمّته كلارا إلى الوثائق، ثمّة إشارة إلى أنّه غداة عودة كيمي، طلب والداها من رئيس «طفولة في خطر» أن يعيد لهما حالاً الخمسمئة ألف يورو التي أودعت في حساب الجمعيّة. هما لم ينشرا الفيديو المطلوب، وبالتالي لا شيء يلزمهما بالإبقاء على هبتهما.

أغلقت كيمي الملف.

عاد الغضب وجرف كل ما هنالك.

يرنّ المنبّه كلّ صباح فتسرع ميلاني إلى الحمّام لتنعش وجهها. تمسح بشرتها بقطعة قطن مبلّلة بماء الزهر، تسرّح شعرها، تضع مسحوقا لإخفاء الدوائر السوداء حول عينيها وبودرة على أعلى خدّيها، ثم تعود وتتمدّد في فراشها. عندها تشغّل من السرير البثّ المباشر لحياتها اليوميّة.

على منصّة «شار ذي بيست»، يبدأ النهار. يرنّ المنبّه من جديد، فتتمطّط في شعاع من النور. تجلس في سريرها وتصبّح مشتركيها.

بفضل الأداة الصغيرة ذاتها على شكل علبة فائقة الصغر يمكن إمساكها في راحة اليد، تتحكّم بكامل الجهاز، فتشغّل أو توقف الميكروفونات عن بعد ويمكنها الانتقال بنفسها من محور لآخر. نُصبت حوالى عشرين كاميرا بين المنزل والمساحات الخارجيّة، كلّ منها قادرة على استشعار الحركة ومتابعتها في دائرة أربعة أو خمسة أمتار. التطوّر الفنّيّ الذي أنجز أمر لا يصدّق. الأداة وحدها توازي

«لوحة المزج» التي كان يستخدمها فيما مضى مخرجو التلفزيون في صالة التحكّم. لم تعد بحاجة حتّى إلى تثبيت ميكروفون عليها. فأجهزة التقاط الصوت الموزّعة في كل مكان في المنزل قويّة بما يسمح لها بالتقاط همس على مسافة أمتار وبثّه. كما أن خاصيّة «مدوّنة الفيديو» الحديثة تسمح لها بالتوجّه إلى جمهورها لحظة تشاء. يكفي أن تنظر مباشرة إلى إحدى الكاميرات حتى تُعطى الأولويّة في البثّ لهذه اللقطات على كلّ الصور الأخرى. عندها يمكن قراءة كلامها على شريط بواسطة نظام إملاء صوتيّ يعيد كتابته مباشرة حتّى يتمكّن مشتركوها من الاستفادة ممّا تقول أينما كانوا، حتّى حين يتعذّر عليهم تشغيل الصوت.

تجد ذلك رائعاً.

تعيش ميلاني اليوم فيما يشبه برنامج «لوفت» مخصّصاً لها وحدها، تمّت تصفية كل المنافسين الآخرين منه. هذا ما خطر لها ذات مساء وهي تخلد إلى النوم. «لوفت» تديره بمهارة، هي منتجته ومخرجته وممثلته الرئيسية في آن. يتركّز خطّها التحريريّ بشكل أساسيّ على الحياة العمليّة والمنزليّة، من غير أن تهمل النواحي النفسيّة. فمزاجها وخواطرها وتأمّلاتها تلقى استحساناً كبيراً بين مشتركيها، وتقوم بكثير من التوثيق لإضفاء ثراء إلى كلامها.

مرّة في الشهر، مساء الخميس في الساعة التاسعة إلاّ ربع، يكون موعد «دريم لايف». تختار من بين مئات المرشّحين بضعة مشتركين في «ميل إينسايد» لإجراء حوار مباشر معها. تستمع باهتمام، تجيب

بتعاطف، موزّعة النصائح والاعترافات بسخاء. أحياناً ينضمّ برونو إلى اللقاء. تتناول مداخلاته مسائل تخصّ الرجال أكثر، مثل اختيار الروبوتات المنزليّة، والأمن وحماية المنزل، وصيانة حوض السباحة وغيرها، ويكون ذلك عموماً بطلب من الأزواج. في الآونة الأخيرة، بات برونو يتلكّأ عن المشاركة، لكنّ ميلاني تصرّ، فجماعتها مولعة به، ونسبة المتابعة ترتفع حين يكون هنا. الناس بحاجة لأن يحلموا. لأن يروا زوجين رائعين مثلهما، زوجين تربطهما علاقة انصهار واستقرار. هذا يطمئنهم. يبعث فيهم شعوراً طيّباً. إنّها تبعث شعوراً طيّبا في الناس، هذا كلّ ما في الأمر. أصبحت جنيّة، جنيّة عصريّة، أجل. ليست بحاجة إلى عصا سحريّة، بل فقط بضع كاميرات وفيض من الحبّ توزّعه.

تبثّ ميلاني منذ سنتين في فترة الأعياد مقتطفات من أجمل لحظات حياتها. مهرجان حقيقيّ يحطّم كلّ الأرقام القياسيّة للمتابعة.

بعد التلذّذ بفطورها وفق روتين برعاية علامة مربّيات مخفّفة السكّر تحرص على عرض ملصقاتها بوضوح على الجرّات، تأخذ ميلاني دوشاً. خلال هذا الوقت، ينقطع البث ويحل «ألبوم ذكريات» محلّ النقل المباشر. يهتمّ مساعدها الأوّل بهذه المونتاجات التي يتمّ إعدادها انطلاقا من مشاهد صُوّرت حين كان سامي وكيمي طفلين. على وقع موسيقى مفعمة بالحنين وخالية من حقوق التأليف، يمزج ويلفريد مقاطع الأرشيف بكثير من الرقّة، ما بين وجبات الطعام في الهواء الطلق والنزهات في مدن الملاهي والعطل واللقاءات

مع المعجبين. معظم مشتركي «ميل إينسايد» عرفوا «الاستراحة السعيدة» ويعبدون استرجاع تلك اللحظات، تبعث فيهم تأثرا بالغاً.

ما إن ترتدي ملابسها، حتى تعاود البثّ المشار. فتكشف بنبرة من يبوح بسرّ اسم العلامات التجارية التي ترتدي ملابسها، وهي بالمناسبة تبدّل ثيابها كلّ يوم ولا ترتدي أبداً الثوب نفسه مرّتين. ثمّ تتظاهر بأنّها تضع مكياج لأوّل مرّة في النهار، متشاركة مع جماعة متابعيها المستحضرات التي تستخدمها ومشيدة بحماسة بمزاياها. عليها بعد ذلك أن تحتسي أول فنجان إسبريسو لنهارها من مجموعة «فريندلي». ينصّ عقدها على قهوتين في اليوم. فبعد عشرين عاماً بقيت خلالها العلامة في فئة المنتجات الفاخرة، عارضة كبسولاتها مثل أحجار كريمة في علب مجوهرات، عادت وتموقعت في فئة عائليّة وأكثر مراعاة للطبيعة، وهي الآن تعوّل عليها للوصول إلى جمهور أقرب إلى «علاقات الجيرة». المشكلة أن طبيبها نصحها بعدم تناول القهوة، بسبب أعصابها. وبالتالي، تحجم بتكتّم شديد عن إكمال فنجانها عند الإمكان، أو تفرغه خلسة في المجلى.

هذا الصباح، بينما تنتهي ميلاني من ارتداء ملابسها، لا تشعر بطاقتها الاعتياديّة. خطر لها أنّه تعب طفيف أو «هبوط في الضغط»، فأرجأت لحظة استئناف البثّ المباشر. يتهيّأ لها منذ بعض الوقت أنّها في قطار الجبال الروسيّة، يعلو بها وينحدر. فتشعر بنفسها تارة تفيض حيويةً وحركة، وتحسّ تارة أخرى بالأعياء وبإحباط غير اعتياديّ. آخر مرّة استشارته عبر الفيديو، وجدها الطبيب روك

متعبة، لكنّ البيانات التي سجّلتها ساعتها كانت طبيعيّة. تحدّث عن تعب نفسيٍّ.

لحسن الحظّ، يستبق ويلفريد الأمور ويعدّ على الدوام هامش أمان من بين تلال الأرشيف، ما يعني أنّ أمامها ما لا يقلّ عن عشرين دقيقة.

تسرح في أفكارها، ساهمة في الفراغ، ثمّ تقرّر إشعال الراديو للاستماع إلى بعض الأخبار التي يمكنها ربّما التعليق عليها لاحقاً خلال النهار. «القلّة السعداء» كما باتت تسمّيهم، يحبّون الاطّلاع على رأيها في المسائل الكبرى التي تشغل العالم.

نشرة أخبار الساعة التاسعة بدأت للتوّ، تستمع إلى أبرز العناوين، ثمّ تشرد بأفكارها وتتيه. تفكّر في برنامج يومها، في التعديلات التي يمكنها إدخالها على روتينها الصباحي، في العقد الذي باتت على وشك توقيعه مع علامة كبرى لمستحضرات التجميل، في زاوية الكاميرا رقم ثمانية التي تظهرها جانبياً بشكل أفضل من الكاميرا رقم تسعة... وفجأة حطّم صوت المذيع فجأة الفقّاعة التي كانت سارحة فيها.

«علمنا للتوّ أنّ كيمي ديور، نجمة يوتيوب السابقة، تقاضي والديها بتهمة الحقّ في الصورة وانتهاك الحياة الخاصة وقرارات تربوية سيّئة. كيمي ديور هي اليوم خامس طفل مؤثّر يرفع شكوى ضدّ أهله عند بلوغه السنّ القانونيّة. سنتناول هذا الخبر بمزيد من التفاصيل في نشرة الساعة الواحدة بعد الظهر، لكنّنا تمكنّا منذ

الآن من الحصول على توضيحات من الأستاذة بويسون، العضو في نقابة محامي باريس والتي تساعد عدّة أطفال مؤثّرين سابقين ويوتيوبرز سابقين، ولا سيما دوروتي الصغيرة البالغة ٢٢ عاماً والتي تقدَّر ثروتها بأربعة ملايين يورو، وهي تتّهم والدها بعدم احترام القانون».

أطفأت ميلاني الراديو من غير أن تفكّر.

وسط الصمت المخيّم، جهدت بضع ثوانٍ لاستعادة أنفاسها.

ليست واثقة من أنّها سمعت جيّداً. لا بدّ أنّها أساءت الفهم. نقرت بضع كلمات مفتاح على هاتفها، فتملّكها الهول حين تبيّن لها أنّ البيان الصحافي نقل عشرات المرّات.

كيمي؟ هذا مستحيل.

لا يسعها استئناف البثّ المباشر. هي عاجزة عن ذلك.

سبق أن عاشت الضوضاء الإعلاميّة. تعرف ما ينتظرها.

ما زال ويلفريد يبث المونتاج. يجب أن تحذّره حتّى ينوب عن البث ويواصل بمقاطع أخرى من الأرشيف.

لكنّها لا تقوى على ذلك راهناً.

يجب أن تهدأ.

ابنتها... طفلتها الصغيرة... صغيرتها كيمي تقاضيهما...

أحسّت بعزلة مروعة.

برونو غادر عند الفجر لزيارة معرض للجاكوزي حتّى يختار نموذجاً من بين النماذج التي عرضت العلامة تقديمها لحديقتهما. هل كان على علم بالأمر وأخفاه عليها؟

أم كانت تلك الرسالة بالبريد المسجّل التي لم تذهب لتسلّمها؟

لا، هذا لا يُعقل. لا يمكنها أن تصدّق.

صغيرتها كيمي ترفع دعوى عليهما...

تلقّت رسالة نصيّة من ويلفريد انتشلتها من خدرها: إنّه يتولّى البثّ.

ستبقى جالسة وتنتظر زوجها. في هذا الصمت.

أحباؤها سوف يقلقون. ستتلقى أكواماً من الرسائل، لأنّهم يصابون بالهلع لأبسط الأسباب.

فليتدبّر أحبّاؤها أمرهم لمرّة، اللعنة، بوسعهم الانتظار. يجدر بهم ألّا يبالغوا أيضاً. فهي تعطي الكثير. أحبّاؤها أحياناً غلاظ للغاية.

ستتناول قهوة. تبّاً. لا تأبه. تشعر بتعب شديد.

هيّا، ستختبر كلّ الكبسولات، أجل. الصفراء والخضراء والورديّة، وخصوصاً الذهبيّة. الكثير من الكبسولات الذهبيّة.

هي جنيّة في نهاية المطاف، ليست خائفة. الجنيّات لا يصيبهنّ شيء. الجنيّات لا يخشين شيئا. الجنيّات يعرفن الصحّ من الخطأ. الجنيّات فوق تقلّبات العالم والهجمات الخسيسة التي يولّدها.

قدامى الشرطة القضائيّة يدعونها «الأكاديميّة»، مستمرّين في التقليد المتّبع. لكن منذ العودة المدوّية والملفتة لبرامج مقدّم خبير في القواعد من السبعينات والثمانينات إلى منصّة «فينتاج»، بات الأصغر سنّاً في الشرطة يطلقون على كلارا لقب «الأستاذ كابيلو»[1]، رغم أنّ المذكور توفّى وقضي أمره منذ زمن طويل. وتدور تحدّيات وتُجمع مراهنات سواء في الفرقة الجنائية أو في الفرق الأخرى... المطلوب في غالب الأحيان دسّ كلمة في غير محلّها أو عبارة تقريبيّة عادة ما تُسحب بالقرعة، داخل محضر. فرقتها الجديدة تهوى كثيراً هذا النوع من الألعاب. قبل أيّام، اضطرّت كلارا إلى إدراج كلمة «مسحوق غباريّ»، كلمة سهلة نسبيّاً، في سياق خلاصة رفعت إلى النيابة العامة. في المرّة السابقة، وقع الخيار على كلمة «سحقاً»، أكثر خطورة. هذه المرّة، اضطرّت إلى كتابة «قذَعَه»، كلمة متقادمة بعض الشيء لكنّها تفي بالغرض، داخل محضر خلاصة. هي تربح في كلّ مرّة.

تبعت طوال النهار تدريباً عبر الإنترنت حول السلوك غير اللفظي السابق لاعتداء.

عند العودة إلى منزلها، أشعلت كلارا الراديو. لم تعتنق يوماً الشبكات الإخبارية على مدار الساعة، وباستثناء النشرة الإخباريّة وبعض الحلقات الحواريّة، توارت برامج القنوات كلّها تقريباً، سواء الأرضيّة أو الرقميّة.

---

(١) Maître Capello الأستاذ كابيلو واسمه الحقيقي جاك كابيلوفيسي خبير قواعد ومقدّم مسابقات تلفزيونيّة فرنسي شهير توفي عام ٢٠١١.

بينما تفتح برّادها لترى ما يمكنها تناوله، لفت انتباهها اسم كيمي ديور. اقتربت من مكبّرات الصوت لتستمع.

كان صوت امرأة يعرض بنبرة واثقة وخبيرة، بعض التوضيحات على ما يبدو.

«الدعاوى المرفوعة ضد الأهل لا تقتصر على الأطفال النجوم السابقين فحسب. فحركة فك الارتباط والحد من الآثار تنمو وتتّسع باطّراد بين الشباب. عند بلوغهم السنّ القانونيّة، يدرك العديدون منهم أنهم يحملون منذ الآن عبء ماضٍ رقميّ فادح يحرمهم من أي أمل في الحفاظ على حياة خاصّة. باسم الحق في الصورة والعذريّة الرقميّة، يلجؤون إلى القضاء لمطالبة أهلهم بسحب الصور ومقاطع الفيديو التي يظهرون فيها، صور وفيديوهات نُشرت ووُسمت طوال طفولتهم على شبكات التواصل الاجتماعي. بعضهم يذهب حتّى إلى حدّ المطالبة بتعويضات عن ضرر».

عاودت الصحافية الكلام بصوتها الأليف.

«لنعد إلى القضيّة التي نجتمع حولها اليوم، قضيّة كيمي ديور. هي تقاضي والديها بتهمة الإساءة إلى الحق في الصورة وقرارات تربويّة سيّئة. أتوجّه إليكِ، أستاذة كورين بويسون. ماذا يعني هذا بالضبط؟».

«قانونيّا، حقّ الصورة للطفل حتّى بلوغه الثامنة عشرة من العمر يعود للأوصياء القانونيين عليه. هم حماة هذا الحقّ وليسوا

أصحابه. بصورة عامة، يجب على الأهل أن يمارسوا سلطتهم بما هو لمصلحة الطفل. بعض الأهل لا يدركون أن حق طفلهم في صورته يولد معه. يتصرّفون وكأنّ هذا الحقّ ملك لهم. الأهل الذين تجري مقاضاتهم اليوم لم يكتفوا بعدم حماية هذا الحقّ، بل يمكن الاعتبار أنّ بعضهم استغلّه».

«أودّ التذكير بأنّه جرى التصويت عام ٢٠٢٠ على قانون يهدف إلى وضع ضوابط للاستغلال التجاري لصورة الأطفال المؤثّرين على منصّات الإنترنت. فهل يعني ذلك أن هذا القانون لم يكن مجدياً؟».

«لا، لا يمكنني قول ذلك. فرنسا كانت أول دولة سنّت قانوناً بهذا الصدد، إنّه رمز مهمّ. سمح بالقول للأهل: احذروا، لا يمكنكم القيام بما تشاؤون. بعضهم تراجع. لكن كما يحصل في غالب الأحيان، لم نمنح أنفسنا وسائل لفرض تطبيق القانون».

«تعنين أنّه لم يكن هناك رقابة كافية؟».

تمهّلت المحامية بعض الوقت قبل أن تجيب.

«أوّلاً، القانون يحدّ فترة التصوير اليوميّة بحسب عمر الأطفال. استند في هذه النقطة إلى النظام المطبّق على الأطفال العاملين في مجال الاستعراض. على سبيل المثال، يجيز القانون لطفل عمره ستّ سنوات التصوير ثلاث ساعات في اليوم، ولطفل عمره اثني عشر عاما التصوير أربع ساعات في اليوم. حين يتعلّق الأمر بجلسة التقاط صور أو بتصوير سينمائي، وهي أعمال محدودة في الزمن بحكم

طبيعتها، يكون ذلك منطقيّاً. لكن على مدى طفولة كاملة، حين يقوم الأهل بتصوير الأطفال كلّ يوم، فالوضع مختلف. ثمّ أنك تحدّثت عن الرقابة... أي عائلة تلقّت زيارة مفتّش عمل خلال السنوات الماضية؟».

«فيما يتعلّق بالنواحي الماليّة، حصل رغم كلّ شيء تقدّم حقيقي، أليس كذلك؟».

«حسناً، لن أفصّل على إذاعتكم سبل الالتفاف على القانون. إنها عديدة ومعظم العائلات المعنيّة سرعان ما اكتشفتها. سأكتفي بإعطاء مثل واحد. إحدى القنوات الرائدة في هذا القطاع صوّرت طفلين توأمين على مدى سنوات، مولّدة ملايين المشاهدات وبضعة ملايين اليورو. كشف موقع إخباريّ الآليّة الماليّة المعتمدة: فالمسؤول القانوني مرّ عبر وكالة لعارضي الأزياء من أجل دفع بدل لولديه، فأفصح عن عدد من الساعات في الأسبوع ضمن الحدود القانونيّة، ودفع لهما أجراً عليها. أودعت هذه الأجور صندوق الودائع والأمانات، طبقا لمتطلّبات القانون. لكنّ الوالد، باعتبار أنّه مؤلّف ومخرج ومنتج هذه الفيديوهات، وهو فعلا كذلك بحكم الواقع، ونظراً إلى أنه استثمر في المعدات الضرورية لإنتاج هذه الفيديوهات، استمرّ في تقاضي القسم الأكبر من المبالغ التي تدفعها العلامات التجارية، ومن العائدات الناجمة عن يوتيوب. من يدّعي ممارسة رقابة على هذا التوزيع؟ هذا مجرّد مثل... ولا أتحدّث هنا عن مدوّنات الفيديو العائلية، وهو قطاع يزداد نموّاً، تصوَّر فيه

العائلة بكاملها ولم يعد الطفل حتى يعتبر ممثّلا بل مجرّد شخصيّة ثانويّة... ما يعني الإفلات تماماً من الإطار التشريعي».

«أتوجّه الآن إليك سانتياغو فالدو. أنت طبيب نفسي ومحلّل نفسيّ، وتنبّه منذ زمن إلى الأضرار النفسيّة لهذا التعرّض المبكر. هل يمكنك أن تحدّثنا قليلا عن ذلك؟».

«تمّ تكييف رغبة الطفل منذ صغره على أن تلك كانت إرادته، وغالباً ما انتهى به الأمر مصدّقاً ذلك. في الحقيقة، لم يكن لديه أي خيار. كان أسير الرهانات العاطفيّة التي تربطه بوالديه، والتي اقترنت سريعاً برهانات اقتصاديّة، إذ إن معظم هذه العائلات كانت تعيش من هذه العائدات. ثمّ إن هؤلاء الشباب الذين يرفعون شكاوى اليوم واجهوا في سن مبكرة جداً متطلّبات لا يجدر أن يخضع لها طفل: الإغواء، الترويج، الردّ على المعجبين، السيطرة على صورتهم، إلى ما هنالك. والعديدون منهم يدفعون الثمن غاليا اليوم».

«من أي ناحية هذا يضرّ بالأطفال؟».

«يتبيّن لنا أنّ لديهم ثقة محدودة في أهلهم، وأنّهم يجدون صعوبة في بناء علاقات سليمة مع أقرانهم. نلاحظ من جهة أخرى عزلة كبيرة عند البلوغ، ضعفاً كبيراً حيال الإدمان، وأحياناً أعراضاً أخرى أخطر بكثير».

«دعني ألعب دور محامي الشيطان بعض الشيء، لطالما كان

هناك أطفال نجوم، ليست هذه ظاهرة جديدة! جوردي، بريتني سبيرز، ماكولي ماكالكن، دانيال رادكليف! كلّ جيل لديه رموزه».

«بين الأسماء التي ذكرتِها، ثمّة بعض الانهيارات العصبيّة الذائعة الصيت. الفرق، لأن هناك فرق، هو أنه بالنسبة للواتي والذين نتحدّث عنهم اليوم، وتمّ تصويرهم منذ صغرهم على يوتيوب أو إنستغرام، لم يكن الأمر يتعلّق بتصوير فيلم أو مسلسل، الترويج له ثمّ العودة إلى المنزل. لا، بل كان المطلوب أن يلعب الطفل دوره هو نفسه، كلّ يوم، في المنزل. في غرفته الخاصّة، في صالونه، في مطبخه، مع والديه الحقيقيّين. وأودّ التشديد على أنّني أتحدّث فعلاً عن دور، لأننا في الواقع لا نكون أبداً أنفسنا أمام كاميرا. تعلمين، أمر منهك أن نلعب دوراً».

«أشير رغم ذلك إلى أنّ بعض هؤلاء الأطفال حقّقوا نجاحاً ملفتاً. الابن الأوسط في زمرة الدباديب هو اليوم ممثّل معروف، والابنة البكر من فريق الحافلة الصغيرة كان لها مسار استثنائيّ».

«لست أقول العكس. لحسن الحظ أن بعض الأطفال من الأكثر تعرّضاً يتدبّرون أمرهم».

أعقبت النقاش استراحة موسيقيّة، اغتنمتها كلارا لتجلس.

عند انتهاء المعزوفة، استأنفت الصحافية الحديث.

«قبل بضعة أشهر، حصل «بابلو الزعيم» من والدته على تعويضات طائلة عن عطل وضرر، وعلى تدمير أو حجز أي صورة

تعنيه. تلك الوالدة صوّرت كلّ مراحل طفولته ونشرتها، والفيديو الأشهر من بينها يبقى الفيديو الذي تقلّد فيه موفدة خاصة أرسلت إلى مكان الحدث لتزفّ إلى المشتركين خبر «أول براز في النونيّة» (وأقتبس هنا، الفيديو حقق ملايين المشاهدات). على غرار ذلك، يمكننا أن نتوقّع في أحد الأيّام أن يطالب العديد من الأطفال الذين صوّرهم أهلهم في إطار «تحدّي الجبنة» الشهير، بسحب هذه الفيديوهات. أذكّر بأن هذا التحدّي الذي لقي نجاحاً عالميّاً، كان يقضي برمي شريحة جبن ذائب على وجه الطفل وتصوير ردّ فعله. سانتياغو فالدو، هل يمكن القول إن هذه الأحكام الصادرة مؤخّراً لصالح الأطفال هي مؤشّر جيّد؟».

«نعم، بالطبع. لكن الحقّ في النسيان وارد في القانون الذي تمّ التصويت عليه عام ٢٠٢٠. لكنّه في الحقيقة غير قابل للتطبيق. صور هؤلاء الأطفال أعيد نقلها والتعليق عليها إلى ما لا نهاية. لن تمحى أبدا. لا شيء يمّحى على الإنترنت، تعلمين ذلك. وبالتالي، القانون لا يسعه شيئا».

«شكرا سانتياغو فالدو على هذا الشرح، أذكّر بأنك طبيب نفسيّ ومحلّل نفسيّ، صدر لك كتاب بعنوان «في حال التعرّض المطوّل» عن دار...».

أطفأت كلارا الراديو واستغرقت في أفكارها.

«الانتقال حين تسنح فرصة. حين تبدّل الرياح وجهتها. حين تكون اللحظة مناسبة».

طلبت رقم سيدريك بيرجيه، وقبل أن تحيّيه حتى، بادرته «إنني موافقة».

سمعت صيحة فرح في الطرف الآخر من المكالمة، ثمّ أضاف «أعدك بأنّني لن أقول مرّة بعد اليوم «على» باريس بل «في» باريس».

ترتدي كيمي ملابسها لتلاقي شقيقها. كما في كلّ يوم، تختار ثياباً باهتة لا تلفت الانتباه، وهو تمويه بات لاشعوريّاً، أشكاله وألوانه مدروسة حتّى تذوب في المجموعة. لن تكون يوماً حرّة، لن تكون يوماً غير مرئيّة، هي على يقين بذلك. بالرغم من قلنسوة الرأس، القبّعة، الألوان الباهتة والرماديّة، ستجد على الدوام من يحدّق في وجهها بإصرار أو يقهقه ضاحكا في وسط الشارع. لن تبرأ يوماً من كل تلك النظرات التي لطّختها، استنفدتها، أتلفتها من خلال شاشة.

في الشارع، تخفض رأسها وتحني ظهرها محاولة تقليص قامتها. أخفت شعرها الأشقر داخل قلنسوة سوداء.

يسكن سامي واحداً من تلك الأبراج الشاهقة في الدائرة الثالثة عشرة، التي يمكن رؤيتها من المتحلّق، في الطابق العشرين، كما أوضح. لم يشأ الخروج، ووجدت صعوبة كبرى في إقناعه بالسماح لها بالقدوم. أحسّت به خلال الاتصال قلقاً متوتّرا. رغم البعد والوقت الذي انقضى، بإمكانها تبيان أدنى تباين في نبرة صوته. كان يحذر منها، فهمت ذلك. نجحت في القول له إنّها بحاجة إليه.

وعدته بأن تأتي بدون حقيبة وفارغة اليدين.

بدت لها أحداث الفترة الأخيرة حتّى اليوم مجرّد تسلسل متقلّب مبهم يمليه الغضب. زيارتها لكلارا روسّيل، حين نهضت ذات صباح، شربت قهوة وتوجّهت إلى الباستيون من غير أن يكون ذلك خطر لها إطلاقاً من قبل. قرار مقاضاة والديها. مجرّد نزق.

هي لا تأبه للمال. لديها أكثر ممّا يكفي. ما تريده هو إقرار بالأضرار. بالطفولة المسلوبة.

تعلم الآن أن كلّ هذا يقود إلى هدف واحد. تريد أن ترى سامي، أن تقف معه صفّاً واحداً. فهي أدركت أمراً: بإمكانها العيش بدون والديها، لكنّها لا تحتمل فكرة أن تكون خسرت شقيقها.

عند خروجها من المترو الجوّي، راحت فراشة جميلة تطير وتدور من حولها. تسنّى لها فقط أن تلمح ألوانها المتداخلة، بين الأمغر والبرتقاليّ، وخطر لها أنّ الفراشات باتت نادرة جداً، خصوصاً في هذا الموسم. وسط مباني المدينة الرماديّة، رأت فيها مؤشّر شعر أو جمال.

لم تخرق الشمس بعد الوشاح الضبابيّ الغبش المفروش فوق المباني مثل غطاء، وتبعث نورها كأنّما من خلال ستار. شارع دونوا بجوار المترو مباشرة. نقرت رمز البوابّة ودخلت البرج.

بدا وجهها في مرآة المصعد شاحباً يفضح تخوّفها.

ما إن قرعت الجرس حتّى فتح سامي الباب. حدّق خلفها كأنّما للتثبّت من أنّ أحداً لم يتبعها، ثمّ جرّها إلى الصالون.

جلسا على الكرسيين من جانبي الطاولة الصغيرة المستديرة.

خالجها فجأة تأثّر بالغ لرؤية هذا التماثل الفاضح في وضعيّتهما، جالسَين مشبوكَي الساقين، وذلك السعي للتقليل من قامتهما، باسطين يديهما على الراحتين حتّى لا يترنّحان.

بدأت تتكلّم وتروي كلّ تلك السنوات. السنوات التي قضياها معاً، وتلك التي أبعدتهما الواحد عن الآخر.

إنّه تيّار جارف من الكلمات المكبوتة طويلاً. سرعان ما ضاع التسلسل الزمني، تريد تقاسم ذكريات، تريد التذكير باللحظات الحلوة، تريد أن تقول له كم هو مهمّ لها، ما تمكّنت من إحرازه بفضله، تريد أن تقول له إنّها أدركت أنّه هو أيضا عانى.

ينصت سامي إليها بصمت.

ينظران أحدهما إلى الآخر، لم يعد هناك كلام.

ثمّ يمسك سامي بيديها.

من النافذة المفتوحة تدخل فراشة، الفراشة ذاتها التي صادفتها قبل قليل. يخطر لكيمي للحظة أنّها ربّما لحقتها، ثمّ تعلّل نفسها بأنّ هذا مستحيل.

وسط شعاع من النور، تطير الحشرة فوقهما.

عندها تسمع صفيراً طفيفاً بالكاد يمكن تمييزه، حتّى إنّها ليست واثقة تماماً من ذلك. ترتفع الحشرة نحو السقف. ترفع

عينيها. أمر غريب! يتهيّأ لها لثانية أنّها ترى كاميرا متناهية الصغر مثبتة بين جناحيها.

عندما يهبط الليل، تحبّ أن تتأمّل انعكاسها في سواد الواجهة الزجاجيّة المطلّة على الحديقة. تكون تلك عادة الساعة التي تجلس فيها على أريكتها قبالة الكاميرا رقم ثلاثة لتتقاسم مع مشتركيها مزاجها وانطباعاتها وتعليقاتها على أحداث الساعة. وتكون هذه فرصة أيضاً لتوزيع بعض النصائح حول الحياة اليوميّة أو النموّ الشخصيّ، لأن ميلاني تطّلع مؤخّراً على نهج جديد في علم النفس الإيجابيّ يقوم على ثلاثة مبادئ جوهريّة، هي الرؤية والإرادة والانتصار. تتّجه بعد ذلك إلى المطبخ وتباشر إعداد الطعام، مغتنمة المناسبة لإتمام بعض الموجبات المفروضة عليها لناحية الترويج لمنتجات.

لكنّها اليوم تبقى صامتة.

اليوم لم تفعل شيئاً.

لم تستأنف البثّ المباشرة منذ أمس، مثيرة موجة ذعر حقيقيّة بين معجبيها. توالت التعليقات والأسئلة والالتماسات وتزايدت في ساعات قليلة على كلّ شبكاتها، وراح كلّ يطرح فرضيّته أو شرحه.

لا يسعها أن تجيب. لا تقوى على ذلك.

إنّها بحاجة إلى هذا الصمت. ما عساها تكون ماهيّته؟ لا

تعرف، فهي تعيش منذ وقت طويل جدّاً في الضجيج الذي يتحتّم عليها توليده بنفسها لإرضاء محبّيها.

كلّ ما تعرفه هو أنّه لم يعد بإمكانها سماع كلمات «محاكمة» و«قانون» و«مقاضاة» و«عدالة»، تجعلها تودّ التقيّؤ.

كلّ هذا في غاية الظلم. لماذا لا يريد الناس أن يفهموا أنها بذلت أفضل ما بوسعها؟ أنّها ضحّت بحياتها العاطفيّة، بشبابها، حتّى يكون ولداها مشهورين وسعيدين؟ هي لم تقتل أحد على حدّ علمها!

هذا المساء، ستكتفي بنشر رسالة خطّيّة تعتذر فيها عن الانقطاع الموقّت في البث. يمكنها أن تُعَنْوِن هذه الرسالة «باي باي أحبّائي»، أو أفضل من ذلك «إلى الجحيم أحبّائي»، هههههه! كم سيكون هذا طريفاً. ستقول لهم «دعوني وشأني»، أو «اغربوا عن وجهي» أو «اهتمّوا بما يعنيكم» مثلما كانت والدتها تقول. والدتها، عجباً! ما دخلها هنا، كم سيكون هذا طريفاً، أجل، «إلى الجحيم أحبّائي»، آه غير معقول! أمر مضحك للغاية، لا، الواقع لا، لن يتقبّلوا المسألة بشكل جيّد.

لم يعد برونو إلى المنزل.

بالأمس بعد الظهر، بعدما حاولت الاتصال به مراراً بدون أن تفلح، عاد في نهاية المطاف واتّصل بها ليبلغها بأنّه سيبيت في الفندق.

ظنّت في البدء أنه اضطرّ إلى البقاء هناك أو أنّه يواجه عقبة على الطريق. لكن بعد صمت طويل بدا لها أنّه لن ينتهي، كانت تسمع

خلاله تنفّسه متصاعداً متسارعاً، أقرّ لها بأنّه لم يعد يودّ العودة إلى المنزل، إلى بيتهما.

قال «انتهى الأمر ميلاني، لم أعد أريد العيش بهذه الطريقة».

ظنّت في البداية أنّها لم تسمع جيّداً، لكنّه كرّر الجملة ذاتها بذلك الصوت المكبوت المكتوم. انتهى الأمر.

برونو، ركيزتها، صخرتها، السند الأكثر إخلاصاً لها...

لا يسعها ألّا تفكّر في الفيديو الذي قد تصوّره غداً إن كانت بحال أفضل، والذي قد يحقق نجاحاً كبيراً. «النساء فوق الأربعين من العمر يرين أزواجهنّ يطيرون خارج القفص»... أو ربّما «قدر النساء أن يقاتلن دائما وحدهنّ في نهاية المطاف».

لكن لا، هذا مُحال، يجب ألّا تصاب بالهلع.

برونو بحاجة فقط إلى أخذ مسافة للتفكير.

هذا ليس نهائيّاً. سيعود غداً. لبحث المسألة.

يريد أن يتنفّس.

يتنفّس، هو على حق، بالمناسبة ستشغّل موزّع الزيوت العطريّة الجديد من تقديم علامة بيو لايف، بعطر الأزهار والغابة والأحراش. ترياق حقيقيّ. لذيذ للغاية.

الواقع أنّها لا تشعر بنفسها على ما يرام. لأوّل مرّة، تعجز عن إدارة أولويّاتها، وتختلط الأمور كلّها عليها.

تشعر بصداع خفيف. وبعض الغثيان أيضاً.

ربّما أسرفت في شرب القهوة.

اليوم كيمي تقاضيهما، وهذا يكاد يكون أسوأ من اختفائها.

برونو أصيب في الصميم. هذا كلّ ما في الأمر. إصابة قاتلة. إنّه ينهار. لا عجب في ذلك. لكنّه سيستعيد السيطرة على نفسه، إنّها على يقين بذلك.

هي جنيّة وبرونو دبدوب كبير. آه أجل، هذا الوصف المناسب. «الجنيّة والدبدوب»، كم هذا طريف! يميت من الضحك.

يجب أن تبقى صامدة. صامدة من أجلهما الاثنين. عنوان الفيديو المقبل الذي ستصوّره يجب أن يكون خالياً تماماً من الغمّ. بل على العكس، ينبغي أن يكون إيجابيّاً. أكثر من أيّ وقت مضى.

«المواجهة معاً وسط العاصفة» سيكون عنواناً رائعاً. أو «عصفة ريح لا تكفي لاقتلاع شجرة».

سوف تناقش الأمر معه. هذه المرّة سيقرّران معاً.

وستعود الحياة إلى مجراها، كما من قبل. الأمور ستعود إلى نصابها. عليها ألّا تقلق.

كلّ شيء على ما يرام.

كلّ شيء على ما يرام.

كلّ شيء على ما يرام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هي تلك المرأة التي تجرجر نفسها محاولة اللحاق بركب مدينة لم تعد تحبّها، حيث الكلّ يسرع عائداً إلى منزله لتسجيل طلبيّات والاستهلاك على الإنترنت، أو الانصياع لمسار الخوارزميّات الآمر الناهي. هي تلك المرأة المحمومة التي يحرمها تيقّظها المسرف من النوم، تلك المرأة المسكونة بكآبة لا تقرّ بها، امرأة لم تعد قادرة على مجاراة التوجّه العام.

******

في روايتها الجديدة، تتقصّى الكاتبة عواقب تلفزيون الواقع على الحياة العائليّة إنها رواية تتحدّث عن الأطفال الذين يتمّ استعراضهم بقدر ما تتحدث عن الطفل الذي يخفيه كلّ منّا في داخله.

**رافاييل ليريس، صحيفة لوموند الفرنسيّة.**

رواية ساحرة، أساسيّة، مبتكَرة بجانبها البوليسي، تعرض في الوقت ذاته مهارة (الكاتبة) كمراقبة حاذقة لمجتمعنا. هنا تكمن براعتها: ديلفين دو فيغان لا تندّد، لا تصدر أحكاماً، بل تكشف، وهذا أشدّ وقعاً.

**محمّد عيساوي، مجلّة لوفيغارو الفرنسيّة.**

الأطفال ملوك لوحة قويّة، قاسية ومؤثرة لمجتمعنا، تأمّل في الشبكات الاجتماعية والتخلّي عن الحميميّة، في الطفولة وما ينالها من تعدّيات.

**ناتالي كروم، مجلّة تيليراما الفرنسيّة.**

مكتبة
t.me/soramnqraa

دلفين دو فيغان

# الأطفال ملوك

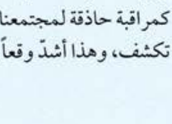

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
9 789921 775150
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com